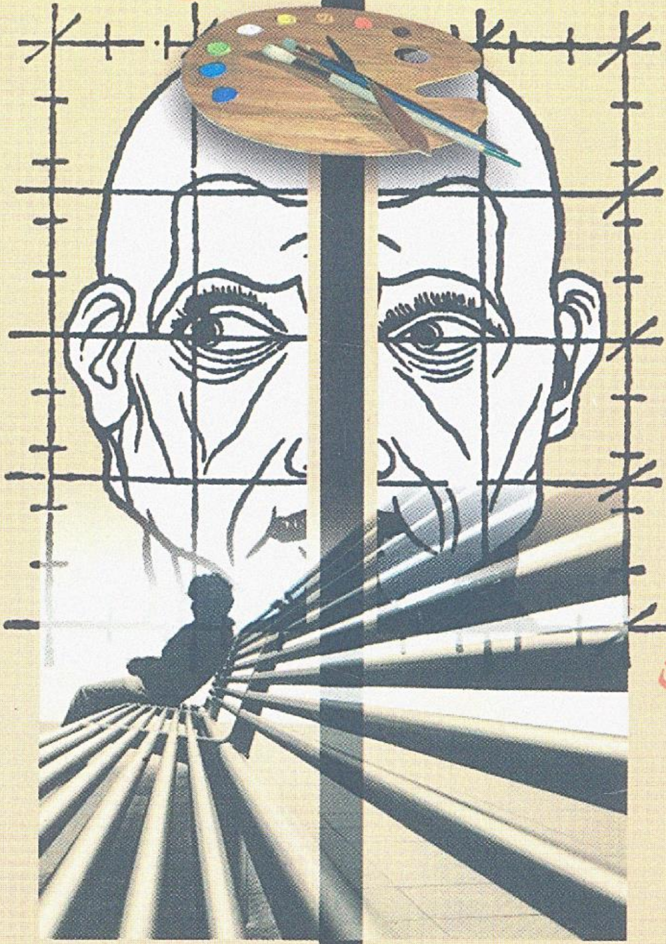
المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

فنان من العالم الطليق



تأليف
كازو إيشيجورو

ترجمة
هالة صلاح الدين

1334

الإبداع القصصي

إهـــــــداء ٢٠١٠
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

فنان من العالم الطليق
(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١٣٣٤
- فنان من العالم الطليق
- كازو إيشيجورو
- هالة صلاح الدين حسين
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية:

An Artist of the Floating World
by:Kazuo Ishiguro

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤– ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

فنان من العالم الطليق

(رواية)

تأليف: كــــازو إيشيجـــورو

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إيشيجورو، كازو
فنان من العالم الطليق (رواية) تأليف: كازو إيشيجورو، ترجمة: هالة صلاح الدين حسين، ط١
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩م.
٣٠٠ص؛ ٢٠سم
١- القصص اليابانية
أ- حسن، هالة صلاح الدين (مترجم)
ب- العنوان
٨٩٥,٦٣

رقم الإيداع: ١٠٣٠٦ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 1 - 251 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

أكتوبر ١٩٤٨

إذا تسلقتَ فى يوم مشمس الطريق المنحدر الذى يرتقى إلى أعلى مبتدئًا بالجسر الخشبى الصغير؛ ذاك الجسر الذى ما زال يشار إليه فى هذه الأنحاء بـ "جسر التردد"، فلن تضطر إلى المشى بعيدًا قبل أن يتراءى لك سطح منزلى من بين قمتين من قمم أشجار الجنكة. وحتى لو لم يحتل المنزل مثل هذا الموقع المطل على التل، سيظل بارزًا من بين كل المنازل المجاورة، وعليه فقد تتساءل، إن صعدتَ الطريق، عن ماهية الثرى الذى يمتلكه.

بيد أنى لست رجلاً واسع الثراء وما كنتُ أبدًا. وربما يمكن تفسير أبهة المظهر الخارجى للمنزل لو أنبأتك أن بانيه هو سلفى الذى لم يكن سوى أكيرا سوجيمورا. بالطبع قد تكون غريبًا عن هذه المدينة وفى هذه الحالة لن تألف اسم أكيرا سوجيمورا. لكن اذكره لأى شخص عاش هنا قبل الحرب وسوف تعلم أن سوجيمورا كان بلا مراء من بين أكثر رجال المدينة احترامًا ونفوذًا زهاء ثلاثين عامًا.

لو أخبرتُك بهذا، فلعلك تتساءل حقًا – عند وصولك إلى سطح التل ووقوفك عليه متطلعًا إلى المدخل الجميل المصنوع من خشب الأرز، والمساحة الواسعة المحاطة بسور الحديقة، والسطح بقراميده الفاخرة وروافدته المنقوشة بأناقة التى تبرز قبالة المنظر – كيف تأتى لى الحصول على مثل هذا العقار مع كونى حسبما أزعم رجلاً

متوسط الدخل. الحق أنى ابتعت المنزل بثمن بخس لا يكاد يستحق الذكر – بل بسعر قد لا يساوى نصف القيمة الفعلية للعقار فى تلك الآونة. وقد تيسر ذلك بسبب إجراء غاية فى الغرابة – يمكن أن يصفه البعض بالحماقة – طبقته عائلة سوجيمورا فى أثناء البيع.

مضى الآن على هذه الحادثة نحو خمس عشرة سنة. فى تلك الأيام عندما ظهر التحسن على أحوالى بمرور الشهور، جعلتْ زوجتي تلح على للعثور على منزل جديد. وببصيرتها المعتادة، ناقشتْ أهمية امتلاكنا لمنزل يتماشى مع مقامنا – ليس من قبيل الزهو ولكن من أجل احتمالات زواج ابنتينا. أدركتُ صواب رأيها، ولكن بما أن سيتسوكو، كبرى أطفالنا، كانت لا تزال فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها، لم أشرع فى الأمر على عجل. وبرغم ذلك، قضيت حوالى سنة كلما أسمع عن منزل مناسب للبيع، كنت أتذكر أن أستعلم عنه. كان واحدًا من تلاميذى هو أول من نبهنى إلى أن منزل سوجيمورا معروض للبيع عقب سنه من وفاته. بدت فكرة شرائي لمثل هذا المنزل منافية للعقل ورددت الاقتراحِ إلى الاحترام المبالغ فيه الذى طالما خلعه على تلاميذى. استفسرت مع ذلك عن المنزل وحظيت برد لم أتوقعه.

زارتنى بعد ظهر أحد الأيام سيدتان متعجرفتانِ ذواتا شعر أشيب واتضح أنهما بنتا أكيرا سوجيمورا. ولما عبّرتُ عن دهشتى لمثل هذا الاهتمام الشخصى بى من قِبل عائلة بهذا السمو، أنهت الأخت الكبرى إلى بلهجة باردة أنهما لم تحضرا بدافع الكياسة فقط. ففى خلال الشهور السابقة تلقت العائلة عددًا كبيرًا من الاستعلامات

حول منزل والدهم الراحل غير أن العائلة قررت فى النهاية رفضها جميعًا عدا أربعة طلبات. وقد تحرى أفراد العائلة الدقة فى انتخاب المتقدمين الأربعة؛ إذ تم اختيارهم على أساس محض من كرم الخلق وحسن الإنجاز.

واصلتْ الأخت الكبرى: "إنه لغاية فى الأهمية بالنسبة لنا أن يؤول المنزل الذى بناه أبونا إلى شخص يوافق عليه ويعتبره جديرًا به. ترغمنا الظروف بطبيعة الحال على مراعاة الجانب المادى إلا أن هذا الجانب ثانوى تمامًا. وقد حددنا بناء على هذا سعرًا."

عند هذه اللحظة أعطتنى الأخت الصغرى، التى لم تفه بكلمة واحدة، ظرفًا، وراقبتانى بوجوه متجهمة وأنا أفتحه. كانت بداخله ورقة واحدة خالية من الكتابة فيما عدا رقم كُتب بأناقة بفرشاة حبر. هممت بالتعبير عن دهشتي للثمن الضئيل إلا أنى رأيت وقتها من خلال تصفح الوجوه أمامى أن أية مناقشة أخرى للماديات ستعد بغيضة. قالتْ الأخت الكبرى ببساطة: "لن يكون فى مصلحة أى منكم أن يُحاول المزايدة على غيره. فنحن لا نرغب فى أن نحصل على أى شيء سوى الثمن المحدد. إذ نهدف من الآن فصاعدًا إلى إدارة مزاد يتسم بالوجاهة."

وشرحتْ أنهما قد حضرتا شخصيًا لسؤالى رسميًا بالنيابة عن عائلة سوجيمورا أن أُخضع نفسى – مع المتقدمين الثلاثة الآخرين بالطبع – لتحر أدق عن خلفيتى وأوراق اعتمادى. وهكذا سوف يتم اختيار مشترى مناسب.

كان إجراء غريبًا وإن لم أجده بغيضًا، فقد كان فى النهاية أشبه بالانخراط فى مفاوضات زواج. انتابنى فى الحقيقة شيء من الإطراء لاعتبارى جديرًا بالترشيح من قِبل هذه العائلة العتيقة المحافظة. وعندما وافقتُ على التحرى وأفضيت إليهما بامتنانى، خاطبتنى الأخت الصغرى للمرة الأولى قائلة: "كان أبونا رجلاً مثقفًا يا سيد أونو. وكان يكن عظيم الاحترام للفنانين. وكان بحق على دراية بعملك."

أجريتٍ استفساراتى الخاصة فى الأيام التالية واكتشفتُ صحة كلمات الأخت الصغرى؛ فقد كان أكيرا سوجيمورا بالفعل متحمسًا للفن حيث دعم المعارض بأمواله فى عدة مناسبات. صادفتُ أيضًا إشاعات أثارت اهتمامى: يبدو أن عددًا كبيرًا من أفراد عائلة سوجيمورا وقف ضد فكرة بيع المنزل على أى نحو ودارت مجادلات مريرة حول المسألة. فى النهاية كانت الضغوط المادية تعنى حتمية البيع، وكانت إجراءات الصفقة الغريبة بمثابة التسوية التى تم التوصل إليها مع مَن لم يشاءوا أن يخرج البيت عن العائلة. لا يمكن إنكار وجود شيء تعسفى يداخل هذه الترتيبات لكنى من جانبى كنت مستعدًا أن أتعاطف مع أحاسيس عائلة لها هذا التاريخ المميز. بيد أن زوجتى لم تتقبل فكرة التحرى.

اعترضتْ الزوجة: "من يخالون أنفسهم، ينبغى أن نقول لهم إننا لا نريد أية علاقة بهم بعد الآن."

فأوضحتُ لها: "لكن ماذا سيضيرنا من الأمر؟ لا تعيبنا شائنة لا نود أن يكتشفوها. صحيح أنى لست من أصول ثرية، لكن بالقطع يعلم آل سوجيمورا ذلك بالفعل، وما زالوا يعتقدون أننا مرشحون جديرون بالمنزل. فدعيهم يتحرون، فلن يسعهم إلا أن يجدوا ما فى صالحنا." وكان من اللازم أن أضيف: "مهما يكن الأمر هم لا يفعلون أكثر مما كانوا سيفعلون لو أننا نتفاوض معهم فى زواج. سوف نضطر إلى الاعتياد على مثل هذه الأمور."

إلى جانب أنه هناك بالتأكيد ما يدعو إلى الكثير من الإعجاب بفكرة "المزاد المتسم بالوجاهة" كما أسمته الأخت الكبرى. ويتساءل المرء عما يحول دون حسم الأمور بمثل هذه الوسائل. كم هو أنبل هذا التنافس، حيث تُقدَم أخلاق المرء وإنجازاته كشواهد دالة عليه بدلاً من حجم ثروته. لا زلت أتذكر ما اعترانى من رضا عميق عندما علمتُ أن آل سوجيمورا اعتبرونى عقب تحر مستفيض أجدر مَن يتملك المنزل الذى يجلونه عظيم الإجلال. لا شك أن المنزل يستحق تحمل بعض الإزعاج من أجله؛ ففضلاً عن مهابة مظهره الخارجى المؤثر، تجده من الداخل مصنوعًا من أخشاب ناعمة طبيعية اختيرت لجمال تجزعاتها، وكل مَن عاش منا فيه ألفاه باعثًا على الاسترخاء والهدوء.

وبرغم ذلك تجلى تحكم آل سوجيمورا فى كل الجوانب فى أثناء عقد جلسات الصفقة، فلم يحاول بعض أفراد الأسرة أن يخفوا عداءهم حيالنا، وربما شعر مشتر آخر أقل تفهمًا بالإهانة ونبذ الأمر

برمته. حتى فيما تلا من سنين كنتُ أحيانًا أصادف بعض أفراد العائلة الذين كانوا يقفون فى الشارع ليستجوبونى عن حالة المنزل وعن أى تغيير قمت به بدلاً من تبادل المعتاد من مهذب الحديث.

قلما أسمع هذه الأيام عن آل سوجيمورا. مع ذلك زارتنى – عقب فترة وجيزة من الاستسلام – الأخت الصغرى التى فاتحتنى فى الموضوع وقت البيع. أحالتها سنون الحرب إلى عجوز نحيفة. وكما هو أشبه بطبائع العائلة لم تجاهد لإخفاء أن همها ينصب على ما حدث للمنزل خلال الحرب، وليس على سكانه؛ عزتنى عزاء وجيزًا عند سماعها بما حدث لزوجتى ولكنجى قبل البدء فى السؤال عما أسفر عنه القصف من ضرر. تميزتُ من الحنق عليها فى مبدأ الأمر؛ بيد أنى بدأت حينذاك ألحظ كيف كانت عيناها تترددان فى الحجرة ترددًا لا إراديًا وكيف كانت تتوقف أحيانًا فجأة وسط إحدى جُملها المدروسة الرسمية، فأدركتُ أنها تكابد جيشانًا عاطفيًا لمّا وجدتْ نفسها تؤوب إلى هذا المنزل مجددًا. وعندما خمنتُ أن معظم أفراد عائلتها الذين كانوا موجودين فى أثناء البيع قد عاجلتهم المنية الآن، انطوى صدرى على شفقة عليها وعرضتُ أن أريها المكان.

بُلى المنزل بنصيبه من دمار الحرب. كان أكيرا سوجيمورا قد بنى جناحًا شرقيًا للمنزل يضم ثلاث حجرات واسعة يصلها بالجزء الرئيسى من المنزل ممر طويل يقطع جانبًا واحدًا من الحديقة. كان هذا الممر مفرط الطول حتى أوحى البعض أن سوجيمورا بناه – مع الجناح الشرقى – من أجل والديه اللذين كان يريدهما بمنأى عنه.

على كلٍ كان الممر واحدًا من أبرز عوامل الجذب بالمنزل؛ فعند الظهيرة كان يتعامد بالكامل مع الأضواء المنبعثة من أوراق النباتات وظلالها بالخارج حتى ليشعر المرء أنه يمشى فى حديقة على هيئة نفق. وقد أثر أغلب ما خلفه القصف من دمار على هذا الجزء من المنزل، وإذ كنا نعاينه من الحديقة، أبصرتُ الآنسة سوجيمورا وقد أوشكتْ على البكاء. تخلصتُ فى هذه اللحظة من كل إحساسى السابق بالضيق من العجوز وطمأنتُها بقدر استطاعتى أن الضرر سوف يتم إصلاحه فى أول فرصة وأن المنزل سيعود مره أخرى إلى سابق عهده كما بناه والدها.

لم أدر عندما قطعتُ هذا الوعد أن التجهيزات ستظل ضئيلة للغاية؛ فبعد مضى مدة طويلة من الاستسلام، كان من الممكن أن ينتظر المرء أسابيع حتى يحصل على قطعة معينة من الخشب أو إمداد من المسامير. وتحت مثل هذه الظروف كان لا بد أن يتم ما استطعت صنعه فى الجزء الرئيسى من المنزل – الذى لم ينج كلية من الدمار – أما العمل فى ممر الحديقة والجناح الشرقى فقد كان بطيئًا. لم آل جهدًا كى أمنع أى تدهور خطير يحل به لكننا ما زلنا لا نستطيع أن نعيد فتح هذا الجزء من المنزل. إلى جانب أن وجود شخصين هنا دون سواهما، أنا ونوريكو، جعلنا لا نتعجل توسيع مساحة معيشتنا.

إذا أخذتك اليوم إلى خلفية المنزل وأزحت جانبًا الحاجز الثقيل كى أسمح لك أن تحدق فى بقايا ممر حديقة سوجيمورا، ربما تولد

لديك – رغم ذلك – الانطباع بما كان عليه من روعة فيما خلا. لكنك ستلاحظ أيضًا بلا شك ما لم أستطع منعه من خيوط العنكبوت والعفن، وما تخلل السطح من فجوات واسعة لا يحجبها عن السماء سوى ألواح من المشمع. أحيانًا ما كنت أزيح هذا الحاجز فى الصباح الباكر لأجد ضوء الشمس يتدفق من خلال المشمع فى صورة أشعة باهتة تكشف عن سحب من التراب معلقة فى الهواء وكأن السطح قد انهار فى نفس هذه اللحظة.

وباستثناء الممر والجناح الشرقى أصاب الشرفة أكبر الضرر. كان أفراد أسرتى، ولا سيما ابنتى، مغرمين دومًا بقضاء الوقت جالسين هناك، يثرثرون ويتفرجون على الحديقة؛ لذا عندما زارتنا سيتسوكو – ابنتى المتزوجة – لأول مرة عقب الاستسلام، لم أجد عجبًا لرؤية حزنها العميق على حال الشرفة. كنت وقتها قد أصلحت أسوأ ما فى الدمار إلا أن أحد أطرافها كان لا يزال متموجًا ومتهدمًا حيث دفع تأثير الانفجار الألواح من أسفل. عانى كذلك سطح الشرفة، فقد كنا نضطر إلى أن نَصف الأوانى على ألواح الأرضية لتلتقط الماء المتساقط فى الأيام المطيرة.

غير أنى استطعت أن أحرز بعض التقدم على مدار السنة السابقة. وبحلول زيارة سيتسوكو التالية الشهر الماضى، كانت الشرفة قد رُممت بالكامل تقريبًا. أخذت نوريكو إجازة من العمل من أجل زيارة أختها، وهكذا ومع استمرار الجو الصحو قضت ابنتاى الاثنتان الكثير من وقتهما بالخارج مثلما كانتا تفعلان فى الأيام الخالية. غالبًا

ما كنت أنضم إليهما، وبين الفينة والأخرى كان الحال يشبه تقريبًا ما كان يجرى فى سنوات سابقة عندما تجتمع العائلة هناك فى الأيام المشمسة لتبادل الأحاديث المسترخية، الفارغة فى الغالب. وفى وقت ما من الشهر الماضى – ربما كان الصباح الأول من وصول سيتسوكو – كنا جالسين هناك فى الشرفة بعد الإفطار عندما قالت نوريكو:

"أنا مرتاحة لأنك حضرتِ أخيرًا يا سيتسوكو. سوف ترفعين عن كاهلى قليلاً مسؤولية أبى."

"كفاك يا نوريكو..." عدّلت أختها الكبرى من جلستها على الوسادة بما ينم عن عدم راحتها.

"أبى فى حاجة إلى الكثير من الرعاية أما وقد تقاعد الآن"، استرسلتْ نوريكو فى الحديث وعلى وجهها ابتسامة خبيثة. "لا بد أن تشغلى وقته وإلا سيبدأ فى التجول فى المنزل."

"حقًا..." ابتسمتْ سيتسوكو بعصبية ثم بدرتْ منها التفاتة نحو الحديقة وتنهدتْ:

"يبدو أن شجرة القيقب قد تعافت بالكامل. تلوح رائعة الجمال."

"يظهر أن سيتسوكو ليست لديها أية فكرة يا أبى عن طباعك هذه الأيام. إنها تتذكرك فقط عندما كنت طاغيًا آمرًا لنا طوال الوقت. أنت الآن أكثر رقة، أليس كذلك؟"

أطلقتُ ضحكة لأبين لسيتسوكو أن كل هذا الكلام مجرد دعابة غير أن الضيق لم يفارق وجه ابنتى الكبرى. التفتت نوريكو إلى أختها وأضافت: "لكنه بالفعل يحتاج إلى الكثير من الرعاية لأنه يتجول فى المنزل طيلة اليوم."

"كلام فارغ كالعادة" قلت بدورى مقاطعًا. "إذا كنتُ أقضى اليوم بأكمله فى التجول، كيف تأتى لى إنجاز كل هذه الإصلاحات؟"

"فعلاً" قالت سيتسوكو منصرفة ببصرها نحوى وهى باسمة الثغر. "إن المنزل يبدو الآن فى منتهى الروعة. لا بد أن أبى قد عمل جاهدًا على إصلاحه."

"لقد أحضر رجالاً لمعاونته فى جميع الأجزاء الصعبة. يبدو أنك لا تصدقيننى يا سيتسوكو. لقد تغير أبى تغيرًا كبيرًا الآن. ما عادت بنا حاجة إلى الخوف منه. فقد أصبح أكثر رقة وأكثر حبًا للحياة المنزلية."

"ويحك يا نوريكو..."

"بل إنه يطبخ من آن لآخر. لا يمكنك تصديق ذلك، أليس كذلك؟ إلا أن أبى أصبح طباخًا ماهرًا هذه الأيام."

قالت سيتسوكو بصوت هادئ: "أعتقد أننا ناقشنا هذا الأمر بما فيه الكفاية يا نوريكو، أليس كذلك يا أبي؟ أنتَ تحرز الكثير من التقدم."

ابتسمتُ ابتسامة أخرى وهززت رأسى تعبًا. أذكر أنه عند هذه اللحظة ندت عن نوريكو التفاتة نحو الحديقة وأغمضتْ عينيها لتتقى ضوء الشمس ثم قالت: "حسنا، لا يستطيع الاعتماد على أن أرجع وأطبخ حين أتزوج. سيكون عندى ما يكفى لعمله بدون الاعتناء بأبى أيضًا."

حين تفوهتْ نوريكو بهذه الكلمات، رمتنى أختها الكبرى بنظرة سريعة توحى بالتساؤل بعد أن كانت تتحفظ فى إخفاء تحديقتها حتى لحظتها. مرة ثانية تحولتْ عيناها عنى فى الحال، فقد كانت مضطرة إلى رد ابتسامة نوريكو. غير أن سلوك سيتسوكو داخلَه اضطراب جديد أعمق وبدت ممتنة عندما هيأ لها ابنها الصغير الفرصة لتغيير الموضوع. مر بنا سريعًا فى اتجاه الشرفة فنادت عليه: "إشيرو، اهدأ أرجوك!"

لا شك أن إشيرو أخذه الانبهار بمساحة منزلنا الواسعة بعد أن ألِف شقة والديه الحديثة. على أى حال ظهر أنه لا يشاركنا افتتاننا بالجلوس فى الشرفة، إذ فضّل الجرى بسرعة كبيرة جيئة وذهابًا بطول الشرفة منزلقًا أحيانًا على الألواح المصقولة. أوشك أكثر من مرة أن يقلب صينية الشاى ولم تفلح إلى الآن دعوات أمه أن يجلس. وحين دعته سيتسوكو أن يقعد معنا، مكث فى نهاية الشرفة يكلله العبوس.

ناديت عليه: "تعال يا إشيرو، أشعر بالملل من الكلام مع النساء طوال الوقت. تعال واقعد بجانبى لنتكلم فى مواضيع الرجال."

أحضره هذا الكلام فى الحال. وضع وسادته بجانبى وجلس كالمهذب، يداه على فخذيه وكتفاه مدفوعان جيدًا إلى الخلف.

"أوجى" قال فى حدة، "عندى سؤال."

"نعم يا إشيرو، ما هو؟"

"أريد أن أعرف عن الوحش."

"الوحش؟"

"هل هو مخلوق من قبل التاريخ؟"

"من قبل التاريخ؟ أنت تعرف بالفعل مثل هذه التعبيرات؟ أنتَ أكيد صبى ذكى."

بدا تهذب إشيرو يتراجع فى هذه اللحظة. فقد تخلى عن وضعه المتكلف واستلقى على ظهره وطفق يلوح بقدميه فى الهواء.

"إشيرو!" همستْ سيتسوكو بلسان متعجل. "يا لها من تصرفات سيئة أمام جدك. اعتدل!"

ما كان من إشيرو إلا أن ترك قدميه تتخفضان بلا حراك على ألواح الأرضية. عندئذ ضم ذراعيه على صدره وأرخى عينيه.

"أوجى،" قال بصوت ناعس، "هل الوحش مخلوق من قبل التاريخ؟"

"أى وحش هذا يا إشيرو؟"

"أرجوك لا تؤاخذه" قالت سيتسوكو فى حين علت وجهها ابتسامة عصبية. "عند وصولنا بالأمس كان هناك ملصق يعلن عن فلم خارج محطة القطار. لقد أزعج سائق التاكسى بالعديد من الأسئلة. خسارة أنى لم أر الملصق بنفسى."

"أوجي! هل الوحش مخلوق من قبل التاريخ أم لا؟ أريد إجابة!"

"إشيرو!" رمته أمه بنظرة مخيفة.

"لستُ متأكدًا يا إشيرو. أعتقد أنه علينا أن نرى الفلم لنعرف."

"متى سنرى الفلم إذًا؟"

"آآ. من الأفضل أن تناقش ذلك مع والدتك. مَن يدري؟ فربما يكون مرعبًا رعبًا لا يتحمله الأطفال الصغار."

ما قصدتُ أن تكون الملحوظة مستفزة بيد أن تأثيرها كان مروعًا على حفيدى. فقد تراجع جالسًا ورشقنى بعينيه صائحًا: "كيف تجرؤ! ماذا تقول!"

"إشيرو!" صرختْ سيتسوكو فزعة. إلا أن إشيرو ظل يرصدنى بنظرات جد مرعبة حتى إن أمه اضطرت أن تبرح وسادتها لتجئ إلينا. "إشيرو!" همستْ إليه وهى تهز ذراعه. "لا تحملق إلى جدك هكذا."

استجاب إشيرو بالاستلقاء على ظهره مرة أخرى مؤرجحًا قدميه فى الهواء. وجهتْ إلى أمه ابتسامة عصبية أخرى.

"إن خلقه فى منتهى السوء." ثم بدت مرتبكة تتعثر لإيجاد كلمات مناسبة فعاودها الابتسام.

نادت نوريكو وهى تنهض: "يا سيد إشيرو، لم لا تأتى لتساعدنى فى تنظيف مكان الإفطار؟"

رد إشيرو وقدماه تتأرجحان: "هذا عمل النساء."

"هكذا لن يعاوننى إشيرو؟ عندى الآن مشكلة. المائدة ثقيلة جدًا ولست قوية بما يكفي لتحريكها بمفردى. ترى من يمكنه مساعدتي إذًا؟"

حمل هذا الكلام إشيرو على الوقوف فجأة ليدخل المنزل بخطى واسعة دون أن يولينا نظرة خلفه. ضحكتْ نوريكو وتبعته إلى الداخل.

ألقت سيتسوكو نظرة خاطفة عليهما ثم رفعتْ براد الشاى وبدأتْ تملأ فنجانى من جديد. أسرتْ إلى بصوت منخفض: "لم أكن أعلم أن الأمور تطورت إلى هذا الحد، أقصد بخصوص مفاوضات زواج نوريكو."

"لم تتطور الأمور إلى أى حد بالمرة،" قلت محركًا رأسى. "فى الواقع لم يستقر أى شيء البتة. نحن ما زلنا في مرحلة مبكرة."

"معذرة، لكن ما ذكرتْه نوريكو من لحظة جعلنى بطبيعة الحال أظن أن الأمور تقريبًا ..." تثاقلتْ كلماتها ثم عادت تقول: "معذرة" لكنها نبست بالكلمة بطريقة أبقت سؤالاً معلقًا فى الهواء.

قلت: "ليست للأسف المرة الأولى التى تتكلم فيها نوريكو هكذا. فهى فى الحقيقة تتصرف تصرفات غريبة منذ بدء المفاوضات الحالية. لقد زارنا السيد مورى الأسبوع الماضى – هل تتذكرينه؟"

"بالطبع، كيف حاله؟"

"بخير. كان فقط مارًا بالمنزل فعرج ليقدم التحية. القصد أن نوريكو راحت تتكلم عن مفاوضات الزواج أمامه واتخذتْ ذات الموقف الحالى قائلة إن كل شيء قد بت فيه. كان الموقف غاية فى الإحراج حتى إن السيد مورى هنأنى أيضًا وهو خارج وسألنى عن مهنة العريس."

"فعلاً" قالت سيتسوكو وهى مستغرقة فى التفكير. "لا بد أنك وجدت حرجًا كبيرًا."

"لكنها ليست غلطة السيد مورى. فقد سمعتِها بنفسك الآن. ما المفترض أن يظن الغريب؟"

تركتْ ابنتى الجواب على هذا وجلسنا فى صمت عدة دقائق. وبينما كنت أتطلع إليها فى مرة من المرات، وجدتُها تحملق إلى الحديقة بالخارج وهى تمسك فنجانها بكلتى يديها كأنما نسيت وجوده. كانت تلك واحدة من مرات عديدة خلال زيارتها الشهر الماضى ألفيت نفسى أتأمل مظهرها – ربما بسبب الطريقة التى وقع بها الضوء على وجهها أو شيء من هذا القبيل. فما من شك أن سيتسوكو أصبحت أجمل مع تقدم سنوات عمرها. ففى صباها مسنى وأمها القلق

لأنها كانت عادية أكثر مما ينبغى حتى إنها لن تستطيع الفوز بزواج جيد. حتى وهى طفلة كانت لسيتسوكو ملامح رجولية بدأتْ تتضح فى سن المراهقة، لدرجة أنه كلما تعاركتْ ابنتاى، كانت نوريكو دائمة التغلب على أختها الكبرى بمناداتها "يا صبي! يا صبي!" ومن يدرى تأثير هذه الأمور على تكوين الشخصيات؟ هى ليست صدفة بالتأكيد أن نشأتْ نوريكو عنيدًا ونشأتْ سيتسوكو خجولة ومنكمشة على نفسها. لكن يبدو أن مظهر سيتسوكو بعد أن شارفتْ الثلاثين بات الآن يتخذ وقارًا جديدًا لا تخطئه الأعين. يسعنى تذكر والدتها وهى تتنبأ بهذا – كانت أكثر ما تقول: سوف تزهر ابنتنا سيتسوكو فى الصيف. وقد خلتها فقط طريقة زوجتى لمواساة نفسها غير أنى ذهلت بالفعل مرارًا الشهر الماضى من صواب ظنها.

استيقظتْ سيتسوكو من حلم اليقظة الذى استغرقتْ فيه وأولت المنزل نظرة أخرى ثم قالت: "أحسب أن ما حدث العام الماضى نال من نوريكو، ربما أكثر مما تصورنا."

أرسلتُ تنهيدة وأومأتُ قائلاً: "احتمال أنى لم أعرها الاهتمام الكافى وقتها."

"أنا متأكدة أن أبى بذل ما فى وسعه. لكن بالطبع مثل هذه الأمور تمثل صفعة فظيعة للمرأة."

"لا بد أن أعترف أنى خلتها تمثل قليلاً، كما تفعل أختك أحيانًا. لقد أصرت على أنه 'زواج عن حب' وبالتالى عندما فشل اضطرت أن تتصرف وفقا لذلك. لكن ربما لم يكن كله تمثيلاً."

"لقد ضحكنا وقتذاك لكن عله كان زواجًا عن حب بالفعل."

عدنا إلى الإطراق، ومن داخل البيت أمكننا سماع صياح إشيرو المتكرر.

"عذرًا" نبست سيتسوكو بصوت غريب. "لكن هل عرفنا أبدًا سبب إخفاق طلب الزواج العام الماضي؟ لقد كانت خطوة غير متوقعة تمامًا."

"ليس عندي أي علم بما حدث. الأمر بالكاد يعنينا الآن، أليس كذلك؟"

"بالتأكيد، عذرًا." بدا لي أن أفكار سيتسوكو قد حامت حول شيء لحظة ثم استأنفتْ الكلام: "غاية الأمر أن سويشي يلح في سؤالي من آن لآخر عما جرى العام الماضي، عن سبب انسحاب آل مياك هكذا." ضحكتْ ضحكة واهنة، تقريبا لنفسها. "يبدو مقتنعًا أني أعلم سرًا ما وأننا جميعًا نخفيه عنه. يتعين على أن أطمئنه باستمرار أني أنا نفسي لا أعرف أي شيء."

قلت بقليل من البرود: "أؤكد لك أن المسألة لا تزال لغزًا بالنسبة لي مثلك تمامًا. ولو كنت أفقه شيئًا، ما كنت لأحجبه عنك وعن سويشي."

"بالتأكيد. ارجوك أعذرني. ما كنت لألمح أن ..." ومرة أخرى تثاقلتْ كلماتها ارتباكًا.

ربما بدوت جافًا قليلاً مع ابنتى هذا الصباح لكنها لم تكن المرة الأولى التى تستجوبنى فيها سيتسوكو بمثل هذا الأسلوب بشأن العام الماضى وانسحاب آل مياك. لماذا تحسبنى أكتم شيئًا عنها، لا أدرى. لو لدى آل مياك سبب خاص لتراجعهم على هذا النحو، فمن المنطقى أنهم لن يفضوا به إلى.

تخمينى الشخصى أنه لا يوجد أى شيء غير اعتيادى فى المسألة. صحيح أن انسحابهم فى اللحظات الأخيرة كان خارج التوقعات، لكن لِم يجب أن يظن المرء الظنون؟ إحساسى أن الأمر لا يخرج عن شعورهم بوضعية العائلة. فآل مياك، مما رأيته عليهم، من النوع المغرور الصريح الذى لن يستريح إلى فكرة زواج ابنهم من فتاة تفوقه اجتماعيًا، بل لعلهم تراجعوا حقًا على نحو أسرع لو وقع ذلك منذ بضع سنوات. لكن مع ادعاء الاثنين أنه "زواج عن حب" ومع الحديث أيامها عن أساليب الحياة الجديدة، حل على آل مياك الاضطراب فيما إذا كانوا على الطريق المستقيم من عدمه. والتفسير بلا مراء ليس أعقد من ذلك.

من الجائز أيضًا أن ارتباكًا قد تولاهم لموافقتى الصريحة على الزواج. لأنى أهملت التفكير فى الوضع الاجتماعى، فغريزتى ببساطة لا تشغلنى بمثل هذه المسائل. والحق أنى لم أكن واعيًا فى أية مرحلة من حياتى لمكانتى الاجتماعية، بل إنى غالبًا ما أندهش الآن عندما يُذكرنى حدث أو قول ذكره شخص ما بما أحظى به من احترام رفيع نوعًا ما. ففى إحدى الأمسيات مثلاً كنت فى حى المتعة القديم الخاص

بنا، أحتسى الخمر فى حانة السيدة كاواكامى حيث ألفينا، أنا وشينتارو، نفسينا الزبونين الوحيدين مثلما يحدث على نحو متزايد هذه الأيام. كنا جالسين كالمعتاد على كرسيينا المرتفعين بالبار، نتبادل التعليقات مع السيدة كاواكامى، ومع مرور الساعات وعدم وفود زبائن آخرين، اصطبغتْ أحاديثنا بالمزيد من الألفة. كانت السيدة كاواكامى تتحدث ذات مرة عن أحد أقاربها وتشكو أن الشاب لم يستطع الحصول على وظيفة تتناسب مع قدراته عندما صاح شينتارو ذات فجأة: "لا بد أن ترسليه إلى المعلم يا أوباسان! وبتوصية جيدة من المعلم فى المكان الصحيح لن يلبث قريبك أن يجد وظيفة جيدة."

اعترضتُ قائلاً: "ماذا تقول يا شينتارو؟ أنا الآن متقاعد. وليست لدى اتصالات هذه الأيام."

ألح شينتارو: "إن توصية من رجل فى مثل مكانة المعلم تستحق الاحترام من أى شخص. أرسلى الشاب إلى المعلم يا أوباسان."

طغى على الاندهاش فى البداية من اقتناع شينتارو بتأكيداته بيد أنى أدركت ساعتئذ أنه ما زال يتذكر كل هذه السنوات ما أسديته إلى أخيه الأصغر من صنيع متواضع.

يرجع هذا إلى عام ١٩٣٥ أو ١٩٣٦ أو نحو ذلك، كان أمرًا روتينيًا للغاية كما أتذكر – خطاب توصية لأحد معارفى فى وزارة الخارجية، شيء من هذا القبيل. ما كنت لأطيل التفكير فى الأمر

وقتها غير أنى كنت أسترخى بالبيت بعد ظهيرة أحد الأيام حين أبلغتنى زوجتى بقدوم زوار لى بالمدخل.

"أدخليهم من فضلك."

"لكنهما مصران ألا يزعجاك بالدخول."

خرجتُ إلى المدخل حيث وقف شينتارو وأخيه الأصغر الذى كان شابًا حينذاك. وما إن وقعتْ أعينهما على حتى بدءا فى الانحناء والقهقهة.

قلت لهما: "أرجوكما تفضلا." إلا أن غاية أمرهما أن استمرا فى الانحناء والقهقهة. "من فضلك يا شينتارو، تقدم إلى الحصيرة."

"لا يا معلم." قال وهو لا ينقطع عن الابتسام والانحناء.

"إنها منتهى الوقاحة منا أن نأتى إلى منزلك هكذا، منتهى الوقاحة. لكننا ما استطعنا أن نلبث فى البيت أكثر من ذلك بدون أن نوجه إليك شكرنا."

"فلتدخلا. أعتقد أن سيتسوكو تعد بعض الشاى."

"لا يا معلم. إنها منتهى الوقاحة حقًا." ثم تلفت شينتارو نحو أخيه هامسًا بسرعة: "يوشيو! يوشيو!"

كف الشاب عن الانحناء للمرة الأولى ورفع إلى وجه تعلوه العصبية ثم قال: "سوف أظل ممنونًا لك بقية عمرى. سوف أجهد كل ذرة فى كيانى لأكون عند حسن ظن توصيتك بى. أؤكد لك أننى لن

أخذلك. سأعمل جاهدًا وأكافح من أجل إرضاء رؤسائى. ومهما شجعنى أحد فى المستقبل لن أنسى قط الرجل الذى مكننى من بدء مستقبلى."

"حقًا لم آت بشيء ذى بال. فأنت أهل للوظيفة."

حملهما هذا التعليق على سلسلة من الاعتراضات المهتاجة، ثم خاطب شيننتارو أخيه: "يا يوشيو، لقد فرضنا نفسينا على المعلم بما يكفي. لكن قبل أن نغادر، تفرس مرة أخرى فى وجه الرجل الذى عاونك. إن من حسن طالعنا أن رجل الخير الذى أحسن إلينا ينعم بمثل هذا النفوذ والكرم."

"بالفعل" غمغم الشاب وحدق فى وجهى.

"من فضلك يا شيننتارو. أنت تحرجنى. تفضل لو سمحتَ لنحتفل بشرب بعض الساكى"

"لا يا معلم، لا بد أن نغادر الآن. إنها منتهى الوقاحة أن نأتى إلى هنا هكذا ونفسد عليك ظهيرتك لكننا لم نقدر أن نؤجل شكرك لحظة أخرى."

على أن أعترف أن هذه الزيارة خلفتْ فى سريرتى شعورًا بإنجاز ما بعده إنجاز. ففى وسط مهنة مشحونة لا تسمح بالتوقف والتقييم، كانت تلك إحدى اللحظات التى ألقت فجأة الضوء على ما آل إليه المرء تحديدًا. الحقيقة هى أنى بدأت مستقبلى بلا تفكير تقريبًا، بدأتُه كشاب يعمل فى مهنة جيدة. ومنذ أعوام قلائل كان لا يمكن

تخيل مثل هذه المكانة، وسعنى رغم ذلك تبوؤ مثل هذا المركز دون وعى من جانبى تقريبًا.

أوضحتُ فى تلك الليلة بحانة السيدة كاواكامى: "تبدلتْ أشياء كثيرة عما عهدنا فى السابق يا شينتارو. أنا الآن متقاعد، وليس لدى العديد من الاتصالات."

وعلى الرغم من كل ما أحيط به علمًا، لعل شينتارو لم يكن مخطئًا كليًا فى افتراضاته. لعلى لو اخترت أن أختبر منزلتى، سأندهش من جديد من مدى نفوذى. فأنا كما قلت لم أكن أبدًا مدركًا تمام الإدراك لمكانتى الاجتماعية.

على أية حال حتى لو أظهر شينتارو سذاجة فى بعض الأحايين بخصوص أمور معينة، فذلك لا يقلل من شأنه. فليس من السهل أن يقابل المرء شخصًا لم يتلوث بسخرية أيامنا ومرارتها. إن الطمأنينة تداخلنى حين أمضى إلى حانة كاواكامى لأجد شينتارو جالسًا هناك عند البار، تمامًا مثلما كان يمكن أن تجده فى أية أمسية خلال السبع عشرة سنة الماضية أو نحوه، يدير وهو شارد الذهن قبعته في دوائر على الطاولة بطريقته المعهودة كما لو أن الدنيا ما فتئت حقًا على حالها أمام عينيه. سوف يحييني بأدب جم كأنه ما زال تلميذى، وطوال المساء ومهما كان مخمورًا سيستمر فى مخاطبتى بـ "يا معلم" محافظًا على غاية الاحترام فى سلوكه نحوى. بل إنه أحيانًا ما يسألنى، بكل ما يعترى الشاب المبتدئ من لهفة، أسئلة تتعلق بالطريقة أو الأسلوب الفنى – على أن الحقيقة بالطبع هى أن اهتمام

شينتارو بأى فن حقيقى قد توقف منذ أمد طويل. فقد كرس وقته منذ بضع سنوات للرسوم التوضيحية، وتخصصه الآن فيما أعتقد هو سيارات المطافئ. سوف يعمل يومًا بعد يوم فى حجرته العلوية إياها مخططًا السيارة بعد السيارة. لكن فى الأمسيات وعقب بضع كؤوس أتصور أن شينتارو يحلو له الاعتقاد أنه لا يزال الفنان الشاب المثالى الذى أشرفتُ عليه فى أول الأمر.

كثيرًا ما كان جانب شينتارو الطفولى مصدر تسلية للسيدة كاواكامى التى كانت شخصيتها تتصف بشيء من الأذى.

فمؤخرًا مثلاً حضر شينتارو بإحدى الليالى فى أثناء عاصفة ممطرة. هرول داخل الحانة الصغيرة وجعل يعصر قبعته فوق ممسحة الأرجل بالخارج.

"ويحك يا سيد شينتارو!" صاحت فيه السيدة كاواكامى. "يا لها من سلوكيات بشعة!"

عند هذا القول ارتفعتْ عينا شينتارو بانزعاج بالغ شأنه شأن مَن ارتكب بحق جريمة نكراء. طفق شينتارو حينها يسرف فى الاعتذار مما شجعها على المضى فى توبيخه.

"ما عهدتُ قط مثل هذه السلوكيات يا سيد شينتارو. يظهر أنك لا تكن لى أى احترام على الإطلاق."

"توقفى الآن يا أوباسان،" ناشدتُها بعد وهلة. "كفاك، قولى له إنك كنت تمزحين معه فحسب."

"أمزح؟ أنا لست بمازحة على الإطلاق. إنها قمة السلوكيات السيئة."

وهكذا توالى الموقف إلى أن صارت مشاهدة شينتارو جد مثيرة للشفقة. لكن فى مواقف أخرى يكون شينتارو مقتنعًا أنها تغيظه بينما هى فى الواقع تكلمه بكل جدية. ومر وقت كان فيه شينتارو يُعَرض السيدة كاواكامى لمواقف محرجة كأن يصرح بلسان المبتهج عن جنرال نُفذ فيه حكم الإعدام للتو لأنه مجرم حرب: "أنا دائم الإعجاب بهذا الرجل منذ كنت غلامًا. ماذا يفعل الآن يا ترى. لا ريب أنه تقاعد."

كان حاضرًا فى تلك الليلة زبائن جدد رشقوه بنظرات تشى بالاستهجان. ولما ذهبت السيدة كاواكامى إليه بدافع القلق على زبائنها وأخبرته بنبرة هادئة عن مصير الجنرال، ضج شينتارو بالضحك وتصاعد صوته: "حقًا يا أوباسان. أنتِ تبالغين فى بعض النكات."

ما أكثر ما يلاحظ الناس جهل شينتارو بمثل هذه المسائل لكن حسبما أقول لا يغض هذا من قدره. إذ يتعين على المرء أن يشعر بالامتنان لوجود مَن لم يتلوثوا بالتيار الراهن الغاص بالسخرية. فى الحقيقة ربما تكون نفس هذه الصفة التى يتحلى بها شينتارو، نفس الحاسة التى احتفظ بها سالمة بطريقة أو بأخرى – هى ما جعلتنى أستمتع بصحبته أكثر فأكثر خلال هذه الأعوام الأخيرة.

أما السيدة كاواكامى، فبرغم أنها تبذل قصارى جهدها لئلا تسمح للمزاج الحالى أن يطولها، لا نستطيع أن ننكر أنها شاخت

كثيراً بفعل سنوات الحرب. فقبل الحرب ربما كان لا يزال ممكنًا الاعتقاد أنها "شابة" لكن يبدو أن شيئًا بداخلها قد انكسر ووهن منذ ذلك الحين. وعندما يتذكر المرء مَن فقدتهم في الحرب، لا تصيبه الدهشة لحالها. تزايدت كذلك صعوبة العمل؛ يشق عليها بالتأكيد تصديق أن هذه المنطقة هى نفس المنطقة التى افتتحت فيها حانتها الصغيرة منذ ستة عشر عامًا أو سبعة عشر عامًا. فما عاد هناك الآن بالفعل شيء باق من حى المتعة الصغير الخاص بنا، إذ أغلق كل منافسيها القدامى تقريبًا محلاتهم ورحلوا عن المكان، ولا بد أن السيدة كاواكامى فكرت أكثر من مرة فى أن تحذو حذوهم.

كان محلها، عند ظهوره لأول مرة، محشورًا وسط العديد من الحانات والمطاعم الأخرى. أتذكر أن بعض الناس قد تشككوا فى استمرار المحل طويلاً. والحق أنك لم تكن لتستطيع المشى فى تلك الشوارع الضيقة بدون أن تمر بالعديد من الرايات القماش التى تستحثك من كل الجهات وتميل عليك من واجهات المحلات، معلنة بكتابات صارخة عن مَواطن الجاذبية فى المنشأة. غير أنه فى تلك الأيام جرى العرف بالمنطقة على الإبقاء على ازدهار أى عدد من هذه المنشئات. كانت المنطقة فى الأمسيات الأكثر دفئًا بالذات تمتلئ بالناس، يتجولون على مهل من حانة إلى أخرى أو يكتفون بالوقوف فى منتصف الشارع ليطرقوا شتى الأحاديث. وقد أحجمت السيارات منذ وقت طويل عن التجرؤ بالعبور بل إن أية دراجة لا يمكنها اختراق حشود المشاة غير المبالية دون أن تُدفع بمشقة عبرها.

أشير إليه بـــ "حى المتعة الخاص بنا" لكنى أحسب أنه لم يكن بالفعل سوى مكان للشرب والأكل والحديث. فلا بد أن تقصد وسط المدينة لتشهد أحياء المتعة الحقيقية - لترى منازل فتيات الجيشا ومسارحهن وإن كنت عن نفسى أوثر دائمًا منطقتنا، فهى تجتذب حشدًا مفعمًا بالحيوية إنما محترم. الكثير منهم أشخاص مثلنا - فنانون وكُتاب أغراهم الوعد بأحاديث صاخبة تتتابع طوال الليل. كانت مجموعتي تتردد على منشأة تسمى "ميجي-هيدارى" وكنا نقف عند موضع تقاطع ثلاثة شوارع جانبية عند أحد المناطق المرصوفة. كانت الميجي-هيدارى على عكس المحلات المجاورة مكانًا متسعًا يمتد فى غير اتساق ويلحق به طابق علوى، كانت العديد من المضيفات ترتدين كلاً من الزى الغربى والتقليدى. وقد لعبتُ دوراً صغيراً فى تقزيم الميجي-هيدارى لمنافسيه، وتقديراً لذلك، وفّر المكان لمجموعتي مائدة فى أحد الأركان لاستخدامنا الخاص. الواقع أن مَن نادمتُهم هناك كانوا من خيرة مَدرستى: كورودا، موراساكى، تاناكا - شباب لامعون ذوو سمعة متنامية. كلهم استطابوا الحوار، وأذكر أن الكثير من المناقشات الحامية قد دارت حول هذه المائدة.

يتحتم على أن أقول إن شينتارو لم يكن قط واحداً من هذه المجموعة المنتقاة. فأنا عن نفسى ما كنت لأعترض على انضمامه إلينا، على أنه كان هناك إحساس قوى بالتسلسل الهرمى بين تلاميذى، وشينتارو لم يُعد بالقطع فى المرتبة الأولى بينهم. أستطيع فى الواقع استدعاء إحدى الليالى، بعد فترة وجيزة من زيارة

شينتارو وأخيه، التى ناقشتُ فيها هذه الحادثة حول المائدة. أتذكر كيف هزأ أمثال كورودا من إحساس الأخوين بالامتنان للحصول على "وظيفة رسمية"؛ إلا أنهم أصغوا إلى جميعًا بإجلال حين أدليت برأيي؛ فبينتُ لهم أن السلطة والمنزلة الرفيعة بوسعهما أن يباغتا شخصًا يعمل بهمة، ليس تعقبًا لهذه الغايات فى حد ذاتها إنما بهدف إشباع رغبته فى إنجاز مهامه على أفضل وجه مستطاع. فى هذه اللحظة انحنى أحدهم إلى الأمام - كان بلا شك كورودا - وقال:

"لقد استولى على لفترة من الوقت شعور بأن المعلم لا يفطن إلى ما يخلعه عليه أهالى هذه المدينة من احترام بالغ. والحق أن صيته قد ذاع الآن إلى ما وراء عالم الفن، إلى كل حقول الحياة مثلما يوضح بإسهاب المثال الذى رواه للتو. إلا أن عدم إدراك المعلم لوضعيته خليق بطبعه المتواضع. فمن طبع المعلم أن يكون هو نفسه أكثر الناس دهشة بما يُمنح له من تقدير. لكن نحن جميعًا هنا لا يباغتنا هذا بالدهشة. ويسعنى حقيقة أن أقول إنه على الرغم مما يناله من احترام جم من قِبل الجماهير عامة، نحن الجالسون هنا إلى هذه المائدة نعلم وحدنا مدى ضآلة هذا الاحترام حتى الآن. إلا أنى شخصيًا لا يساورنى الشك فى أن شهرته ستحلق فى الأفاق، وسوف يشرفنا فى السنوات المقبلة أن نفخر بأن نقول للآخرين إننا كنا فى يوم من الأيام تلاميذ ماسوجى أونو."

لم يشذ هذا الخطاب عن المألوف؛ ففى وقت ما من المساء عندما كنا نشرب جميعنا قليلاً، جرت العادة أن يلقى مَن أرعاهم من التلاميذ خطب الولاء لى. وقد نهض كورودا على الأخص بأكثر الخطب، إذ كانوا يرنون إليه باعتباره متحدثًا باسمهم. درجتُ بالطبع على تجاهلهم، لكن فى هذه المناسبة بالذات حين وقف شينتارو وأخوه ينحنيان ويقهقهان بالمدخل، راودنى شعور بعظيم الرضا يدفئ قلبى.

على أن الإيحاء بأنى لم أخالط سوى خيرة تلاميذى ليس صحيحًا. فأنا أعتقد حقًا أن أول مرة فى حياتى أخطو فيها داخل حانة السيدة كاواكامى كانت لرغبتى فى قضاء الأمسية أناقش إحدى المسائل مع شينتارو. واليوم عندما أحاول استحضار هذا المساء، ألفى ذاكرتى عنه مختلطة بأصوات كل الأمسيات الأخرى وصورها؛ المشكاوات المعلقة أعلى المداخل، الرواد المتجمعون يتضاحكون خارج الميجي–هيدارى، رائحة الطعام المقلى فى الأوانى العميقة، مضيفة بحانة تقنع شخصًا بالرجوع إلى زوجته – تتردد أصداء مقبلة من كل حدب وصوب، أصداء صنادل خشبية لا عد لها تطقطق على الأسمنت. أذكر أنى بإحدى ليالى الصيف الدافئة عندما لم أجد شينتارو بالأماكن التى تعود الاختلاف إليها، تجولتُ فى تلك الحانات الصغيرة لبعض الوقت. ورغم المنافسة التى لا بد وأنها احتدمت بين تلك المنشئات، سادت روح مودة بينها. فكان أمرًا طبيعيًا تمامًا عند السؤال عن مكان شينتارو بإحدى تلك الحانات ليلتذ أن تنصحنى المضيفة بلا أدنى استياء أن أحاول العثور عليه فى "المكان الجديد".

لا ريب أن السيدة كاواكامى تشير إلى تغييرات عديدة – `تحسيناتها' الطفيفة التى قامت بها خلال السنوات. بيد أن انطباعى أن محلها الصغير تراءى اليوم على ما كان عليه فى تلك الليلة الأولى. فعند دخول الحانة يستوقف المرء التناقض بين طاولة البار المضاءة بأضواء دافئة منخفضة وباقى الحجرة القابعة فى الظلام. يؤثر معظم زبائنها الجلوس ضمن محيط الضوء عند البار مما يبعث فى المكان إحساسًا بالراحة والألفة. أتذكر فى تلك الليلة الأولى أنى أجلت نظرات تستحسن المكان، واليوم ما تزال حانة السيدة كاواكامى ممتعة كالعهد أبدًا بها رغم ما بدل العالم المحيط من تغييرات.

إلا أن التغيير قد طال معظم الأماكن الأخرى. فحينما تخرج الآن من حانة السيدة كاواكامى، ستقف عند مدخلها وستخال أنك كنت تحتسى الخمر للتو فى معقل من معاقل الحضارة. فلن يحيق بك سوى صحراء من الحجارة المتهدمة. وحسبك العديد من خلفيات المبانى النائية كى تتذكر أنك لست بمنأى عن وسط المدينة. "إنه دمار الحرب" حسبما تطلق عليه السيدة كاواكامى. لكنى أتذكر أنى تجولت بالحى عقب فترة وجيزة من الاستسلام وكانت الكثير من تلك المبانى لا تزال قائمة. كان الميجي – هيدارى ما زال موجودًا وإن نُسفت كل نوافذه وسقط جزء من السطح. أذكر أني حين سرت بجوار تلك المبانى المحطمة، تساءلتُ فى قرارة نفسى ما إذا كانت ستعود أبدًا إلى الحياة ثانية ثم عرجتُ على المكان فى صبيحة أحد الأيام فوجدتُ أن الجرافات قد هدمت كل شيء.

هكذا انقلب الآن ذلك الجانب من الشارع إلى مجرد حطام. لا ريب أن السلطات لديها خطط لإعماره إلا أن تغييرًا لم يطرأ على الحال طيلة ثلاث سنوات. يتجمع المطر فى برك صغيرة ويركد وسط حطام الطوب. ونتيجة لهذا اضطرت السيدة كاواكامى أن تضع أسلاكًا على نوافذها حماية من الناموس – وبرغم عدم جدواها، تخال السيدة كاواكامى أنها ستجتذب الزبائن.

ظلت المبانى قائمة على جانب الشارع الذى تقع به حانة السيدة كاواكامى غير أن العديد منها كان شاغرًا؛ فمثلاً العقارات الكائنة إلى جانبيها شاغرة منذ فترة مما يقض عليها مضجعها. وهى تخبرنا كثيرًا أنها إن صارت ثرية على حين بغتة، ستشترى كل المتاح من تلك العقارات وتتوسع. وهى تنتظر فى غضون ذلك أن ينتقل أحدهم إليها؛ ولا مانع عندها أن يفتتحوا حانات مثل حانتها، أى شيء شريطة ألا تُرغم على العيش وسط مقبرة.

لو خرجتَ من حانة السيدة كاواكامى عندما يبسط الظلام رداءه، قد تضطر إلى أن تتوقف لحظة لتحدق فيما يترامى أمام ناظريك من خراب. لعلك مع ذلك تستطيع أن تميز عبر الظلام تلك الأكوام من الطوب والخشب، وربما تجد هنا أو هناك أجزاء من أنابيب تنتأ من الأرض كما الأعشاب الضارة. وإذ تمشى بجانب المزيد من أكوام الحطام، ستمض العديد من البرك الصغيرة لحظة حين يسقط عليها ضوء المصباح.

وإذا بلغتَ سفح التل الذى يرتفع ليصل إلى منزلى، سوف تتوقف عند جسر التردد وسترمى بناظريك خلفك صوب بقايا حى المتعة القديم، وإن لم تغب الشمس تمامًا بعد، قد ترى صف أعمدة التلغراف القديمة – ما زالت بلا أسلاك تصلها – وهو يختفى فى العتمة نزولاً نحو الطريق الذى جئت منه للتو. وربما تستطيع أن تتبين مجموعات الطيور الداكنة وهى تجثم فى ضيق على أسطح الأعمدة كما لو كانت فى انتظار الأسلاك التى اصطفت عليها فى السماء ذات مرة.

وفى إحدى الأمسيات القريبة، كنتُ أقف على ذلك الجسر الخشبى الصغير ووقعتْ عيناى من بعيد على عمودين من الدخان يرتفعان من بين الحطام. لعل عمال الحكومة يواصلون برنامجًا تباطأ لدرجة تبعث على السأم أو بعض الأطفال ينخرطون فى لعبة ما جانحة. إلا أن منظر هذين العمودين المرتفعين قبالة السماء بث فى روعى حالة من الانقباض. فقد كانا أشبه بمحرقتين فى جنازة هجرها المشيعون. إنها مقبرة على حد قول السيدة كاواكامى. ومتى يتذكر المرء كل هؤلاء الأشخاص الذين ترددوا ذات يوم على هذه المنطقة، لا يسعه إلا أن يبصر المحيط على هذه الصورة.

إلا أنى انحرفت عن الموضوع الرئيسى. فقد كنتُ أحاول هنا أن استدعى إلى ذهنى تفاصيل إقامة سيتسوكو معنا الشهر الفائت.

مثلما أشرت من قبل، أنفقتْ سيتسوكو جل اليوم الأول من زيارتها جالسة فى الشرفة تأخذ مع أختها بأطراف الحديث. وقرب

نهاية الظهيرة لمّا استغرقتْ ابنتاى فى أحاديث النساء، أذكر أنى مضيت عنهما باحثًا عن حفيدى الذى هرب إلى داخل المنزل من دقائق معدودة.

وفيما كنتُ أجتاز الممر، رجت ضربة ثقيلة المنزل بأسره، فأوسعتُ خطى مرعوبة إلى حجرة الطعام. تكون حجرة الطعام فى ذلك الوقت من النهار شديدة الإظْلام، وبعد تعرض عينى لنور الشرفة الساطع، احتجت إلى لحظة أو اثنتين لأتحقق أن إشيرو ليس بالغرفة مطلقًا. وردتْ بعدها ضربة ثقيلة أخرى تلتها ضربات عديدة إضافية يصاحبها صوت حفيدى وهو يصيح: "ياه! ياه!" كانت الضوضاء تنطلق من حجرة البيانو المجاورة فذهبتُ إلى المدخل وأنصت لحظة ثم أزحت الحاجز بهدوء.

على عكس حجرة الطعام، تنعم حجرة البيانو بالشمس طوال اليوم وتشع بنور حاد ساطع. ولو كانت أوسع، لأصبحتْ مكانًا مثاليًا لتناول وجباتنا. استخدمتُها فى فترة من الفترات فى تخزين اللوحات والأدوات إلا أن الحجرة عاطلة الآن من الأثاث عدا البيانو الألمانى القائم. ولا مراء أن عدم وجود فوضى ألهب حماسة حفيدى على النحو عينه الذى سلف أن أحدثته الشرفة؛ فقد وجدتُه يتقدم عبر الأرضية بحركة عجيبة ضاربًا الأرض بقوة، ففهمتُ أنه يمثل دور شخصية تعدو على صهوة جواد عبر أرض مفتوحة. ولأنه ولى المدخل ظهره، مرت بضع لحظات قبل أن يفطن إلى أنه مراقَب.

"أوجي!" قال مستديرًا بغضب. "ألا ترى أنى مشغول؟"

"آسف يا إشيرو، لم أدرك ذلك."

"لا أستطيع اللعب معك الآن!"

"أنا جد آسف. لكن بدا الأمر فى منتهى الإثارة من هنا بالخارج لذا تساءلتُ إن أمكننى الدخول لمشاهدة ما يحدث."

راح حفيدى يرمقنى بنزق هنيهة ثم قال وهو متجهم الوجه: "طيب. لكن لازم أن تقعد هادئًا. فأنا مشغول."

"حسنًا حسنًا" قلت ضاحكًا. "شكرًا جزيلاً يا إشيرو."

ظل حفيدى يرنو إلى وأنا أقطع الحجرة وأتخذ مجلسى بجوار النافذة. عندما وصل إشيرو مع أمه المساء الماضى، أعددتُ له هدية عبارة عن كراسة رسم ومجموعة أقلام شمع ملونة. لاحظتُ الآن أن الكراسة موضوعة بالقرب على الحصيرة وثمة ثلاثة أقلام شمع أو أربعة مبعثرة حولها. تمكنتُ من أن أرى أن الصفحات القلائل الأولى من الكراسة مرسوم عليها. هممت أن أمد يدى إلى الكراسة حتى أتفحص الرسم عندما استأنف إشيرو فجأة الدراما التى قاطعتُها.

"ياه! ياه!"

راقبته لفترة وجيزة غير أنى لم أفهم ما مثله من مشاهد. كان يكرر حركة حصانه فى الفواصل؛ وفى أحيان أخرى كان يتبدى

وكأنه فى قتال مع الكثير من الأعداء الخفايا. ما انفك فى أثناء هذا كله يكمل سطورًا من حوار هامس. حاولتُ جهدى أن أتبينها لكنه على حد علمى لم يكن يستخدم كلمات حقيقية، مجرد أصوات بلسانه ليس إلا.

ورغم أنه بذل وسعه لكى يتجاهلنى، كان من الواضح أن وجودى ساهم فى كبته. إذ تسمر عدة مرات فأثناء حركته وكأن الوحى قد هجره بغتة قبل أن يلقى بنفسه فى الحركة مرة أخرى. ثم ما لبث أن استسلم وسقط بقوة على الأرضية. تساءلتُ إن كان على أن أصفق لكننى راجعت نفسى.

"لقد أبهرتَنى يا إشيرو. لكن أخبرنى، مَن كنتَ تمثل؟"

"خمن يا أوجى."

"أ أ. ربما الأمير يوشيتسون؟ لا؟ محارب من الساموراى إذن؟ أ أ. أم لعله محارب النينجا؟ نينجا الرياح."

"أوجى غلطان تمامًا."

" أخبرنى إذن. مَن كنتَ؟"

"الجوال الوحيد!"(*)

(*) الجوال الوحيد: دراما إذاعية للصغار انطلقت فى ٣١ يناير ١٩٣٣ من إذاعة WXYZ فى ديترويت بأمريكا وانتهت عام ١٩٥٤ فى إذاعة CBS. بدأ عرضها تليفزيونيًا بقناة ABC فى ١٥ سبتمبر ١٩٤٩ وانتهت فى ١٢ سبتمبر ١٩٥٧. الدراما من تأليف

"ماذا؟"

"الجوال الوحيد! هيا يا سيلفر!"(**)

"الجوال الوحيد؟ هل هذا راعى بقر؟"

"هيا يا سيلفر!" أخذ إشيرو يركض ثانية بالفرس محدثًا هذه المرة ضجة بصهيل الفرس.

راقبتُ حفيدى برهة ثم سألتُه فى آخر الأمر: كيف تعلمتَ لعب دور راعى البقر يا إشيرو؟ لكن ما كان منه سوى أن استمر فى العدو والصهيل.

"إشيروا" قلت بلهجة تحمل مزيدًا من الحزم، "انتظر لحظة واستمع إلى. إنه لأكثر إمتاعًا، أكثر إمتاعًا بمراحل، أن تتظاهر بأنك شخص مثل الأمير يوشيتسون. أخبرك عن السبب؟ اسمع يا إشيرو، سيشرح لك أوجى المسألة. إشيرو استمع إلى جدك السيد أوجى يا إشيرو."

"فران ستريكر" وتدور حول البطل ذى القناع الذى استطاع بمساعدة رفيقه، أحد الهنود الحمر، التصدى للشر وفرض القانون بإحدى الولايات الغربية من الولايـــات المتحـــدة الأمريكية. كلايتون مور من أبرز من لعب دور الجوال الوحيد.

(**) سيلفر: اسم حصان الجوال الوحيد.

يجوز أنى رفعت صوتى أكثر مما قصدت لأنه توقف وحدجنى بتعبير مشدوه يرين على ملامحه. أدمت النظر إليه لحظة ثم أطلقتُ تنهيدة.

"آسف يا إشيرو، ما وجب على مقاطعتك. بمقدورك طبعًا أن تكون أى شخصية تشاءها، حتى لو كان راعى بقر. لا بد أن تغفر لجدك السيد أوجى. فقد نسيت ذلك لحظة."

ظل حفيدى يحملق إلى وجهى وجال بخاطرى أنه على وشك الإجهاش بالبكاء أو أنه سيهرع إلى خارج الحجرة.

"من فضلك يا إشيرو، واصل فقط ما كنتَ تفعله."

ظل إشيرو يحدق فى وجهى برهة أطول ثم باغتنى بصياحه: "الجوال الوحيد! هيا يا سيلفر!" واستأنف العدو من جديد. ضرب قدميه بعنف أشد من ذى قبل اهتزت له الحجرة كلها من حولنا. تابعتُه بعينى وهلة ثم مددت يدى لألتقط كراسة الرسم الخاصة به.

أهدر إشيرو أول أربع أو خمس أوراق. ما كان أسلوبه سيئًا كلية غير أنه ترك الرسوم التخطيطية لعربات الترام والقطارات فى مرحلة مبكرة جدًا. انتبه إشيرو إلى أنى أتفحص كراسته فخف إلى.

"يا أوجي! مَن سمح لك بالنظر إليها؟" حاول انتزاع الكراسة منى لكنى أمسكتها بعيدًا عن متناول يده.

"لا تكن فظًا الآن يا إشيرو. يود أوجى أن يرى ما كنتَ تصنعه بأقلام الشمع التى أعطاها لك. هذا من الإنصاف فحسب."

أنزلتُ الكراسة وفتحتُها على أول رسم. "إنه جد لمبهر يا إشيرو. أ أ. لكن هل تعلم أنك تستطيع كذلك أن تحَسن رسمك إن رغبتَ."

"غير مسموح لأوجى برؤيتها!"

حاول حفيدى أن ينتزع الكراسة ثانية فدفعنى إلى أن أبعد يديه بذراعى.

"أوجي! أرجع لى كراسي!"

"كفاك الآن يا إشيرو. دع جدك أوجى يتفرج."

"انظر يا إشيرو، أحضر لى أقلام الشمع الملقاة هناك. آتنى بها وسنرسم شيئًا معًا. أوجى سيريك."

خلفتْ هذه الكلمات أثرًا مذهلاً. إذ امتنع حفيدى من فوره عن المقاومة ثم راح ليجمع ما تبعثر على الأرضية من أقلام شمع. لمّا عاد، خالج سلوكه صفة جديدة، نوع من الافتتان. جلس بجانبى وقدّم إلى أقلام الشمع، راقبنى بانتباه إنما بصمت.

فتحتُ صفحة جديدة ووضعتُها على الأرضية أمامه قائلاً: "دعنى أولاً أراك ترسم شيئًا يا إشيرو ثم سيرى أوجى إذا ما كان يستطيع أن يساعد فى جعل رسمك أجمل. ماذا تريد أن ترسم؟"

غدا حفيدى آية فى الهدوء. أخفض بصره إلى الصفحة الخالية متأملاً إياها لكنه لم يحرك ساكنًا للبدء فى الرسم.

فاقترحتُ عليه: "لِم لا تحاول أن ترسم شيئًا رأيتَه بالأمس؟ شيئًا رأيتَه عند وصولك إلى المدينة فى بادئ الأمر."

استمر إشيرو ينظر إلى كراسة الرسم ثم رفع وجهًا متسائلاً: "أكان أوجى رسامًا مشهورًا فى يوم من الأيام؟"

"رسامًا مشهورًا؟" علت ضحكتى. "أظنك تستطيع أن تقول هذا. أهذا ما تقوله أمك؟"

"يقول أبى إنك كنت رسامًا مشهورًا لكنك اضطررت إلى أن تتوقف."

"لقد تقاعدتُ يا إشيرو. الكل يتقاعد بعد بلوغ سن معينة. هذا هو الواجب فقط، فهم يستحقون الراحة."

"يقول أبى إنك اضطررت إلى أن تتوقف لأن اليابان انهزمت فى الحرب."

فرت منى ضحكة أخرى ثم مددت يدى لأتناول كراسة الرسم. قلبتُ الصفحات إلى الوراء متفحصًا رسوم حفيدى لعربات الترام. أمسكتُ أحدها بطول ذراعى حتى أحصل على رؤية أفضل. "لما يبلغ الإنسان سنًا معينة يا إشيرو، يود أن يستريح من عمله. سيتوقف أبوك هو أيضًا عن العمل عندما يبلغ سنى. وذات يوم ستصل إلى سنى وسترغب أنت أيضًا فى أخذ قسط من الراحة. الآن" – عدت إلى الصفحة الخالية ووضعتُ الكراسة أمامه مجددًا – "ماذا سترسم لى يا إشيرو؟"

"هل رسم أوجى اللوحات المعلقة فى حجرة الطعام؟"

"لا، رسمها فنان يدعى يوراياما. لماذا؟ هل تعجبك؟"

"هل رسم أوجي اللوحات المعلقة فى الممر؟"

"تلك لوحات فنانٍ آخر بارع، صديق قديم لأوجى."

"أين هي لوحات أوجي إذن؟"

"محفوظة الآن فى مكان بعيد. دعنا الآن نعود إلى المهم يا إشيرو. ماذا سترسم لي؟ ماذا تتذكر من الأمس؟ ما الأمر يا إشيرو؟ أصبحتَ هادئًا فجأة."

"أريد أن أرى لوحات أوجى."

"أنا على ثقة أن ولدًا ذكيًا مثلك يستطيع تذكر الكثير من الأشياء. ماذا عن ملصق الفلم الذى شاهدتَه؟ المرسوم عليه وحش ما قبل التاريخ. أنا متأكد أن شخصًا مثلك يقدر أن يرسمه بكفاءة عالية، ربما حتى أحسن من الملصق الأصلى."

لاح لى أن إشيرو يتدبر المسألة لحظة ثم انكفأ على صدره وجعل يرسم ووجهه قريبًا من الورقة.

استخدم قلم شمع لونه بنى غامق ليرسم فى أسفل الصفحة صفًا من الصناديق سرعان ما صارت أشباحًا لمبانى المدينة. ثم انبثق من هناك مخلوق هائل أشبه بالسحلية يقف على رجليه الخلفيتين ويلوح مخيفًا فوق المدينة. بدل حفيدى عند هذه النقطة قلم الشمع البنى بآخر أحمر وأخذ يرسم خطوطًا براقة حول السحلية كلها.

"ما هذه يا إشيرو؟ نار؟"

تابع إشيرو رسم الخطوط الحمراء دون أن أظفر منه بجواب.

"لماذا توجد نار يا إشيرو؟ هل هى مرافقة لظهور الوحش؟"

"كبلات كهربائية،" رد إشيرو وتنهد تبرمًا.

"كبلات كهربائية؟ إن هذا مثير للاهتمام. تُرى لِم تتسبب الكبلات الكهربائية فى إشعال الحرائق. أتعلم؟"

ارتفعتْ تنهيدة ثانية من إشيرو وواصل الرسم. التقط قلمه الغامق مرة أخرى وبدأ يرسم فى أسفل الصفحة أشخاصًا يفيض بهم الخوف ويفرون رعبًا فى الاتجاهات كافة.

علّقتُ: "يا لك من رسام بارع يا إشيرو. قد يكافئك أوجى باصطحابك لمشاهدة الفلم غدًا. هل تود هذا؟"

كف حفيدى ورفع بصره قائلاً: "ربما يخيف أوجى زيادة عن اللزوم."

"أشك،" قلت ضاحكًا. "غير أنه قد يفزع أمك وخالتك بالفعل."

فور سماعه لهذه العبارة انفجر إشيرو فى ضحك صاخب. انقلب على ظهره وأغرق فى الضحك ثم صاح ناظرًا إلى السقف: "ستموت أمى وخالتى نوريكو من الرعب."

"لكن نحن الرجال سنستمتع به، أليس كذلك يا إشيرو؟ سنذهب غدًا. أيوافقك هذا؟ سنأخذ النساء معنا وسنشاهدهما وهما مرعوبتان."

والى إشيرو الضحك بصوت مرتفع: "سترتعب خالتى نوريكو فورًا."

"يُحتمل فعلاً،" قلت ضاحكًا مرة أخرى. "حسنًا، سنذهب كلنا غدًا. الآن يا إشيرو من الأفضل أن تواصل رسمك."

"ستخاف خالتى نوريكو! وستريد أن تغادر!"

"هيا نتابع الرسم الآن يا إشيرو. كنتَ تجيد الرسم."

انكفأ إشيرو ثانية على صدره ورجع إلى رسمه. بدا مع ذلك أنه فقد تركيزه السابق؛ إذ شرع فى إضافة المزيد والمزيد من الأشكال الهاربة فى أسفل رسمه إلى أن تداخلتْ الصور وباتت خالية من أى معنى. انتهى به الأمر إلى أن تخلى عن كل عناية وطفق يخربش بتهور فى كل الجزء السفلى من الصفحة.

"يا إشيرو ماذا تفعل؟ لن نذهب إلى الفلم إن تصرفتَ بهذه الطريقة. توقف يا إشيرو!"

هب حفيدى واقفًا وصاح: "هيا يا سيلفر!"

"اقعد يا إشيرو. أنت لم تفرغ بعد."

"أين خالتى نوريكو؟"

"تتحدث مع أمك. الآن يا إشيرو، أنت لم تنته من رسمك بعد."

إلا أن حفيدى أسرع إلى خارج الحجرة صائحًا: "الجوال الوحيد! هيا يا سيلفر!"

لا أستطيع أن أتذكر على وجه الدقة ما قمت به خلال الدقائق العديدة التالية. احتمال كبير أنى لبثت جالسًا هناك بحجرة البيانو،

أتفرس في رسوم إشيرو بذهن خالٍ من أى شيء مثلما أميل أن أفعل على نحو متزايد هذه الأيام. نهضتُ في النهاية ومضيت باحثًا عن أسرتي.

ألفيت سيتسوكو جالسة بمفردها في الشرفة، ترنو إلى الحديقة. كانت الشمس لم تزل مشرقة إلا أن النهار أصبح أكثر برودة. لمّا ظهرتُ، استدارت سيتسوكو وزحزحتْ وسادة إلى رقعة من ضوء الشمس لأجلس عليها.

"أعددنا شاياً طازجاً. أتريد بعضًا منه يا أبي؟"

شكرتُها، وفيما كانت تصب لي الشاي، حدقتُ في الحديقة بالخارج.

على الرغم مما قاسته حديقتنا خلال الحرب، فقد استردت عافيتّها بشكل جيد، ومازال يمكن تعرفها باعتبارها ذات الحديقة التي أقامها أكيرا سوجيمورا منذ حوالى أربعين سنة خلت. استطعت رؤية نوريكو وإشيرو عند الطرف البعيد القريب من السور الخلفي، كانا يتفحصان شجيرة خيزران. كان سوجيمورا قد غرس تلك الشجيرة وهي كاملة النمو بعد أن جاء بها من مكان آخر بالمدينة مثلها تقريباً مثل كل الشجيرات والأشجار الأخرى بالحديقة. وفي الحق أن ثمة شائعة أن سوجيمورا طاف بنفسه في أنحاء المدينة مدققًا النظر فوق أسياج الحدائق ليعرض مبالغ ضخمة على صاحب أى شجيرة أو شجرة يرغب في استئصالها لنفسه. لو صحت هذه الإشاعة، إذًا فقد انتقى حديقته بمهارة تستحق الإعجاب؛ فخرجتْ النتيجة – التي ظلت

إلى اليوم – آية فى التناسق. إذ يعترى المرء إحساس بأن الحديقة طبيعية متعرشة، تكاد تخلو من أى ملمح لتصميم صناعى.

"تجيد نوريكو دائمًا التعامل مع الأطفال. إن إشيرو مولع بها." علقتْ سيتسوكو دون أن تنحى وجهها عنهما.

"إن إشيرو ولد ممتاز. فهو ليس خجولاً مثل الكثير من الأطفال فى سنه."

"أرجو ألا يكون قد أزعجك منذ قليل، فبمقدوره أن يكون شديد العناد فى بعض الأوقات. من فضلك لا تتردد فى توبيخه إن أضحى مصدر إزعاج لك."

"أبدًا. نحن على وفاق تمامًا. كنا فى الحقيقة نرسم معًا للتو."

"حقاً؟ أنا موقنة أنه استمتع بوقته."

"وقد مثّل لى أيضًا أحد السيناريوهات. إنه موهوب فى التمثيل."

"آه أجل. هو يشغل روحه طويلاً بهذه الطريقة."

"هل يؤلف كلماته بنفسه؟ حاولتُ الإصغاء لكنى لم أتبين ما قاله."

رفعتْ ابنتى يدها لتدارى ضحكتها قائلة: "لا بد أنه كان يمثل دور رعاة البقر. عندما يمثل دور رعاة البقر، يحاول التحدث بالإنجليزية."

"الإنجليزية؟ عجيبة! هكذا كان الأمر إذًا."

"اصطحبناه مرة إلى السينما لمشاهدة فلم أمريكى عن رعاة البقر. ومنذ ذلك الحين وهو مغرم برعاة البقر حتى إننا اضطررنا إلى شراء قبعة رعاة البقر له. وهو على قناعة بأن رعاة البقر يصدرون ذاك الصوت العجيب الذى يصدره. لا بد أنك قد وجدت الأمر غريبًا."

"تلك هى المسألة إذن،" قلت ضاحكًا. "أصبح حفيدى راعى بقر."

كانت أوراق النباتات بالحديقة تتمايل على أثر هيب النسيم. انحنت نوريكو بجوار المشكاة الحجرية القديمة بالقرب من السور الخلفى لترى إشيرو شيئاً ما.

قلت متنهدًا: "مع ذلك منذ سنين قلائل فحسب لم يكن مسموحاً لإشيرو بمشاهدة ما يسمى بفلم رعاة بقر."

أنهت سيتسوكو ونظرها لا يغيب عن الحديقة: "سويشى يعتقد أنه يحسن به أن يحب رعاة البقر عن أن يقدس أشخاصًا مثل مياموتو موساشى. يعتقد سويشى أن الأبطال الأمريكيين قدوة أحسن للأطفال فى هذه الآونة."

"أحقاً؟ ذلك رأى سويشى إذن."

بدا على إشيرو عدم الانبهار بالمشكاة الحجرية لأننا رأيناه يسحب ذراع خالته بعنف، وإلى جانبى ضحكت سيتسوكو بحرج.

"إنه متغطرس جداً، فهو يجذب الناس جيئة وذهابًا. إن سلوكياته سيئة."

"على فكرة، قررنا أنا وإشيرو الذهاب إلى السينما غداً."

"أحقاً؟"

كان بوسعى أن أبصر على الفور ما تخلل سلوك سيتسوكو من شك.

فقلت لها: "أجل، يبدو أنه متقد الحماسة لوحش ما قبل التاريخ هذا. لا تقلقى، لقد بحثتُ عن الفلم فى الجريدة، وهو مناسب تمامًا لولد فى مثل سنه."

"نعم، أنا متأكدة."

"كنتُ أفكر فى الواقع أن نذهب كلنا، نذهب فى نزهة عائلية إذا جاز القول."

ازدردتْ سيتسوكو ريقها بعصبية وقالت: "سنستمتع بذلك كل الاستمتاع لكن ربما تعد نوريكو أيضًا بعض الخطط للغد."

"حقاً؟ ما هى تلك الخطط؟"

"أعتقد أنها أرادت أن نمضى كلنا إلى متنزه الغزلان لكنى متأكدة أننا نستطيع الذهاب فى وقت آخر."

"لم أكن أعلم أن نوريكو لديها أية خطط. فهى بالقطع لم تسألنى عنها البتة. إلى جانب أنى أخبرت إشيرو بالفعل أننا سنذهب إلى الفلم غدًا ونفسه تواقة الآن للذهاب."

"بالفعل، أنا متأكدة أنه سيود الذهاب إلى السينما."

أقبلتْ نوريكو إلينا من ممر الحديقة وإشيرو يقودها ممسكًا بيدها. كان بمقدورى ولا شك مناقشة موضوع اليوم التالى معها بلا تردد لكنها وإشيرو لم يلبثا بالشرفة، إذ دخلا لغسل أيديهما. ولم أستطع فى الواقع أن أطرح المسألة إلا بعد العشاء فى هذه الأمسية.

على الرغم أن حجرة الطعام تبدو مكانًا كئيبًا إلى حد ما خلال النهار، إذ لا تتضح بأشعة الشمس إلا فى النادر، إلا أنها بعد حلول الظلام ومع خفض مظلة المصباح فوق المائدة، تتمتع بجو دافئ يريح الجالسين. كنا قد قعدنا إلى المائدة منذ بضع دقائق – نطالع الجرائد والمجلات – عندما قلت لحفيدى: "حسنًا يا إشيرو، هل أخبرتَ خالتك بخطط الغد؟"

رفع إشيرو عينيه عن كتابه وهو فى حيرة من أمره.

"هل سنأخذ النساء معنا أم لا؟ تذكر ما قلناه، ربما تجدانه مخيفًا للغاية."

فهمنى حفيدى هذه المرة وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة قائلاً: "ربما يكون مخيفًا بالنسبة لخالتى نوريكو. هل تريدين المجيء يا خالة نوريكو؟"

تساءلتْ نوريكو: "أجيء إلى أين يا سيد إشيرو؟"

"فلم الوحش."

شرحتُ لها: "كنتُ أفكر فى أن نذهب كلنا إلى السينما غدًا فى نزهة عائلية إذا جاز القول."

"غدًا؟" جرت عينا نوريكو على ثم التفتتا إلى حفيدى: "حسنًا، لا يمكننا الذهاب غدًا، أليس كذلك يا إشيرو؟ نحن ذاهبون إلى متنزه الغزلان، أتذكر؟"

"متنزه الغزلان لن يطير. الولد يتطلع الآن إلى رؤية فلمه."

ردت نوريكو: "كلام فارغ، كل شيء مرتب. سنعرج على السيدة واتاناب فى طريق عودتنا، فقد كانت تريد أن تلتقى بإشيرو. على أية حال نحن قررنا منذ فترة طويلة. أليس كذلك يا إشيرو؟"

"هذا كرم جم منك يا أبى،" قاطعتْها سيتسوكو. "لكنى عارفة أن السيدة واتاناب تتوقع مجيئنا. ربما علينا إرجاء السينما إلى اليوم التالى."

اعترضتُ قائلاً: "لكن إشيرو يتطلع إلى الفلم، أليس كذلك يا إشيرو؟ يا لهن من مزعجات هؤلاء النسوة."

لم يكن إشيرو ينظر إلى، إذ عاوده الانهماك فى كتابه على ما يظهر.

فقلت له: "قل لهؤلاء النسوة يا إشيرو."

ظل حفيدى يحملق إلى كتابه.

"إشيرو."

أسقط كتابه فجأة على المائدة وهب واقفًا ثم جرى إلى خارج الحجرة متجهًا نحو غرفة البيانو.

ضحكتُ فى خفوت وقلت لنوريكو: "أرأيتِ؟ لقد أحبطيه. كان عليك ترك الأمور على حالها."

"لا تكن سخيفًا يا أبى. لقد رتبنا زيارة السيدة واتاناب منذ أمد طويل علاوة على أنه من السخافة أن تأخذ إشيرو لمشاهدة مثل هذا الفلم، فهو لن يستمتع بمثله، أليس كذلك يا سيتسوكو؟"

ابتسمتْ ابنتى الكبرى ابتسامة توحى بضيقها ثم قالت بهدوء: "إنك حنون للغاية يا أبى، ربما فى اليوم التالى..."

أطلقتُ تنهيدة هازًا رأسى وعدت إلى جريدتى. لكن عندما انقضت عدة دقائق وغدا من الواضح أن ابنتى لن تعيدا إشيرو، نهضتُ بنفسى واتجهتُ إلى حجرة البيانو.

عجز إشيرو عن الوصول إلى سلك مظلة المصباح فأضاء المصباح الموضوع أعلى البيانو. ألفيته جالسًا على كرسى البيانو وقد اتكأ جانب رأسه على غطاء البيانو ولبستْ ملامحه التى انضغطت على الخشب الداكن هيئة الاستياء.

"آسف على ما حدث يا إشيرو. لكن لا داعى للإحباط، سنذهب فى اليوم التالى."

لم ينبس إشيرو ببِنت شفة، فقلت: "حقًا يا إشيرو، المسألة لا تحتمل كل هذا الإحباط."

اتجهتُ نحو النافذة. كان الظلام الدامس قد حل بالخارج، فلم أستطع أن أرى سوى انعكاسى وانعكاس الحجرة من خلفى. وسعنى سماع المرأتين تتكلمان فى الحجرة الأخرى بأصوات منخفضة النبرات.

"لا تبتئس يا إشيرو. لا شيء يدعو إلى الانزعاج. سوف نذهب فى اليوم التالى. هذا وعد منى بذلك."

عندما استدرت ثانية إلى إشيرو، كان رأسه يتكئ على غطاء البيانو كما كان؛ بيد أنه كان يحرك أصابعه على طول الغطاء كما لو كان يعزف على المفاتيح.

بدرتْ منى ضحكة خافتة وقلت: "طيب يا إشيرو سنذهب بعد غد. فلا ينبغى أن ندع النساء تسيطرن علينا، أليس كذلك؟" ضحكتُ ثانية. "أحسبهما ظننتاه مرعبًا إلى أبعد الحدود، أليس كذلك يا إشيرو؟"

ظل حفيدى مطرقًا إلا أنه ما فتئ يحرك إصبعه على غطاء البيانو، فقررتُ أنه من الأفضل أن أدعه بمفرده بضع دقائق ورجعتُ إلى حجرة الطعام تصحبنى ضحكتى.

وجدتُ ابنتى جالستين فى صمت تقرآن المجلات. حينما اتخذتُ مجلسى، تنهدتُ تنهيدة عميقة لم يند عنهما أى رد فعل إزائها.

أعدت نظارة القراءة إلى وجهي وأوشكتُ أن أشرع في قراءة الجريدة عندما قالت نوريكو بنبرة هادئة: "هل نعد بعض الشاى يا أبي؟"

"هذا لطف بالغ منك يا نوريكو لكني لا أرغب فيه الآن."

"ماذا عنك يا سيتسوكو؟"

"شكرًا يا نوريكو لكني لا أريد أنا الأخرى."

تابعنا القراءة والسكون يلفنا لبضع لحظات أخرى ثم قالت سيتسوكو: "هل سيأتي أبي معنا غدًا؟ ما زال يمكننا القيام بنزهة عائلية."

"أود ذلك إنما لا أظن، على أن اضطلع ببعض الأمور غدًا."

قاطعتني نوريكو: "ماذا تعني؟ ما هي تلك الأمور؟" ثم التفتت إلى سيتسوكو قائلة: "لا تبالي بكلام أبي، فليس لديه ما يقوم به هذه الأيام. سوف يهيم فقط بالمنزل كما هي عادته الآن."

"سيكون الخروج لطيفًا جدًا لو رافقتنا يا أبي،" وجهتْ سيتسوكو حديثها إلي.

أجبتها وعيناي تنخفضان ثانية إلى الجريدة: "لكني للأسف عندي أمر أو اثنين لأعني بهما."

"وهكذا ستمكث بالبيت وحيدًا؟" سألتني نوريكو.

"يظهر أني سأضطر إلى ذلك لو ستخرجون كلكم."

علت كحة – تنم عن الكياسة – من سيتسوكو التى قالت: "إذن ربما أبقى فى البيت أنا أيضًا، فالفرصة فلم تسنح لى لتبادل الأخبار مع أبى."

أحدتْ نوريكو بصرها إلى وجه أختها عبر المائدة قائلة: "لا داعى لأن تفوتك الفرصة. لقد قطعتِ كل هذه المسافة ولن يطيب لك قضاء الوقت كله فى المنزل."

"لكنى سأستمتع أيما استمتاع بالبقاء مع أبى. أتوقع أن يكون لدينا الكثير من الأخبار لتبادلها."

"انظر إلى ما صنعتَه يا أبى،" اشتكت نوريكو ثم قالت لأختها: "إذن سيتبقى أنا وإشيرو فقط."

"سيستمتع إشيرو بإمضاء اليوم معك يا نوريكو،" أخبرتْها سيتسوكو مبتسمة. "فأنت حقًا الأثيرة لديه الآن."

سعدتُ بقرار سيتسوكو بالمكوث بالبيت، فنحن بالفعل لم تتسن لنا فرصة الحديث بلا مقاطعة؛ وثمة بالطبع العديد من الأشياء التى يود الأب أن يعرفها عن حياة ابنته المتزوجة ولا يمكنه السؤال عنها صراحة. لكن لم يرد على خاطرى قط مسائها أن سيتسوكو عندها أسبابها الخاصة وراء رغبتها فى البقاء معى بالمنزل.

قد يكون اعتيادى التجول فى الغرف بدون أدنى غاية علامة على تقدمى فى السن. عندما فتحتُ سيتسوكو باب حجرة الاستقبال فى

تلك الظهيرة – فى اليوم الثانى لزيارتها – لا بد وأننى كنت قد أطلت الوقوف هناك تائهًا فى خضم أفكارى.

"آسفة. سأعود فى وقت لاحق."

استدرت وقد نزل بى القليل من الإجفال لأجد ابنتى راكعة على عتبة الباب ممسكة بزهرية مليئة ببعض الأزهار وشتلات النباتات.

"لا، تفضلى أرجوك. لم أكن أفعل شيئًا معينًا."

إن التقاعد يتيح لك مزيدًا من الوقت. والحق أن إحدى متع التقاعد هى أنك تستطيع أن تنساق فى تيار اليوم على مهلك مطمئنا لعلمك أنك قد بذلت عظيم جهدك وإنجازك فى الماضى. ومع ذلك لا بد أنى أصبحت غائب العقل فعلاً لأنى أتجول بلا هدف فى حجرة الاستقبال دونًا عن كل الحجرات. ويعود ذلك إلى أنى احتفظت طوال سنوات عمرى بإحساس غرسه فى أبى، وهو أن حجرة الاستقبال مكان لا بد أن يوقر، مكان لا بد أن يُحافظ عليه غير متسخ بتوافه الحياة اليومية كى يعد لاستقبال الضيوف المهمين أو للصلاة عند المذبح البوذى. وهكذا تمتعت حجرة الاستقبال بمنزلى دومًا بجو أكثر مهابة مما يوجد فى أغلب المنازل الأخرى؛ وعلى أنى لم أسن قاعدة للأمر مثلما فعل أبى، فقد أثنيت أولادى فى صغرهم عن دخول الغرفة ما لم يصدر لهم تحديدًا أمر بذلك.

قد يبدو احترامى لحجرات الاستقبال مبالغة منى بحق لكنك يجب أن تدرك أن المنزل الذى نشأتُ فيه – بقرية تسوروكا على مسافة نصف يوم بالقطار من هنا – حظر على مجرد دخول حجرة

الاستقبال حتى بلغتُ الثانية عشرة. ولما كانت تلك الحجرة محور المنزل من نواح عديدة، دفعنى الفضول إلى بناء صورة لتصميمها الداخلى من خلال ما تمكنتُ من التقاطه من لمحات عابرة. وفى وقت لاحق من حياتي كنتُ كثيرًا ما أدهش زملائى بقدرتى على إدراك منظر مرسوم على نسيج الكنفا معتمدًا فقط على لمحات عابرة أشد ما تكون إيجازًا؛ يجوز أنى أدين بالشكر لأبى لتعزيزه في تلك المهارة وللتدريب غير المتعمد الذى وهبه لعينى – عين الرسام – خلال سنوات تكوينى. على كل عندما بلغتُ الثانية عشرة، بدأتْ "اجتماعات العمل"، فألفيت نفسى حينها داخل تلك الحجرة مرة كل أسبوع.

"سنناقش أنا وماسوجى العمل الليلة،" كان أبى يعلن أثناء العشاء. فكان بذلك يخدم غرضين: الأول استدعائى لتقديم نفسى عقب الوجبة، والثانى تحذير موجه إلى بقية العائلة من مغبة إصدار أية ضوضاء بجوار حجرة الاستقبال فى ذلك المساء.

كان أبى يختفى داخل الحجرة بعد العشاء ويطلبنى بعدها بحوالى خمس عشرة دقيقة. والحجرة التى دخلتُها تضيئها شمعة واحدة طويلة تقوم وسط الأرضية. وفى دائرة الضوء الذى تلقى به، يجلس أبى متربعًا على الحصيرة وأمامه "صندوق العمل" الخشبى الخاص به. كان يومئ إلى كى أجلس قبالته فى الضوء، وعندما أجلس، كان نور الشمعة يطرح باقى الحجرة فى العتمة. تمكنتُ بصورة مبهمة ليس إلا من تمييز ما يقع وراء كتف أبى سواء المذبح البوذى بجوار الحائط القصى أو ما يزين فجوات الحائط من معلقات قلائل.

يبدأ أبى بعدئذ فى الحديث. ومن داخل "صندوق العمل" الخاص به، يُخرج مفكرات صغيرة سميكة ويفتح بعضها ليشير إلى أعمدة من الأرقام المتراصة بكثافة. وهو في ذلك، يتوالى حديثه بنبرة مدروسة رزينة ليتوقف فقط بين الفنية والأخرى حين يرنو إلى وكأنه يبغى الحصول على تصديق منى على ما يقول. فأتفوه بعجلة: "أجل، بالفعل."

كان بالطبع من رابع المستحيلات أن أتابع ما يقوله أبى. فقد كان يرطن ويسرد ما يريد في صورة حسابات مطولة دون أن يقدم أية تنازلات لكونه يحادث ولدًا صغيرًا. لكن لاح لى من المحال كذلك أن أطلب منه الكف والشرح لأنى – كما تصورت – لم يُسمح لى بدخول حجرة الاستقبال إلا لاعتبارى ناضجًا بما يكفى لفهم مثل هذا الحديث. وكان شعورى بالخجل لا يضارعه سوى خوف رهيب أن أومر فى أية لحظة أن أفه بأكثر من "أجل، بالفعل" وعندها ستنكشف حيلتي. وعلى الرغم من مرور الشهر تلو الشهر دون أن يُطلب منى مطلقًا أن أنبس بالمزيد، ركبنى الرعب من "اجتماع العمل" التالى.

من الواضح الآن بالطبع أن أبى ما توقع لحظة قط أن أفهم كلامه إلا أنى لم أتحقق البتة من السبب الحقيقى الذى من أجله عرّضنى لهذه المحن. لعله أراد أن يطبع فى ذهنى منذ تلك السن المبكرة توقعه أنى سأتولى إدارة أعمال العائلة فى النهاية. أو ربما أحس أنه باعتبارى كبير العائلة فى المستقبل، وجب فحسب استشارتى فى جميع القرارات التى من المرجح أن تمتد آثارها إلى سن بلوغي؛

وبهذه الطريقة، كما ربما حسبها أبى، لن أشكو إن ورثتُ أعمالاً فاشلة.

وعندما بلغتُ الخامسة عشر، أتذكر أنى استدعيت إلى حجرة الاستقبال لحضور اجتماع من نوع مختلف. كانت الحجرة مضاءة كعادتها بشمعة طويلة يجلس أبى فى منتصف نورها إلا أنه وضع أمامه فى ذلك المساء آنية فخارية ثقيلة عوضًا عن صندوق الأعمال الخاص به مما أوقعنى فى الحيرة، فهذا القدر هو الأكبر بالمنزل وكان يخرج فى المعتاد للضيوف دون سواهم.

"أحضرتَها كلها؟" سأل.

"لقد نفذتُ أوامرك."

وضعتُ بجانب أبى كومة اللوحات والمخططات التى كنت ممسكًا بها لتتكوم بلا انتظام صفحات من مختلف الأحجام والأصناف وقد التوى أغلبها أو تجعد بالألوان.

جلستُ يغشانى الصمت على حين كان أبى يجتلى أعمالى. كان يتفحص كل لوحة لحظة ثم يضعها إلى جانب. وعندما تفحص ما يقرب من نصف مجموعتى، خاطبنى بدون أن يرتقى بناظريه:

"أموقن يا ماسوجى أن كل أعمالك هنا؟ ألا توجد لوحة أو اثنتين لم تحضرهما؟"

لم أجب على الفور، فتطلع إلى متسائلاً: "حسنًا؟"

"ربما هناك لوحة أو اثنتين لم أحضرهما."

"بالفعل، ولا شك يا ماسوجى أن اللوحات الغائبة هى أكثرك افتخارًا بها. أليس هذا صحيحًا؟"

خفض عينيه إلى اللوحات مجددًا فلم أجبه. راقبتُه عدة لحظات أخرى وهو يتفحص الكومة. أمسك فى مرة من المرات لوحة بالقرب من لهب الشمعة قائلاً: "هذا هو الطريق المنحدر من تل نيشيياما، أليس كذلك؟ لا مراء أنك التقطت الصورة ببراعة فائقة، ذلك هو المنظر بالضبط وأنت هابط من التل. يا لمهارتك."

"شكرًا."

"أتدرى يا ماسوجى" – ما تزال عينا أبى مركزة على اللوحة – "سمعتُ شيئًا غريبًا من أمك. يبدو أنها قد خالجها الانطباع أنك تبتغى اتخاذ الرسم مهنة."

لم يصغ عبارته على هيئة سؤال، لذا لم أرد عليه فى بادئ الأمر. غير أنه رفع بصره وكرر: "أمك يا ماسوجى لديها الانطباع أنك تبتغى اتخاذ الرسم مهنة، وهى بطبيعة الحال مخطئة فى هذا التصور."

"بطبيعة الحال،" قلت هادئًا.

"تعنى أنها أساءت الفهم."

"بلا شك."

"مفهوم."

ما انفك أبى يدرس اللوحات دقائق معدودة أخرى فيما جلستُ أنا هناك أشاهده مطرقًا. ثم قال من غير أن يرفع عينيه: "أعتقد أن هذا صوت أمك وهى تعبر الردهة بالخارج. أسمعتها؟"

"لا أظن أني سمعت أحدًا."

"أعتقد أنها أمك. اطلب منها أن تدخل هنا بما أنها مارة بنا."

نهضتُ وذهبتُ إلى المدخل. كان الممر مظلمًا خاليًا كما كنت أعلم. ومن ورائى أتى صوت أبى يقول: "بينما تحضرها يا ماسوجى، اجمع باقى لوحاتك و آتنى بها."

عندما رجعتُ إلى الحجرة بعد دقائق معدودة بصحبة أمى، وصلنى الانطباع أن الآنية تحركتْ قليلاً إلى جانب الشمعة لكن ربما كان هذا من وحى خيالى. ظننت أيضًا أن ثمة رائحة حريق تفيح فى الهواء لكنى رميت الآنية بنظرة سريعة ولم أجد علامة على أنها مستعملة.

وضعتُ النماذج الأخيرة من أعمالى بجانب الكومة الأولى فأومأ أبى وهو شارد الذهن. كان ما زال باديًا عليه الانشغال بلوحاتى. انصرم بعض الوقت تجاهلنى فيه أنا وأمى، فجلستُ أمامه يطوقنى الصمت. انتهى به الأمر إلى أن تنهد ورفع وجهه مخاطبًا إياى: "لا أخالك يا ماسوجى لديك وقت طويل لتقضيه مع القساوسة المتجولين، أليس كذلك؟"

"القساوسة المتجولين؟ لا أعتقد."

"فى جعبتهم الكثير ليقولوه عن هذا العالَم. أنا لا أعيرهم اهتمامًا فى أغلب الأوقات إلا أنه على المرء أن يكون دمثًا مع القساوسة من قبيل التهذب فحسب وإن صدموك أحيانًا بوصفهم مجرد شحاذين."

توقف برهة عن الكلام، فأكدتُ: "أجل، بالفعل."

حانت من أبى التفاتة ناحية أمى قائلاً: "هل تتذكرين يا ساشيكو القساوسة المتجولين الذين أِلفوا الظهور فى هذه القرية؟ قصد أحدهم هذا المنزل بعد ولادة ابننا هذا مباشرة. كان شيخًا نحيفًا مبتور اليد لكنه كان رجلاً قويًا رغم ذلك. هل تتذكرينه؟"

أجابت أمى: "نعم، أذكره بالطبع، لكن لعله من المفروض ألا نأخذ كلام بعض هؤلاء القساوسة مأخذ الجد."

قال أبى: "لكن أتذكرين أن هذا القسيس استبصر قلب ماسوجى استبصارًا عميقًا وخلّف وراءه تحذيرًا لنا، أتذكرين يا ساشيكو؟"

"لكن ابننا كان مجرد طفل آنذاك،" تفوهتْ أمى وقد انخفض صوتها كأنها تتمنى بطريقة أو أخرى ألا يتناهى كلامها إلى أذنى. على النقيض علا صوت أبى بلا ضرورة كمن يخاطب جمهورًا قائلاً: "ترك لنا تحذيرًا. قال لنا إن أطراف ماسوجى موفورة الصحة لكنه مولود بخلل فى طبعه، بمسحة واهنة ستصيبه بميل إلى الكسل والخداع. هل تذكرين هذا يا ساشيكو؟"

"لكنى أعتقد أن القسيس نعت ابننا بالعديد من السجايا الإيجابية."

"هذا صحيح. فابننا يتمتع بالعديد من الصفات الحميدة، وقد أشار إليها القسيس بالفعل. لكن أتذكرين هذا التحذير يا ساشيكو؟ قال إنه لو غلبتْ النقاط الحميدة، نحن القائمون على تربيته يتحتم علينا أن نحترس ونتحقق من تلك المَسحة الواهنة متى حاولتْ أن تُظهر نفسها. وإلا، والكلام للقسيس، سيكبر ماسوجى ليصبح شخصًا غير صالح لعمل أى شيء."

قالت أمى بلهجة حذرة: "لكن قد لا يكون من رجاحة العقل أخذ كلام هؤلاء القساوسة على محمل الجد."

لم يبد على أبى عظيم الاندهاش لهذه الملحوظة. وبعد لحظة أومأ برأسه وهو مستغرق الخاطر كما لو كانت أمى قد أثارت نقطة محيرة. ثم عاد إلى الحديث: "كنتُ عن نفسى رافضًا أن آخذ كلامه بجدية حينها بيد أنى كنت مجبرًا فى كل مرحلة من مراحل نضوج ماسوجى على التسليم بصحة كلمات ذاك الشيخ. فلا يمكن إنكار وجود نقيصة فى شخصية ابننا، فبداخله القليل من المكر. لكن ينبغى لنا أن نقاوم وبلا انقطاع كسله وكرهه للعمل النافع وإرادته الضعيفة."

ثم التقط أبى متأنيًا ثلاث لوحات من لوحاتى أو أربعًا وأمسكها بكلتى يديه كأنه يزنها ثم اتجه بنظرته الشاخصة صوبى قائلاً: "خالج أمك يا ماسوجى الانطباع أنك ترغب فى مزاولة الرسم كمهنة. هل ربما أساءت الفهم من جانبها؟"

غضضت بصرى وأمسكتُ عن القول. التقطتُ بعدها صوت أمى بجانبى يقترب من الهمس: "هو لا يزال غرًا صغيرًا. يقينى أنه مجرد هوى طفولى منه."

توقف الحديث وهلة ثم سأل أبى: "أخبرنى يا ماسوجى، هل عندك أية فكرة عن نوعية الحياة التى يعيشها الرسامون؟"

أبقيت على صمتى مسددًا ناظرى إلى الأرضية أمامى.

استمر صوت أبى: "إن الرسامين يحيون فى قذارة وفقر. يقيمون فى عالم يسبغ عليهم كل المغريات كى يغدوا ضعاف العزيمة فاسدى الأخلاق. أو لستُ على حق يا ساشيكو؟"

أيدته أمى: "بلا مراء، وعلى الرغم من هذا قد يوجد واحد أو اثنان قادرين على مواصلة مسيرتهما الفنية ومع ذلك تحاشى مثل هذه الأخطار."

"قطعًا هناك استثناءات، " رد عليها أبى. ظل بصرى مطرقًا لكننى استطعت أن أتبين من صوته أنه عاد يومئ برأسه مجددًا بطريقته الدالة على الحيرة. "إنهم حفنة من ذوى العزيمة القوية والشخصية الاستثنائية لكن يؤسفنى أن ابننا بعيد كل البعد عن مثل هذه الشخصية. الحق أنه العكس تمامًا. ومن واجبنا حمايته من هذه الأخطار. فنحن فى النهاية نتمنى له أن يصبح رجلاً يرفع رؤوسنا عاليًا، أليس كذلك؟"

"بالتأكيد، " قالت أمى.

رفعتُ بصرى بسرعة. كانت الشمعة محترقة إلى منتصفها واللهب يضيء أحد جوانب وجه أبى بحدة. كان قد وضع اللوحات الآن فى حِجره، ولاحظتُ كيف كانت أصابعه تتحرك فى تبرم بطول أحرفها.

قال: "لك أن تنصرف الآن يا ماسوجى. أبغى التحدث مع أمك."

يمكننى تذكر القليل مما جرى لاحقًا فى تلك الليلة. أذكر أنى التقيت بأمى مصادفة فى الظلام، احتمال أنى قابلتها فى أحد الممرات وإن كنتُ لا أذكر ذلك. ولا تعى ذاكرتى سبب تجولى فى المنزل فى الظلام إلا أن هذا لم يكن بالتأكيد بغية التصنت على والدى – لأنى أتذكر أنه قد صحت عزيمتى على عدم الالتفات لما حدث بحجرة الاستقبال بعد مغادرتى. وفى تلك الأيام كانت كل المنازل سيئة الإضاءة بالطبع، ومن ثم لم يكن غريبًا أبدًا أن نقف فى الظلام ونتحاور. وسعنى تمييز هيئة أمى أمامى لكنى لم أستطع رؤية وجهها.

أعلمتُها: "هناك رائحة شيء يحترق فى أرجاء المنزل."

"يحترق؟" لاذت أمى بالصمت هنيهة ثم قالت: "لا، لا أظن. لا بد أنه من وحى خيالك يا ماسوجى."

"لقد شممت رائحة حريق . ها هى، لقد شممتها للتو مرة أخرى. أما زال أبى فى حجرة الاستقبال؟"

"أجل. إنه يتولى أمرًا ما."

"إن ما يفعله بالداخل أيًا كان لا يزعجني البتة."

لم تنطق أمي بكلمة وبالتالي أردفتُ: "الشيء الوحيد الذي فلح أبي في إشعاله هو طموحي."

"يسرني سماع ذلك يا ماسوجي."

"لا تسيئي فهمي يا أمي. أنا لا أريد أن ألفي نفسي في السنين المقبلة جالسًا حيثما يجلس أبي الآن لأحدث ابني عن الحسابات والأموال. هل ستفخرين بي إن كبرتُ وصرت على هذا الحال؟"

"ما في ذلك من شك يا ماسوجي. فبحياة أبيك الكثير مما لا تستطيع إدراكه على أي نحو في سنك."

"أنا لن أشعر بالفخر مطلقًا. وحين قلتُ إن الطموح يراودني، قصدتُ أني أرجو أن أسمو فوق مثل هذه الحياة."

استعانت أمي بالصمت بضع لحظات ثم باحت إلي: "عندما تكون صغيرًا في السن، تتراءى لك الكثير من الأشياء رتيبة لا حياة فيها. لكنك حينما تكبر، ستجد أن عين هذه الأشياء هي الأهم بالنسبة لك."

لم أرد على كلامها، وبدلاً من ذلك أعتقد أني قلت: "كنتُ فيما مضى مرعوبًا من اجتماعات عمل أبي لكنها أضحت الآن منذ فترة باعثة على الملل ليس إلا. هي في الواقع تثير اشمئزازي. ما كنه تلك

الاجتماعات التى يشرفنى حضورها عظيم الشرف؟ عد النقود المتناثرة والتقاط العملات ساعة تلو الأخرى؟ لن أغفر لنفسى بتاتًا لو صارت حياتى هكذا." سكتُ وهلة وانتظرتُ لأرى ما إذا كانت أمي ستقول أى شيء. قام فى نفسى إحساس غريب لحظة؛ وهو أنها سارت بعيدًا فى صمت وأنا أتكلم وأنى أقف الآن وحدى بالمكان. غير أنى سمعت حركتها أمامى مباشرة، لذا أعدت على مسامعها: "إن ما يفعله أبى بحجرة الاستقبال لا يزعجنى البتة. فكل ما أشعله هو طموحى."

مهما يكن من أمر أعتقد أنى انحرفت عن الموضوع. فقد كنتُ أنوى أن أسجل هنا الحوار الذى دار بينى وبين سيتسوكو الشهر المنقضى لمّا دخلتْ حجرة الاستقبال لتغيير الأزهار.

أذكر أن سيتسوكو جلست أمام المذبح البوذى وطفقتْ تنزع أذبل الأزهار المزينة للمذبح. كنتُ قد اتخذت مجلسى ورائها قليلاً، أرقب كيف تزعزع كل فرع بحرص قبل أن تحطه على حجرها. أخالنا تحدثنا وقتها عن شيء مسل لكنها قالت دون أن تصرف عينيها عن أزهارها: "اعذرنى لذكر هذا الأمر يا أبى، فلا شك لدى أنه قد جرى ببالك من قبل."

"ما هو ذلك الأمر يا سيتسوكو؟"

"أنا لا أذكره إلا لأنى أظن أنه من المنتظر أن تتقدم مفاوضات زواج نوريكو."

أخذتْ سيتسوكو تنقل الشتلات الناضرة الواحدة بعد الأخرى من زهريتها إلى الزهريات المحيطة بالمذبح. كانت تؤدى هذه المهمة بعناية أى عناية متوقفة بعد وضع كل زهرة لتتأمل تأثيرها على الناظرين. استطردتْ: "رغبتُ فحسب أن أقول إنه حالما تبدأ المفاوضات جديًا، ربما يجب على أبى أيضًا اتخاذ إجراءات وقائية معينة."

"إجراءات وقائية؟ أكيد، سنخوض فى المسألة باحتراس. لكن ماذا يدور بخلدك بالضبط؟"

. "أستميحك عذرًا، كنتُ أشير تحديدًا إلى التحريات."

"مفهوم، بالطبع، سنتوخى فيها الشمول اللازم. سوف نستأجر نفس المتحرى الذى استأجرناه العام الماضى. فهو أهل للاعتماد عليه كما قد تذكرين."

عدّلتْ سيتسوكو من وضع ساق أحد النباتات بحذر قائلة: "اعذرنى، لا ريب أنى لا أعبر عن نفسى بجلاء تام. كنتُ فى الحقيقة أشير إلى *تحرياتهم*."

"آسف، لستُ متأكدًا من فهم مرماك. لم أكن أدرك أن لدينا ما نضمره."

ارتفعتْ من سيتسوكو ضحكة عصبية: "لا بد أن تسامحنى يا أبى. فأنا كما تدرى لست موهوبة فى إجراء الأحاديث. وسويشى دائمًا ما يعنفنى لأنى لا أجيد التعبير عن نفسى، فهو يعبر عن نفسه ببلاغة فائقة. على ولا شك أن أسعى إلى التعلم منه."

"أنا متأكد أن حديثك لا غبار عليه لكنى للأسف لا أفهم تمامًا
- ما تقصدين."

رفعتْ سيتسوكو فجأة يديها كاليائسة. "النسيم" قالت متنهدة ثم مدت يديها إلى أزهارها مجددًا. "أحبها على هذا الوضع إنما يظهر أن النسيم لا يوافقنى الرأى". انشغلتْ عنى من جديد لحظة ثم قالت: "يجب أن تعذرنى يا أبى. لو كان سويشى فى مكانى لأحسن التعبير لكنه بالطبع ليس موجودًا. ما أردت أن أقول سوى إنه قد يكون من الحكمة أن يتخذ أبى إجراءات وقائية معينة لضمان عدم حدوث أى سوء تفاهم. فنوريكو رغم كل شيء تبلغ الآن حوالى ست وعشرين سنة. ونحن لا نستطيع أن نتحمل خيبة أمل أخرى مثل تلك التى جرت العام الماضى."

"علام سيكون سوء الفهم يا سيتسوكو؟"

"عن الماضى. لكن أرجوك، أنا موقنة أنى أتكلم بلا داع. لا ريب أن أبى قد تفكر قبل الآن فى كل هذه النقاط وسيتولى أمر كل ما هو ضرورى."

جلستْ إلى الوراء متأملة عملها ثم استدارت إلى وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة. "لستُ ماهرة فى التعامل معها،" قالت مشيرة إلى الأزهار.

"إنها تبدو رائعة."

صوبتْ إلى المذبح نظرة ملؤها التشكك ثم ضحكتْ بارتباك.

بينما كنتُ استمتع برحلة الترام إلى ضاحية أراكاوا الهادئة بالأمس، طافت بعقلى ذكرى تلك المحادثة التى وقعتْ بحجرة الاستقبال، فعانيت موجة من الحنق. كنتُ أطالع من النافذة منظرًا أمسى بالتدريج أخف جلبة واضطرابًا كلما اتجهنا جنوبًا، فاسترجعتُ صورة ابنتى وهى جالسة أمام المذبح ناصحة إياى باتخاذ "إجراءات وقائية". تذكرتُ كيف أدارت وجهها قليلاً تجاهى لتردف: "فنوريكو رغم كل شيء تبلغ الآن حوالى ست وعشرين سنة. ونحن لا نستطيع أن نتحمل خيبة أمل أخرى مثل تلك التى جرت العام الماضى." استدعيت أسلوبها العليم بالشرفة فى أول صباح من زيارتها حين ألمحتْ أنى أخفى سرًا خاصًا وراء انسحاب آل مياك العام الماضى. كانت تلك الذكريات قد أفسدت مزاجى من قبل خلال الشهر الفائت؛ بيد أنى استطعت بالأمس – خلال السكون الذى غلف سفرى وحدى إلى أطراف المدينة الأكثر هدوءًا – أن أتدبر حقيقة مشاعرى بصورة أوضح لأفطن إلى أن غضبى ليس موجهًا فى الحقيقة إلى سيتسوكو بل إلى زوجها.

أتصور أنه من الطبيعى بمكان أن تتأثر الزوجة بأفكار زوجها – حتى عندما يعوزها المنطق كلية كما هو الحال مع أفكار سويشى. لكن عندما يحرض رجل زوجته على إثارة أفكار مريبة حول أبيها، إذن فهذا بالقطع سبب كاف للاستياء. لقد حاولتُ فى الماضى أن أقف موقف المتسامح تجاه جوانب معينة من سلوك سويشى بسبب ما لا بد وقد كابده فى مانشوريا؛ فلم آخذ على محمل شخصى مثلاً

مَا أظهره نحو جيلى من إمارات مرارة متكررة. لكنى كنت دائمَ الافتراض أن مثل هذه الأحاسيس سوف تتلاشى مع مرور الزمن بيد أنه يتراءى لى حقًا أنها تتفاقم حدة وتطرفًا فى حالة سويشى.

كل هذا ما كان ليزعجنى الآن – فسيتسوكو وسويشى برغم كل شيء يعيشان بعيدًا، وأنا لا أراهما مطلقًا أكثر من مرة فى السنة – لولا أنه يلوح لى مؤخرًا أن عين هذه الأفكار المجردة من المنطق تفسد عقل نوريكو وذلك منذ زيارة سيتسوكو الشهر الماضى. هذا ما اقتدح غضبى وحثنى عدة مرات خلال هذه الأيام القليلة الماضية على كتابة خطاب ينطق بالغضب لسيتسوكو. أنا لست معترضًا على أن يشغل زوج وزوجةٌ نفسيهما بتخمينات سخيفة لكن عليهما أن يحتفظا بها لنفسيهما. أى أب أشد صرامة كان ليفعل بلا ريب شيئًا منذ وقت طويل.

ففى أكثر من مرة الشهر الماضى، تصادف أن وجدتُ ابنتى منهمكتين فى الحديث ولحظتُ أنهما قطعتا حديثهما بأسلوب مشوب بالذنب قبل أن تبدءا حديثًا جديدًا غير مقنع نوعًا ما. بمقدورى فى الواقع تذكر حدوث ذلك ثلاث مرات على الأقل فى غضون الخمسة أيام التى قضتها سيتسوكو هنا. ثم حدث منذ عدة أيام بالضبط أن كنتُ أنا ونوريكو نفرغ من طعام الإفطار عندما بادرتْ بالحديث:

"كنتُ أسير بجوار مركز شيميزو التجارى بالأمس وخمن مَن رأيته واقفًا عند الترام؟ جيرو مياك!"

"مياك؟" رفعتُ بصرى عن السلطانية وقد أخذتنى الدهشة لسماع نوريكو تذكر الاسم بمنتهى الجرأة. "ياه، ياله من سوء حظ."

"سوء حظ؟ الحق يا أبى أنى شعرت بقدر من السعادة لرؤيته. وبالرغم من ذلك تعثر هو بأذيال الارتباك، لذا لم أطل الحديث إليه. على كلٍ كان على أن أعود إلى المكتب، فما كنتُ خارجة إلا لقضاء مهمة ما. لكن هل علمتَ أنه خاطب الآن؟"

"هل أخبرك بهذا؟ يا لوقاحته."

"لم يتطوع طبعًا بتقديم المعلومة. لقد سألتُه. نقلتُ إليه أنى أخوض الآن مفاوضات جديدة وسألتُه عن احتمالات زواجه، سألتُه بمنتهى السهولة، فاحمر وجهه خجلاً! لكنه باح بما عنده وقال إنه تقريبًا خاطب الآن وإن كل شيء تقريبًا محسوم."

"حسبك يا نوريكو، عليك التحلى بالمزيد من الكتمان. لماذا ذكرتِ موضوع الزواج من أصله؟"

"تملكنى الفضول. فأنا لم أعد متضايقة. ومع تقدم المفاوضات الحالية على ما يرام، كنتُ أفكر منذ بضعة أيام أنه من المؤسف أن يكون جيرو مياك مازال مكتئبًا من جراء العام الماضى. وبالتالى تستطيع أن تتخيل فرحتى عندما وجدتُه تقريبًا خاطبًا."

"مفهوم."

"أتمنى أن أقابل عروسه عما قريب. أنا متأكدة أنها بالغة اللطف، أليس كذلك يا أبي؟"

"أكيد."

واصلنا الأكل لفترة وجيزة ثم قالت نوريكو: "هممت أن أسأله عن أمر آخر لكنى لم أفعل." مالت ناحيتى هامسة: "كدت أن أسأله عن العام الماضى، عن سبب تراجعهم."

"حسنًا فعلتِ أن لم تسأليه. إلى جانب أنهم أعلنوا السبب بوضوح كاف حينها، لقد شعروا أن الشاب لا يتمتع بمكانة جديرة بك."

"لكنك تعلم يا أبى أن تلك مجرد رسميات. فنحن لم نكتشف قط السبب الحقيقي. أنا على الأقل لم يتسن لى مطلقًا الوقوف عليه." عند هذه النقطة حملنى شيء فى صوتها على أن أرفع نظرى ثانية عن السلطانية. كانت نوريكو ممسكة بالأعواد متوازنة فى الهواء كما لو كانت تنتظر أن أقول شيئًا. ثم قالت فى حين واصلتُ الأكل: "لِم انسحبوا فى اعتقادك؟ هل اكتشفتَ أبدًا السبب؟"

"لم أكتشف شيئًا. كما سبق وقلت قالوا إنهم شعروا أن وضع الشاب غير ملائم، وهو جواب مقنع تمامًا."

"إنى أتساءل يا أبى لو أن المسألة ببساطة أنى لم أف بمتطلباتهم. لعلى لست جميلة بما فيه الكفاية. أتظن أن هذا هو السبب؟"

"المسألة لا تتعلق بك، أنت تعلمين ذلك. توجد أسباب شتى تجعل عائلة تنسحب من مفاوضات."

"طيب يا أبى، إذا لم أكن أنا السبب، إذًا ما الذى دفعهم يا ترى إلى الانسحاب بهذا الشكل؟"

لاح لى وجود شيء متعمد تعمدًا غير طبيعى فى الطريقة التى لفظتْ بها ابنتى هذه الكلمات. علنى تخيلت هذا إلا أن الأب ينتبه إلى أية تغييرات طفيفة تطرأ على لهجة ابنته.

على كل حال ذكّرنى حديثى مع نوريكو بالمناسبة التى التقيت فيها بجيرو مياك وانتهى بى الأمر إلى تبادل الحوار معه عند إحدى محطات الترام. انقضى على ذلك أكثر من سنة، وكانت المفاوضات لا تزال جارية فى تلك المرحلة مع أسرة مياك. كان وقتًا متأخرًا من بعد الظهر والمدينة مزدحمة بالعائدين إلى منازلهم عقب يوم عمل. ولسبب ما كنتُ أسير عبر حى يوكوت متجهًا إلى محطة الترام الواقعة خارج مبنى شركة كيمورا. وإذا كنتَ تعهد حى يوكوت، ستعرف العديد من المكاتب الصغيرة الرثة نوعًا ما التى تصطف بالطوابق العليا للمحلات هناك. حين قابلتُ جيرو مياك يومها، كان خارجًا من أحد هذه المكاتب نازلاً من سلم ضيق يقع بين اثنتين من واجهات المحلات.

كنتُ قد اجتمعت به مرتين قبل ذلك اليوم لكنها كانت مجرد لقاءات عائلية رسمية يحضرها فى أبهى ثيابه. أما الآن فقد لاح فى

هيئة متباينة تمامًا، إذ كان يرتدى معطفًا رثًا فضفاضًا ويقبض بإحكام على حقيبة تحت ذراعه. تبدى لى شابًا شديد الاعتياد على اضطهاد الرؤساء؛ فقد بدت هيئته كلها ثابتة عند وضع التأهب للانحناء. وحين سألتُه ما إذا كان المكتب الذى خرج منه للتو هو محل عمله، أخذ يضحك بعصبية كأنى ضبطته خارجًا من منزل سيئ السمعة.

خطر ببالى حقًا أن ارتباكه ربما كان مفرطًا زيادة عن اللازم لأن أرجعه فحسب إلى لقائنا بالصدفة؛ بيد أنى رددت الأمر وقتها إلى تحرجه من المظهر البالى لمبنى مكتبه والبيئة المحيطة به. مر زهاء أسبوع فقط ثم علمتُ مذهولاً أن آل مياك انسحبوا، فألفيت نفسى أرتد بذاكرتى إلى الوراء باحثًا عن مغزى هذه المقابلة.

أفضيت إلى سيتسوكو التى كانت فى إحدى زياراتها وقتئذ: "تُرى أكانوا قد قرروا بالفعل الانسحاب لمّا كنتُ أتحدث إليه."

"ذلك بالتأكيد يفسر ما لاحظتَه من عصبية يا أبى. ألم يقل أى شيء يلمح به إلى نواياهم؟"

لكن حتى فى ذلك الوقت وبعد أسبوع واحد فقط من المقابلة الفعلية، قدرتُ بالكاد أن أتذكر المحادثة بينى وبين الشاب مياك. كنتُ بالطبع فى تلك الظهيرة ما زلت على افتراضى أن خطوبته لنوريكو ستعلن فى أى يوم وأنى أتعامل مع فرد مقبل من أفراد أسرتى. فكانت نواياى حينها مركزة على جعل الشاب مياك على سجيته فى حضرتى، ولم أعمل فكرى مليًا – كما كان من الممكن – فيما قيل

بالفعل أثناء تمشيتنا القصيرة إلى محطة الترام وخلال الدقائق المعدودة التى أمضيناها واقفين معًا هناك.

لكنى حين أنعمت النظر فى المسألة برمتها خلال الأيام التالية، وردتْ على بالي خاطرة جديدة: ألا وهى أن المقابلة ذاتها ربما ساعدتْ فى حدوث الانسحاب.

عبّرتُ عما فى ذهنى لسيتسوكو: "احتمال كبير. فقد كان مياك بالغ الحرج لرؤيتى لمحل عمله، وربما استوقفه من جديد وجود فجوة واسعة بين عائلتينا. فعلى الرغم من كل شيء هى نقطة أثاروها مرارًا لكى تكون مجرد شكليات."

غير أن سيتسوكو فيما يبدو لم تقتنع بتلك النظرية ويظهر أنها لا بد قد رجعت أدراجها إلى بيتها وزوجها ليتفكرا فى فشل طلب زواج أختها. إذ يلوح لى أنها عادت هذه السنة بنظرياتها الخاصة – أو على الأقل بنظريات سويشى. وهكذا أجد نفسى مجبرًا على أن أسترجع مقابلة مياك تارة أخرى وأن أتفكر فى المسألة من منظور آخر. لكنى، كما قلت، كنت أذكر بالكاد ما جرى بعد مضى أسبوع فقط، فما بالك وقد انصرم الآن أكثر من عام.

إلا أن الذاكرة قد كرت بى إلى حوار معين لم أحمله أية دلالة من قبل. كنا أنا ومياك قد بلغنا الشارع الرئيسى ووقفنا أمام مبنى شركة كيمورا وكلانا ينتظر ترامه. أذكر قول مياك:

"داهمتنا اليوم بعض الأخبار المحزنة فى العمل، رئيس الشركة الأم وافاه الأجل."

"البقية فى حياتك. أكان طاعنًا فى السن؟"

"ما تجاوز بداية الستين. لم تتح لى الفرصة لرؤيته شخصيًا ولو كنتُ بالطبع قد شاهدت صوره فى منشوراتنا الدورية. كان رجلاً عظيمًا، وجميعنا نشعر كما لو أصبحنا أيتامًا."

"لا بد أنها صدمة لكم جميعًا."

"هى كذلك بالتأكيد،" قال مياك وتوقف لحظة ثم استطرد: "مع ذلك نحن بمكتبنا فى حيرة من إيجاد الطريقة المثلى لتكريمه. بصراحة الرئيس انتحر."

"أحق ما تقول؟"

"حق كل الحق. وجدوه مختنقًا بالغاز لكن يبدو أنه حاول بقر بطنه أولاً، إذ وجدوا بعض الجروح الطفيفة حول معدته." غض مياك بصره إلى الأرض برزانة وقال: "لقد جاء اعتذاره نيابة عن الشركات التى تولى مسؤوليتها."

"اعتذاره؟"

"من الواضح أن رئيسنا شعر بمسؤوليته عن بعض المشاريع التى تورطنا فيها أثناء الحرب. كان الأمريكيون قد طردوا فى السابق اثنين من كبار الموظفين لكن من الجلى أن رئيسنا شعر بأن ذلك لا

يكفي، فجاء عمله اعتذارًا قدمه بالنيابة عنا جميعًا إلى عائلات من قتلوا في الحرب."

"ياه، يبدو هذا بحق نوعًا من التطرف. الظاهر أن العالم قد فقد عقله. كل يوم يطلع علينا خبر انتحار أحدهم اعتذارًا منه. قل لي يا سيد مياك، ألا تجد في الأمر بأكمله خسارة رهيبة؟ فبرغم كل شيء لو كانت بلدك تخوض حربًا، لن تدخر جهدًا في مساندتها، ولا عار يقترن بهذا. فما الحاجة إلى الاعتذار بالموت؟"

"أنت بلا مراء على حق يا سيدي لكن لا أخفي عليك أن ثمة راحة كبيرة في أرجاء الشركة. فنحن نشعر الآن أن بمقدورنا نسيان تجاوزاتنا السابقة والتطلع إلى المستقبل. لقد أدى رئيسنا عملاً عظيمًا."

"لكنها أيضًا خسارة عظيمة أن يتخلى بضعة رجال من أفضل رجالنا عن أرواحهم بتلك الطريقة."

"بالفعل يا سيدي، إنه أمر يدعو إلى الرثاء. أحيانًا ما أفكر أن هناك العديد ممن ينبغي لهم أن يقدموا أرواحهم كاعتذار وهم أجبن من أن يواجهوا أعباء مسؤولياتهم. والأمر متروك إذن لأمثال رئيسنا للقيام بتلك اللفتات النبيلة. فهناك العديد من الأشخاص الذين عادوا بالفعل إلى مواقعهم التي شغلوها إبان الحرب، وبعضهم ليسوا بأفضل من مجرمي الحرب. هم الذين يتحتم عليهم الاعتذار."

"أنا فاهم قصدك. لكن مَن حاربوا وعملوا مخلصين لخدمة بلدنا أثناء الحرب لا يمكن تسميتهم بمجرمي حرب. للأسف صار هذا التعبير يُستخدَم بحرية زائدة هذه الأيام."

"لكن هؤلاء الرجال هم مَن ضللوا البلد يا سيدى. ولا ريب أنه من الصواب فحسب أن يعترفوا بمسؤوليتهم. فهو جبن من هؤلاء الرجال أن يرفضوا الإقرار بأخطائهم. وحين ترتكب تلك الأخطاء نيابة عن البلد بأسرها، فهى إذًا أفدح حالات الجبن على الإطلاق."

هل حقًا قال مياك كل هذا الكلام فى تلك الظهيرة؟ قد تكون كلماته اختلطت على بنوعية الكلمات التى سيخرج على بها سويشى. هذا من المحتمل فعلاً؛ فقد كنتُ فى النهاية أعتبر مياك صهرى المقبل، ويجوز بحق أنى ربطت ذهنيًا بينه وبين صهرى الحالى بطريقة أو بأخرى. إذ لا شك أن عبارات مثل "أفدح جبن على الإطلاق" تلوح أشبه بسويشى منها بالشاب مياك المسالم وإن كنت على ثقة تامة بأن مثل هذا الحديث قد دار بالفعل عند موقف الترام يومها. أخاله غريبًا أن يطرح مثل هذا الموضوع كما فعل. أما عبارة "أفدح جبن على الإطلاق"، فأنا واثق أنها خرجت من سويشى. وعندما أتفكر الآن فى العبارة، أوقن فى الواقع أن سويشى استخدمها فى ذاك المساء عقب مراسم دفن رفات كينجى.

استغرق وصول رفات ابنى من مانشوريا أكثر من عام. فقد ظلوا يخبرونا أن الشيوعيين عقدوا كل شيء هناك. وعند وصول رفاته أخيرًا، برفقة رفات الثلاثة وعشرين شابًا الآخرين الذين سقطوا ضحايا فى محاولة منهم لشن هذا الهجوم اليائس عبر حقل الألغام، لم تكن هناك أية ضمانات أن الرفات هى حقيقة رفات كينجى ولا أحد غيره. وقد كتبتْ لى سيتسوكو أيامها: "لكن لو اختلطتْ رفات أخى،

لن تختلط سوى برفات رفاقه. ونحن لا يسعنا أن نتذمر من ذلك." وهكذا قبلنا الرفات على أنها رفات كينجى وأقمنا الشهر الماضى المراسم المتأخرة له منذ سنتين.

وفى وسط المراسم عند المقبرة، انصرف ناظرى إلى سويشى وهو يبتعد بخطى واسعة وعلائم الاستياء ترتسم على وجهه. وعندما سألتُ سيتسوكو عما دهى زوجها، همستْ على عجل: "أرجوك سامحه، فهو ليس على ما يرام. إنها لمسة من سوء التغذية لم يتخلص منها منذ شهور."

لكن فى وقت لاحق حينما تجمع الضيوف فى منزلى بعد المراسم، أطلعتنى سيتسوكو: "أرجوك يا أبى تفهم الأمر، فمثل هذه المراسم تزعج سويشى بشدة."

"ياله من شيء مؤثر، لم أكن أعلم أنه كان وثيق الصلة بأخيك."

"كانا على وفاق متى التقيا. بالإضافة إلى أن سويشى شديد التوحد مع أمثال كينجى، فهو يقول إنه كان من الممكن بسهولة بالغة أن يكون هو المتوفى."

"لكن أليس هذا سبب أدعى لئلا يترك المراسم؟"

"أنا متأسفة يا أبى، ما قصد سويشى على الإطلاق أن يُبدى عدم احترام لكننا حضرنا العديد من مثل هذه المراسم العام الفائت لأصدقاء سويشى ورفقائه، ودائمًا ما تشعره بالغضب الشديد."

"الغضب؟ ما الذى يتسبب فى غضبه؟"

غير أن المزيد من الضيوف وفدوا وقتذاك مما اضطرنى إلى قطع الحديث. لم تتح لى الفرصة أن أتحدث مع سويشى نفسه سوى فى وقت لاحق مسائها. كان العديد من الضيوف مازالوا معنا مجتمعين فى حجرة الاستقبال. تبينتُ قامة صهرى الطويلة عبر الحجرة وهو يقف بمفرده؛ كان قد أزاح الستائر المطلة على الحديقة وأدبر همهمة الحديث ليتفرس فى الظلام بالخارج. تقدمتُ إليه قائلاً:

"تقول سيتسوكو يا سويشى إن هذه المراسم تشعرك بالغضب."

استدار وقد ظهرتْ ابتسامة على وجهه قائلاً: "أتصور أن لها هذا التأثير. فأنا أغضب حين أفكر فى الأوضاع، حين أفكر فى الخسارة."

"أجل، إن التفكير فى الخسارة لهو أمر بشع إلا أن كينجى مات بشجاعة منقطعة النظير شأنه شأن الكثيرين غيره."

أحد صهرى النظر إلى برهة بسحنة ساكنة تفتقر إلى أى تعبير؛ وهى حركة يقوم بها من آن لآخر ولم أعتدها قط. لا شك أن نظرته الشاخصة بريئة بالفعل لكن ربما لأن سويشى رجل موفور القوة جسمانيًا وملامحه بها شيء من الإخافة، فمن السهل قراءة شيء مهدِد أو شيء يحمل شبهة الاتهام على وجهه.

فاه أخيرًا: "يبدو أنه لا نهاية للميتات الشجاعة. نصف زملاء سنة تخرجى بالمدرسة الثانوية ماتوا ميتات شجاعة. ماتوا لأسباب

غبية غير أنهم لن يدروا ذلك أبدًا. هل تعلم يا أبى ما الذى يجعلنى بالفعل غاضبًا؟"

"ماذا يا سويشي؟"

"هؤلاء مَن أرسلوا أمثال كينجى إلى الميدان ليموتوا ميتاتهم الشجاعة، أين هم اليوم؟ يواصلون حياتهم مثلما اعتادوا طيلة عمرهم والعديد منهم أنجح من ذى قبل، يتصرفون بتأدب أمام الأمريكيين، هم عين الأشخاص الذين قادونا إلى الكارثة. ومع ذلك نلبس الحداد على أشباه كينجى. هذا ما يجعلنى غاضبًا. يموت الشبان الشجعان لأسباب غبية والمجرمون الحقيقيون ما زالوا معنا، يركبهم الخوف من أن يظهروا على حقيقتهم، من أن يعترفوا بمسؤوليتهم." وأنا متأكد أنه قال عندئذ وهو يمد بصره نحو الظلمة بالخارج: "هذا فى رأيى أفدح جبن على الإطلاق."

استنزفتْ المراسم قوتى وإلا ربما كنتُ فندت بعض افتراضاته لكنى قدّرت أن فرصًا أخرى ستسنح لمثل هذا الكلام فغيرتُ دفة الحديث لمواضيع أخرى. أتذكر أنى وقفت معه فى ذاك المكان، أرنو بالخارج إلى الليل الذى أرخى سدوله وأسأله عن عمله وعن إشيرو. لم أكن وقتها قد رأيت سويشى منذ عودته من الحرب، فكانت تلك أول تجربةٍ لى مع صهرى المتغير الساخر نوعًا ما الذى بدأتُ اعتاد عليه الآن. وقد أخذنى العجب ذلك المساء لأنى وجدته يتحدث بتلك الطريقة، بلا أى ملمح لما كان عليه من سلوكيات جامدة قبل الحرب؛ فعزيت ذلك إلى ما واكب مراسم الدفن من تأثير عاطفى وبوجه أعم

لما صاحب تجربة الحرب - الرهيبة كما ألمحتُ سيتسوكو - من أثر هائل.

لكن الواقع هو أن ما ألفيته عليه من مزاج في تلك الأمسية يتماشى بالفعل مع مزاجه العام هذه الأيام؛ فما جَد من تحول على الشاب المهذب المتواضع الذى تزوج سيتسوكو قبل الحرب بعامين جد لافت للنظر. إنه لمأساوى بالقطع أن تزهق أرواح العديد من شباب جيله مثلما حدث لكن لِم يتحتم عليه أن يضمر تلك المرارة للأكبر منه سناً؟ إن أفكار سويشى تتصف الآن بالصلابة وتقريبًا بالخبث مما أجدها مقلقة - وأكثر من مقلقة نظرًا لأنها تخلف أثرًا فى سيتسوكو.

إلا أن هذا التحول لا يقتصر على صهرى وحده. فأنا أشاهده الآن فى كل مكان من خولي؛ إذ تبدلتْ شخصية الجيل الأصغر تبدلاً يستعصى على استيعابه كلية، ولا يمكن إنكار أن بعض جوانب هذا التحول موجبة للانزعاج. فمنذ بضع ليال مثلاً، اتفق أن نمى إلى مسامعي بحانة السيدة كاواكامى صوت رجل يجلس بعيدًا إلى الطاولة وهو يقول:

"سمعتُ أنهم أخذوا ذاك الأبله إلى المستشفى، مصاب بالقليل من الضلوع المكسورة وبارتجاج فى المخ."

"أتعنى الولد هيراياما؟" سألتْ السيدة كاواكامى بنظرة يريم عليها القلق.

"أهذا اسمه؟ مَن يهيم صائحًا فى الأنحاء على الدوام. يتعين حقًا على أحدهم أن يدفعه إلى الكف. الظاهر أنه أبرح ضربًا مرة أخرى الليلة الماضية. من العار أن ينفثوا عن غضبهم فى أبله مثله مهما كان الذى يصيح به."

استدرت إلى الرجل لحظتها قائلاً: "معذرة، أتقول إن الولد هيراياما هوجم؟ لِم؟"

"البادى أنه استمر فى غناء واحدة من أغانيه العسكرية القديمة إياها وترنيم نداءات الحرب الرجعية."

فبينتُ: "لكن هذا هو دأب الولد هيراياما. بمقدوره غناء أغنيتين أو ثلاث أغان فقط، هذا ما تعلمه."

هز الرجل كتفه استهانة قائلاً: "معك حق، ما معنى ضرب أبله مثله؟ ما هى إلا قسوة. كان على جسر كاياباشى، وأنت تعلم كيف ينتشر المفسدون هناك بعد أن تتقدم خطى الظلام. كان جالسًا على عمود الجسر، يغنى ويرنم لما يقرب من الساعة. استطاعوا سماعه بالحانة الكائنة عبر الطريق، والظاهر أن قلة منهم سأمت غناءه."

"ما معنى ذلك؟ لم يقصد الولد هيراياما أى ضرر،" قالت السيدة كاواكامى.

"طيب، يجب على أحدهم أن يعلمه الأغانى الجديدة،" قال الرجل وهو يحتسى كأسه. "لن ينال سوى الضرب مرة ثانية إن طاف يغنى تلك الأغانى القديمة."

ما زلنا نلقبه بـــ "الولد هيراياما" لكن لا بد أنه يبلغ الآن خمسين سنة على الأقل إلا أن الاسم يتناسب معه، فعمره العقلى موافق لعمر طفل. وحسبما أذكر من زمان، كانت الراهبات الكاثوليكيات بالإرسالية ترعينه لكن المفترض أنه ولد لعائلة تدعى هيراياما. وفى الأيام الخالية عندما كان حى المتعة الخاص بنا يزدهر، كنا دومًا نجد الولد هيراياما جالسًا على الأرض بالقرب من مدخل الميجي-هيدارى أو إحدى المنشئات المجاورة لها، وكان كما قالت السيدة كاواكامى غير مؤذ بتاتًا. الحق أنه أضحى فى السنوات الماضية وأثناء الحرب شخصية محبوبة فى حى المتعة وذلك لأغانيه عن الحرب ولتقليده للخطب الوطنية.

مَن علّمه أغانيه؟ لا أدرى. لم يكن فى ذخيرته سوى أغنيتين أو ثلاث أغان، وكان على علم ببيت واحد من الشعر فى كل منها بيد أنه كان يلقيها بصوت يفيض بقوة هائلة تستحوذ على المشاعر. وبين الوصلات كان يسلى المشاهدين بالوقوف هناك مبتسمًا ابتسامة عريضة نحو السماء، يداه على فخذيه، ليصيح: "ينبغى أن تقدم هذه القرية نصيبها من التضحيات للإمبراطور! بعضكم سيضحى بحياته! وبعضكم سيعود منتصرًا عند مطلع فجر جديد!" أو مثل هذه الكلمات. فيعلن الناس: "ربما فقد الولد هيراياما عقله لكنه يتخذ الموقف الصحيح. إنه يابانى". وطالما شاهدتُ الناس يتوقفون ليعطوه أموالاً أو ليبتاعوا له طعامًا، وفى تلك المواقف كان وجه الأبله يشرق بالابتسام. لا شك لدى أن تلك الأغانى الوطنية قد رسَخت فى عقل الولد هيراياما بسبب ما أسبغتْه عليه من رعاية وشعبية.

لا أحد يعنى بالبلهاء فى هذه الأيام. ما الذى جرى للناس حتى يجنحوا إلى إشباع الرجل ضربًا؟ قد لا تروقهم أغانيه وخطبه بيد أن هؤلاء هم على الأرجح نفس الأشخاص الذين ربتوا على رأسه ذات مرة وشجعوه إلى أن صارت تلك الفترات القصيرة جزءًا لا يتجزأ من مخه.

لكن كما أقول للبلد مزاج مختلف هذه الأيام، ومواقف سويشي قد لا تكون استثناء بالمرة. لعلي أجور على الشاب مياك لو نسبت تلك المرارة إليه هو الآخر إلا أنك – ومع الأوضاع الحالية – لو تفحصت أى كلام يقوله لك أى شخص، البادى أنك ستجد خيطًا من نفس هذا الإحساس المرير يسرى فيه. وعلى حد علمى قال مياك تلك الكلمات بالفعل؛ ربما أصبح كل جيل مياك وسويشى يفكر ويتكلم بهذا الأسلوب.

أعتقد أنى ذكرت من قبل زيارتى بالأمس لجنوب المدينة، لمنطقة أراكاوا. وأراكاوا هى آخر محطة فى خط ترام المدينة المتجه جنوبًا، ويُعبر العديد من الأشخاص عن دهشتهم لتوغل الخط إلى الضواحى. والحق أنه من الصعب اعتبار أراكاوا جزء من المدينة، ذلك بشوارعها السكنية المكنوسة بعناية وصفوف شجر القيقب على الأرصفة ومنازلها المهيبة المشيدة على مبعدة من بعضها بعضًا وجوها العام المحاط بالريف. لكنى أعتقد أن السلطات قد أصابت عندما مدت خط الترام حتى أراكاوا؛ فقد عاد ذلك بالنفع على سكان المدينة، إذ يسّر لهم الوصول إلى أجواء أهدأ وأقل ازدحامًا. فنحن لم

نكن نحصل دائمًا على خدمة جيدة، وأستطيع تذكر كيف كان إحساس المرء بالحصار فى المدينة يستفحل فى الأيام السابقة على مد خطوط التّرام الحالية ولا سيما خلال أسابيع الصيف الحارة.

بدأتْ الخطوط الحالية العمل عام ١٩٣١ على ما أعتقد لتحل محل الخطوط القاصرة التى أثارت سخطًا شديدًا لدى المسافرين خلال الثلاثين سنة الماضية. وإن لم تكن من سكان هذه المنطقة وقتذاك، ربما يصعب عليك تخيل تأثير هذه الخطوط الجديدة على جوانب عديدة من حياة المدينة. فقد تبدلتْ خصائص أحياء بأكملها بين عشية وضحاها؛ إذ هجر الناس متنزهات كانت حافلة على الدوام وعانت تجارات راسخة خسائر فادحة.

ظهرتْ بالطبع مناطق استفادت من الموقف على غير توقع، ومن بينها تلك المنطقة الواقعة على الجانب الآخر من جسر التردد التى ما لبثتْ أن أصبحت حى المتعة الخاص بنا. فقبل خطوط الترام الجديدة ما كان هناك سوى عدد قليل من الشوارع الخلفية المملة تصطف على جانبيها منازل تغطى أسطحها ألواح خشبية متداخلة، ولم تكن تُعد حى فى حد ذاتها فكان المرء يعين موقعها بـــ "شرق فوروكاما". وعلى جانب آخر أتاحت دورة الترام الجديدة للمسافرين – الذين ينزلون عند آخر محطة بفوروكاما -- بلوغ وسط المدينة بصورة أسرع سيرًا على الأقدام بدلاً من القيام برحلة ثانية غير مباشرة بالترام مما نتج عنه تدفق مباغت من البشر المارين بالمنطقة. فإذا بحفنة الحانات الموجودة هناك من قبل تزدهر بعد أن كانت تقد

إليها أعداد متوسطة من الزبائن لمدة سنوات فى حين اُفتتحت حانات أخرى الواحدة تلو الأخرى.

عُرفتْ الميجي–هيدارى فى ذاك الوقت باسم "حانة ياماجاتا" – متخذة اسم مالكها، وهو جندى محنك عجوز – وكانت أقدم حانة فى المنطقة. كانت أيامها مكانًا مثقلاً بالملل غير أنى ترددت عليها بانتظام على مدار السنين منذ أول مجيئى إلى المدينة. أذكر أنه لم تنصرم أشهر قلائل على وصول خطوط الترام حتى فطن ياماجاتا إلى ما يطرأ حوله ومضى يصيغ أفكاره. ومع الشروع فى جعل المنطقة حى كامل لاحتساء المشروبات، كان من الطبيعى أن تصبح منشأته بمثابة الراعى الأكبر للمنشئات المحلية بحكم كونها الأقدم وموقعها عند نقطة تقاطع ثلاثة شوارع. وعلى ضوء هذا، كما فطن ياماجاتا، أخذ على عاتقه توسعة حانته وإعادة افتتاحها افتتاحًا فخمًا. كان التاجر فى الطابق العلوى على استعداد لبيع محله، فتمكن ياماجاتا من جمع المال اللازم من غير مشقة. وكان الحجر العثرة الأساسى فى سبيل منشأته والمنطقة بأسرها هى موقف سلطات المدينة.

لا مراء أن ياماجاتا كان على صواب فى هذا الصدد. فقد جرى هذا عام ١٩٣٣ أو ١٩٣٤ – فى وقت غير محتمل فيه التفكير فى إنشاء حى جديد للمتعة كما قد تتذكر. إذ كانت السلطات تطبق سياسات متشددة لكبح جماح الجانب الأكثر عبثًا من حياة المدينة، والحقيقة أن العديد من المنشئات الأكثر انحلالاً بوسط المدينة كانت بسبيلها إلى الإغلاق. وفى أول الأمر لم أستمع إلى أفكار ياماجاتا

بالكثير من العطف لكن عندما أنبأني بالضبط بنوعية المكان المرتسم في مخيلته تولاني الانبهار ووعدته ببذل كل المساعي لمؤازرته.

أعتقد أني ذكرت من قبل أني لعبت دورًا صغيرًا في إخراج حانة الميجي-هيداري إلى الوجود. ولأني لست بالقطع رجلاً ذا ثراء، ما وسعني القيام بشيء على المستوى المادي. على أنه بحلول هذا الوقت كانت سمعتي في المدينة قد تنامت جزئيًا؛ أذكر أنني لم أكن قد عملت بعد في لجنة الفنون بوزارة الخارجية لكن كانت لدي هناك صلات شخصية عديدة وكنتُ بالفعل مستشارًا للجنة في الشئون السياسية. وهكذا امتاز طلبي المقدَم آنذاك إلى السلطات بالنيابة عن ياماجاتا بثقل ما.

شرحتُ الموقف كالآتي: "ينتوي المالك أن تصير المنشأة المقترَحة احتفالاً بالروح الوطنية الجديدة الناشئة باليابان في الوقت الراهن. سوف يعكس الديكور الروح الجديدة، وأي زبون ستتعارض آراؤه مع تلك الروح سيدُفع بحزم إلى الرحيل، كما أن المالك ماضي العزم على أن تكون المنشأة ملتقى فناني المدينة وكُتابهم ومكان شربهم، الفنانون والكُتاب الذين تعكس أعمالهم الروح الجديدة إلى أبعد مدى. وبخصوص تلك النقطة الأخيرة أنا شخصيًا ضمنت تأييد مختلف زملائي ومن بينهم الرسام ماسايوكي هارادا والكاتب المسرحي ميسومي والصحفيين شيجيو أوتسوجي وإجي ناستوكي – وجميعهم كما ستعلمون أبدعوا أعمالاً متناهية الإخلاص لعظمة الإمبراطور."

توالى حديثى فأوضحتُ أن مثل هذه المنشأة ستكون وسيلة مثالية لضمان سيادة اتجاه عام مرغوب فيه بالحى إذا ما أخذنا فى الاعتبار مكانتها المرموقة بالحى.

وحذرتُ: "وإلا سنواجه للأسف نمو حى آخر يتصف بنفس الانحطاط الذى نبذل قصارى جهدنا لمحاربته والذى نعلم أنه ينهك نسيج ثقافتنا."

لم تكتف السلطات بمجرد قبول الطلب لكنها استجابت بحماس أذهلنى. أخالها أحد تلك الشواهد التى تلفت انتباه المرء إلى تبوؤه مكانة أسمى مما يتصور. لكنى لم أكن قط ممن يعبأون بالاعتبارات الاجتماعية، فهذا لم يكن السبب وراء بالغ الرضا الشخصى الذى غمرنى بعد افتتاح الميجي–هيداري؛ كنتُ بالأحرى فخورًا لأنى أشهد تأييد فكرة كنتُ أدافع عنها منذ فترة من الوقت – وهى أن روح اليابان الجديدة لا تقف على النقيض من استمتاع المرء بوقته؛ بمعنى أنه ليس هناك ما يدعو إلى أن يتلازم البحث عن المتعة مع الانحلال.

وهكذا وبعد حوالى سنتين ونصف من تشغيل خطوط الترام الجديدة، تم افتتاح الميجي–هيدارى. فجاءت التجديدات بارعة وامتدت على نطاق واسع حتى إن أى شخص يمرق من هذا الطريق بعد أن يشمله الظلام لن يعجز عن ملاحظة تلك الواجهة ساطعة الإنارة بمشكاواتها المتعددة، الكبيرة منها والصغيرة، التى تتعلق بطول الجملون تحت الأفاريز وتنتظم فى صفوف بموازاة أفاريز النافذة وفوق المدخل الرئيسي؛ ثمة أيضًا لافتة ضخمة مضيئة تتدلى من

الرافدة وتحمل الاسم الجديد للمبنى على خلفية من أحذية الجيش التى تتقدم إلى الأمام فى أحد التشكيلات.

عقب الافتتاح بفترة وجيزة اصطحبنى ياماجاتا إلى الداخل فى إحدى الأمسيات وطلب منى أن أختار مائدتى المفضلة ثم أعلن أنها منذ ذلك الحين فصاعدًا محجوزة لاستخدامى الخاص. أتصور أن ذلك كان فى المقام الأول اعترافًا بما أسديته إليه من خدمة صغيرة لكن لا ريب أنى كنت دومًا من أحسن زبائن ياماجاتا.

الواقع أنى ارتدت حانة ياماجاتا لمدة تربو على العشرين سنة قبل تحولها إلى الميجي–هيدارى. لم يكن ذلك حقيقة اختيارًا متعمدًا من جانبى – فقد كان المكان حسبما قلت مكانًا عاديًا – إلا أنه فى مستهل مجيئى إلى المدينة كشاب، عشت فى فوروكاما واتفق أن كان محل ياماجاتا قريبًا منى.

لعله يشق عليك تخيل مدى قبح فوروكاما يومذاك. والحق أنك لو كنت قريب العهد بالمدينة، فحديثى عن منطقة فوروكاما قد يستحضر إلى ذهنك المتنزه القائم هناك اليوم وشجر الخوخ المشهورة به. لكنى لمّا وفدت فى البداية إلى هذه المدينة عام ١٩١٣، كانت المنطقة تزخر بالمصانع والمخازن الخاصة بالشركات الصغيرة التى هجرها أكثرية مُلاكها أو حل بها الخراب. كانت المنازل قديمة بالية وعليه فالأهالى الذين سكنوا فوروكاما هم مَن لا يستطيعون تحمل سوى الإيجارات المنخفضة.

كان منزلى عبارة عن حجرة علوية ضيقة تعتلى مسكن عجوز تعيش مع ابنها الأعزب، وكان غير ملائم بالمرة لاحتياجاتى. فالكهرباء لم تكن متوافرة فى المنزل، وكنتُ اضطر إلى أن أرسم تحت ضوء مصباح زيتي؛ بالكاد وجدتُ مساحة كافية لإقامة حامل الرسم؛ كما أنى لم أقدر أن أتلافى طرطشة الجدران والحصيرة بالألوان؛ وطالما أيقظتُ العجوز وابنها أثناء عملى ليلاً؛ أما أشد ما أغاظنى هو أن سقف الحجرة كان شديد الانخفاض مما حال دون وقوفى معتدلاً، لذا كنتُ كثيرًا ما أعمل بالساعات وظهرى نصف منحن مرتطمًا برأسى فى الروافد باستمرار. إلا أنى كنت أيامها فى غاية السعادة لأن شركة تاكيدا وظفتنى ولأنى أكسب رزقى كفنان حتى إنى لم أعر هذه الأحوال التعسة اهتمامًا كبيرًا.

لم أكن بطبيعة الحال أعمل بحجرتى خلال النهار بل فى "أستوديو" الأستاذ تاكيدا الذى كان أيضًا فى فوروكاما. والأستوديو يتكون من حجرة طويلة تقع فوق مطعم – جد طويلة بما يكفى لوضع حوامل خمسة عشر رسامًا كلها فى صف واحد. ورغم أن السقف كان أكثر ارتفاعًا من سقف حجرتى العلوية، هبط أوسطه هبوطًا حادًا، لذا متى دخلنا الحجرة، كنا دائمى المزاح بأن السقف انخفض عدة سنتيمترات إضافية عن اليوم السابق. كانت هناك نوافذ بطول الحجرة لتمدنا بضوء مناسب للعمل كما هو مفترض؛ إلا أنه، وبطريقة ما، لم تكن دومًا أشعة الشمس الهابطة بالغة السطوع مما أضفى على الحجرة مظهر أشبه بكبينة السفينة. كانت مشكلة المكان

الأخرى هى أن صاحب المطعم الكائن فى الطابق الأسفل لم يسمح لنا بالبقاء فى الحجرة بعد السادسة مساء عندما يبدأ زبائنه فى المجيء. كان يتذمر: "تبدو أصواتكم بأعلى أشبه بقطيع الماشية". وبالتالى لا يترك لنا خيارًا سوى استئناف العمل بمنازلنا.

ربما على أن أوضح أنه لم تتهيأ لنا الفرصة لتكملة برنامجنا بدون العمل مساء. فقد كانت شركة تاكيدا تفخر بقدرتها على تجهيز عدد كبير من اللوحات بعد إشعار قصير؛ والواقع أن الأستاذ تاكيدا أبلغنا أننا لو فشلنا فى الالتزام بالموعد النهائى فى الوقت المحدد لمغادرة السفينة الميناء، فما أسرع ما سنخسر أعمالنا مستقبلاً لصالح الشركات المنافسة. وهكذا عملنا ساعات أشد ما تكون إنهاكًا حتى وقت متأخر من الليل، وبرغم ذلك كان الذنب يلسعنا فى اليوم التالى لتأخرنا عن البرنامج. ومع اقتراب موعد التسليم النهائى، كنا كثيرًا ما نعتاد على الاكتفاء بالنوم ساعتين أو ثلاث ساعات كل ليلة والرسم على مدار اليوم. وأحيانًا إن جاءت عدة مهمات الواحدة تلو الأخرى، تدور علينا الأيام ونحن مصابون بالدوخة من فرط الإرهاق. ولكن برغم ذلك لا يحضرنى مطلقًا أننا فشلنا فى تتمة أية مهمة فى الميعاد المحدد مما يدل، على ما أظن، على إحكام الأستاذ تاكيدا سيطرته علينا.

عقب عملى مع الأستاذ تاكيدا بنحو السنة، التحق بالشركة فنان جديد، ياسونارى ناكاهارا، اسم أشك فى أن يعنى لك الكثير. فلا يوجد حقيقة سبب يدعوك إلى أن تصادف الاسم بما أنه لم يحقق شهرة من

أى نوع. فأقصى ما آل إليه هو وظيفة مدرس رسم فى مدرسة ثانوية بمقاطعة يوياما قبل الحرب بعدة سنوات – وظيفة ظل يشغلها حتى الآن كما قيل لى، إذ لم تجد السلطات ما يدفعها إلى فصله كما فعلت مع العديد من نظرائه المدرسين. أنا عن نفسى أتذكره دائمًا باسم "السلحفاة"، اسم أطلقناه عليه أيامها فى شركة تاكيدا، وكنتُ استخدمه بمودة خلال فترة صداقتنا.

ما زالت فى حوزتى لوحة رسمها السلحفاة – لوحة ذاتية رسمها بعد فترة قصيرة من تركه العمل بشركة تاكيدا. تعكس اللوحة شابًا نحيلاً يلبس نظارة وقميصًا فى حجرة ضيقة ظليلة، تحف به الحوامل وقطع الأثاث المتداعية وقد انطرح الضوء المنبعث من النافذة على جانب واحد من وجهه. والجدية والخجل المرتسمان على وجهه يتناسبان بالقطع مع الرجل الذى أذكره، فقد تحلى السلحفاة ببالغ الصدق فى هذا الصدد؛ فبالنظر إلى اللوحة، قد تخاله من نوعية الأشخاص الذين بإمكانك دفعهم جانبًا بكل ثقة للفوز بكرسى شاغر بالترام. لكن يبدو أن لكل منا تصوراته الخاصة: فإن كان حياء السلحفاة منعه من إخفاء طبعه الخجول، فلم يحول دون أن ينسب إلى روحه مظهرًا فكريًا يتسم بالشموخ – الأمر الذى أنا عن نفسى لا أذكره فيه. لكن من الإنصاف أن أقول إن ذاكرتى لا تعى أى زميل تمكن من رسم لوحة ذاتية بنزاهة مطلقة؛ فمهما بلغتْ دقة الفنان فى ملء تفاصيل المظهر الخارجى لانعكاس صورته فى المرآة، فلما تقترب الشخصية المقدَمة من الحقيقة التى يبصرها الآخرون.

. اكتسب السلحفاة هذا اللقب عند التحاقه بالشركة، ففى غمرة انهماكنا فى مهمة مشحونة جعل ينتج لوحتين أو ثلاث لوحات لا غير فى الوقت الذى أكمل بقيتنا ست لوحات أو سبعًا. فى البداية رددنا بطئه إلى غرارته وما استخدمنا اللقب إلا من وراء ظهره غير أنه بمرور الأسابيع وعدم تحسن معدل سرعته، ازدادت السخرية منه. وما لبث أن أمسى مألوفًا أن يناديه الناس بـــ "السلحفاة" فى وجهه. وعلى الرغم من إدراكه الكامل أن اللقب ليس محبة فيه، أذكر أنه حاول قصارى جهده ليتقبله كما لو كان كذلك. فمثلاً إذا نادى شخص عبر الحجرة الطويلة قائلاً: "يا سلحفاة أما زلت ترسم البتلة التى شرعتَ فيها الأسبوع الفائت؟" كان يجاهد كى يضحك وكأنه يشاركه الدعابة. أذكر أن زملائى كثيرًا ما أرجعوا عجزه الواضح عن الدفاع عن كرامته إلى أنه قادم من حى نيجيشي؛ ففى تلك الأيام – كما هو الحال اليوم – عمت خرافة بها شيء من الظلم؛ وهى أن الوافدين من تلك المنطقة من المدينة نشأوا واهنين ضعفاء على نحو يتعذر تغييره.

أذكر أن غادر الأستاذ تاكيدا الغرفة وهلة فى صبيحة أحد الأيام، فأقبل بعدها اثنان من زملائى إلى حامل السلحفاة واحتجا على بطئه. وكان حاملى يقف على بعد يسير من حامله، ومن ثم وسعنى أن أشاهد بوضوح ما علا وجهه من تعبير عصبى حين أجابهما:

"أرجوكما أن تصبرا على. فأمنية حياتى أن أتعلم منكم – أنتم زملائى المهرة – كيفية إنتاج عمل عالى الجودة بسرعة كبيرة. فأنا ما ادخرت وسعًا فى هذه الأسابيع المنقضية لكى أرسم على نحو

أسرع لكنى للأسف اضطررت إلى ترك العديد من اللوحات ذلك أن افتقار الجودة بفعل تسرعى سيلحق الخزى بما ارتضته شركتنا من مقاييس رفيعة. لكنى سآتى بكل ما فى طاقتى حتى أحسن منزلتى الهزيلة فى نظركما. أرجوكما اغفرا لى وتحليا بالمزيد من الصبر."

كرر السلحفاة هذا الالتماس مرتين أو ثلاث مرات فيما واصل معذباه سبابهما متهمين إياه بالكسل والركون إلى بقيتنا للقيام بنصيبه فى العمل. وفى هذه الأثناء توقف معظمنا عن الرسم وتجمعنا حولهم. وبعدما طفق متهما السلحفاة يسبانه بكلمات لا حد لقسوتها ولما أدركتُ أن بقية زملائى لن يقدموا على أى شيء سوى الفرجة بنوع من التشويق، عند ذاك تقدمتُ إليهما قائلاً:

"كفى! ألا تدركان أنكما تتحدثان مع شخص أمين فنيًا؟ لو أبى الفنان التضحية بالجودة فى سبيل السرعة، فذلك أذن أمر يوجب الاحترام من قِبلنا جميعًا. وقد أصبحتما أحمقين إن لم يكن بمقدوركما إدراك هذا."

مر ولا شك على هذا الموقف زمن طويل الآن وليس بإمكانى أن أجزم أن تلك هى بالضبط عين كلماتى فى ذاك الصباح على أنى تحدثت بمثل هذا الأسلوب بالنيابة عن السلحفاة، وأنا على يقين من هذا؛ لأنى أستطيع أن أستحضر بوضوح ما بان على وجه السلحفاة من علامات امتنان وراحة عندما تحول إلى، كما أذكر عيون الحاضرين الشاخصة وقد ران عليها العجب. أنا شخصيًا حصلت

على احترام جم بين زملائى – فقد كان إنتاجى غير قابل للتحدى من حيث الجودة والكمية – وأظن أن تدخلى أنهى محنة السلحفاة على الأقل لبقية ذلك الصباح.

ربما تخالونى أبالغ فى نسب الفضل لنفسى بروايتى لهذه الحادثة البسيطة؛ فالقضية التى عالجتُها فى دفاعى عن السلحفاة تتراءى برغم كل شيء غاية فى الجلاء – قضية قد تخالها ستتبادر للتو إلى ذهن أى شخص يكن احترامًا للفن الجاد. إلا أنه من الضرورى تذكر مناخ شركة الأستاذ تاكيدا أيامها – فقد استحوذ علينا إحساس بأننا جميعًا نقاتل الوقت من أجل الحفاظ على سمعة الشركة التى اكتسبتْها بعناء. كنا كذلك على دراية كاملة بأن المرمى الأساسى من نوعية اللوحات التى نُكلف برسمها – فتيات الجيشا، شجر الكرز، أسماك الشبوط العائمة، المعابد – هو أن تبدو "يابانية" فى أعين الأجانب التى تُشحن إليهم وأنه من المرجح ألا يلاحظوا الجوانب الرفيعة للأسلوب الفنى. لذا لا أحسبنى أدعى فضلاً لا أستحقه لنفسى الشابة إذا أشرت إلى أن ما قمت به يومذاك هو تجل لصفة نلت عنها احترامًا جمًا خلال السنين المنصرمة – وهى القدرة على التفكير والحكم بنفسى على القضايا حتى وإن عنى ذلك العوم ضد التيار السائد حولى. وتظل الحقيقة التى لا ريب فيها أنى كنت المدافع الوحيد عن السلحفاة صباحها.

على الرغم أن السلحفاة تمكن من شكرى لما قمتُ به من تدخل بسيط ومساعدات لاحقة، تسارع معدل العمل أيامها وانقضى بعض

الوقت قبل أن أستطيع أن أُجرى حديثًا مستفيضًا حميمًا معه. أعتقد فى الواقع أنه قد ولى شهران منذ الواقعة التي حكيتها قبل أن يصيب الخمود أخيرًا برنامج عملنا المهتاج. كنتُ أتمشى فى الأرض المحيطة بمعبد تاماجاوا كما كنتُ أفعل كثيرًا عندما يتسع الوقت، فتبينتُ السلحفاة جالسًا على مقعد تُتوجه أشعة الشمس وقد لاح لى نائمًا.

ما زلت شديد الإعجاب بأرض تاماجاوا، وأنا أتفق مع القائلين أن السياج وصفوف الأشجار الناهضة هناك اليوم قد تساعد حقًا على إضفاء جو أكثر تماشيًا مع مكان العبادة. لكنى كلما قصدت المكان الآن، ألفى نفسى وقد شملنى الحنين إلى أرض تاماجاوا كما كانت فيما خلا. ففى تلك الأيام – قبل وضع السياج وزراعة الأشجار – كانت الأرض تلوح أكثر اتساعًا وإتراعًا بالحياة؛ كان الامتداد الأخضر المفتوح مترامى الأطراف، ترى به أكشاكًا لبيع الحلوى والبالونات واستعراضات ثانوية للمشعوذين والسحرة؛ أذكر أن أرض تاماجاوا كانت أيضًا مكانًا لالتقاط الصور الفوتوغرافية، فأينما تولى وجهك تجد مصورًا يرابط فى كشكه مرتديًا عباءته السوداء وبصحبته حامل الكاميرا ثلاثى القوائم. التقيت بالسلحفاة في ظهيرة أحد أيام الآحاد ببداية الربيع، كانت كل الأماكن تنشط بحركة الآباء والأطفال. استيقظ السلحفاة مجفلاً حين تقدمتُ إليه وجلستُ بجانبه.

هتف ووجهه يشرق: "ياه، السيد أونو! يا لحسن طالعى أن أراك اليوم. ياه، منذ لحظة بالضبط كنتُ أقول لروحى إنه لو توفر معى فقط القليل من المال، كنتُ سأشترى هدية للسيد أونو تعبيرًا عن

عرفانى بجميل عطفه على إلا أنى لا أقدر فى الوقت الحالى أن أشترى سوى هدية رخيصة مما سيعد إهانة لك. لذا اسمح لى حاليًا يا سيد أونو أن أشكرك فقط من صميم قلبى على كل ما فعلتَه من أجلى."

"ما فعلتُ شيئًا ذا بال. كل ما فى المسألة أنى عبرت عن رأيى بأمانة عدة مرات."

"أنا أصدقك القول يا سيد أونو، الرجال أمثالك أصبحوا نادرين للغاية. إنه شرف لى أن أكون زميلاً لمثلك. ومهما تفرقتْ بنا السبل فى المستقبل، سوف أتذكر على الدوام كرمك معى."

أذكر أنه تعين على الاستماع إلى إطرائه على شجاعتى ونزاهتى بضعٍ لحظات أخرى ثم قلت: "كنتُ أعتزم التحدث إليك منذ فترة. فقد كنت أتدبر بعض الأمور وأفكر فى ترك العمل عند الأستاذ تاكيدا فى المستقبل القريب."

حدجنى السلحفاة بنظرة مشدوهة ثم تلفت حوله بطريقة باعثة على الضحك وكأنه خائف من أن يكون أحدهم سمعنى مصادفة.

واصلتُ الحديث: "لقد حالفنى الكثير من الحظ، إذ حاز عملى على اهتمام الرسام ومصمم الصور المطبوعة سيجى موريياما. سمعتَ عنه لا مراء؟"

رد على السلحفاة بهزة من رأسه فى حين ظل يرمقنى بنظراته.

"إن السيد موريياما فنان *أصيل* وأغلب الظن أنه فنان عظيم. وقد كان الحظ حليفى أن حظيت باهتمامه ونصيحته. والواقع أنه يرى أن بقائى مع الأستاذ تاكيدا سيلحق بمواهبى أذى يستعصى إصلاحه، وقد دعانى إلى أن أصير تلميذه."

"أحقًا؟" تساءل رفيقى بلسان حذر.

"وتعرف؟ وأنا أتجول فى المتنزه منذ لحظات، كنتُ أتفكر فى قرارة نفسى أن السيد موريياما لا شك على صواب مائة فى المائة. فلا بأس أن يكدح بقية حمير الشغل هؤلاء تحت إمرة الأستاذ تاكيدا لكسب قوتهم لكن يتعين علينا – نحن ذوو الطموحات الجادة – أن نتجه بأبصارنا إلى مكان آخر."

فى تلك اللحظة رنوت إلى السلحفاة بنظرة ذات مغزى، وما انفك هو يتفرس فى وقد داخل تعبير وجهه نظرة حائرة.

"أخشى أنى سمحت لنفسى أن أنوه بك للسيد موريياما. والحق أنى صرحت بأنك تمثل حالة استثنائية بين الزملاء الحاليين. فأنت وحدك تنعم بموهبة صادقة وطموحات جادة."

"حسبك يا سيد أونو" – ثم انفجر فى الضحك – "كيف يتأتى لك قول هذا؟ أعلم أنك تريد أن تتلاطف معى إلا أن هذا زائد عن الحد."

استطردتُ: "لقد صدقتْ نيتى على قبول عرض السيد موريياما الكريم وأنا أحثك على أن تسمح لى بعرض أعمالك عليه، فربما يسعفك الحظ ويدعوك أنت أيضًا لتكون تلميذه."

نظر السلحفاة إلى والانزعاج يكسو وجهه.

"لكن يا سيد أونو، ماذا تقول؟" نبس بصوت خافت النبرات. "وظفنى الأستاذ تاكيدا لديه بناء على توصية من أحد معارف أبى المحترمين. وقد أظهر فى الحقيقة تسامحًا كبيرًا معى برغم كل مشكلاتى. كيف أخونه بتركه بعد عدة شهور فقط؟" ثم بدا وكأن السلحفاة أدرك فجأة فحوى كلماته، فأردف سريعًا: "أنا لا ألمح يا سيد أونو بالقطع *أنك* غير مخلص بأى حال من الأحوال. فالظروف فى حالتك مختلفة. أنا لا أجرؤ أن..." تضاءل صوته ليتحول إلى قهقهة مرتبكة ثم جاهد ليسترد رباطة جأشه: "أنت جاد يا سيد أونو بشأن ترك الأستاذ تاكيدا؟"

"أنا أرى أن الأستاذ تاكيدا لا يستحق ولاء مَن هم مثلك ومثلى. فالولاء لا بد من اكتسابه، فهو ليس كلمة بسيطة. ما أكثر أن يتكلم الرجال عن الولاء ليحذوا حذو غيرهم بعيون عمياء. أنا عن نفسى لا أريد أن أقود زمام حياتى بهذا الأسلوب."

قد لا تكون تلك الكلمات بالطبع هى عين كلماتى فى تلك الظهيرة بمعبد تاماجاوا؛ فقد حكيت هذا المشهد بالذات عدة مرات من قبل، ومن المحتم أن مثل تلك الروايات تبدأ مع الحكي المتكرر فى اتخاذ حياة مستقلة بها. لكن حتى لو لم أُعبر عن نفسى يومئذ بهذه البلاغة منقطعة النظير أمام السلحفاة، أظن أنه يمكن افتراض أن ما نسبتُه لنفسى للتو من كلمات يمثل حقًا بدقة كافية موقفى وعزمى فى تلك المرحلة من حياتى.

وقد اتفق أنى اضطررت أن أحكى قصص تلك الأيام بشركة تاكيدا وأعيد حكيها حول تلك المائدة بالميجي-هيداري؛ الظاهر أن تلاميذى اشتركوا فى الافتتان بسماع الحكايات عن باكورة سيرتى - ربما لأنهم اهتموا طبعًا بمعرفة ما كان يصنعه مدرسهم لمّا كان فى سنهم. على أية حال كانت أيامى مع الأستاذ تاكيدا مثارًا لأحاديث متكررة خلال تلك الأمسيات.

أذكر أنى قلت لهم ذات مرة: "لم تكن تجربة سيئة. فقد تعلمتُ منها بعض الأشياء الهامة."

"معذرة يا معلم" - أعتقد أنه كورودا الذى مال على المائدة ليقول: "يشق على تصديق أن مكانًا مثل الذى تصفه يمكنه أن يعلم فنانًا أى شيء نافع مهما كان."

اتفق صوت آخر: "أجل يا معلم، أخبرنا حقًا ما الذى يمكن لهذا المكان أن يعلمه إياك بأية حال، فهو أشبه بشركة تنتج علب الكرتون."

هكذا صار الحال فى الميجي-هيدارى. قد أكون مشغولاً بالحديث مع أحدهم والآخرون يتكلمون فيما بينهم، وفور توجيه سؤال مشوق إلى، يقطعون جميعًا أحاديثهم لأواجَه بدائرة من الوجوه تنتظر ردى، كأنهم لا يتخاطبون البتة بدون استراق السمع إلى أية معلومة قد أفصح عنها. وهذا لا يعنى أنهم لا يتمتعون بحس نقدي؛ على العكس تمامًا، كانوا مجموعة متقدة الذكاء من الشباب ولا يجرؤ أحد أن يقول أى شيء قبل التفكير فيه أولاً.

أجبته: "لقد لقنتنى شركة تاكيدا درسًا مهمًا فى مقتبل عمرى: فعلى الرغم أن إجلال المعلمين واجب، من المهم دومًا التشكيك فى سلطاتهم. علمتنى تجربة تاكيدا ألا أتبع أبدًا القطيع اتباعًا أعمى وأن أدرس مليًا الاتجاه الذى أُدفع إليه. وإن كانت هناك مسألة واحدة حاولتُ تشجيعكم عليها، فهى أن تعلوا فوق الموجة، أن تعلوا فوق المؤثرات المتفسخة المرفوضة التى أغرقتنا وساهمتْ بالكثير فى إضعاف نسيج أمتنا خلال العشر أو الخمس عشرة سنة الماضية". لا شك أنى كنت مخمورًا قليلاً وبدوت متكلف العظمة إلى حد ما لكن هكذا دارت تلك الجلسات حول المائدة الكائنة فى الركن.

قال أحدهم: "بالفعل يا معلم، يجب ألا يطوى النسيان ذلك، يجب أن نسعى جميعًا إلى أن نعلو فوق الموجة."

أردفتُ: "أخالنا هنا حول هذه المائدة يحق لنا أن نفخر بأنفسنا. فقد تفشى التنافر والعبث حولنا. بيد أن هناك روحًا أروع وأشجع تبزغ الآن فى اليابان وأنتم هنا تمثلون جزءًا منها. أتمنى حقيقة أن تواصلوا المسيرة ليعترف العالم بكم كرأس حربة للروح الجديدة، وليس أقل من ذلك. ولا مراء أن..." – عند هذه النقطة لم أكن أخاطب الجلوس إلى المائدة فحسب بل كل المستمعين القريبين – "لا مراء أن منشأتنا هذه التى تضمنا لبرهان على الروح الجديدة الناشئة وجميعنا هنا لنا الحق فى أن نزهو فخرًا."

كثيرًا ما تزاحم الغرباء حول مائدتنا عند ازدياد بهجة الشرب ليشاركونا الجدل والخطب أو لمجرد الإنصات والتغلغل فى جو المكان. وكان تلاميذى بوجه عام على استعداد تام للاستماع إلى

الغرباء، لكن فى حالة تطفل شخص ثقيل الظل أو حامل لأفكار كريهة، كانوا يسارعون بلفظه على الفور. ورغم الصراخ وإلقاء الخطب حتى ساعة متأخرة من الليل، ندرت المشاحنات الحقيقية فى الميجي-هيدارى، ذلك لأننا، نحن المختلفون إلى ذلك المكان، اتحدنا حول ذات الروح الجوهرية؛ أى أن المنشأة أثبتت أنها كل ما تمناه ياماجاتا؛ إذ قدمتْ شيئًا جميلاً، وكان بمقدور المرء احتساء المشروبات هناك في جو من الكبرياء والوقار.

أحتفظ فى مكان ما بالمنزل بلوحة رسمها كورودا، ألمع تلاميذى موهبة. تصور اللوحة إحدى تلك الأمسيات بالميجي-هيدارى، واسمها: "الروح الوطنية"، اسم قد يحملك على توقع عمل يصف تقدم الجنود أو شيء من هذا القبيل. لا ريب أن كورودا قصد أن يقول إن الروح الوطنية قد بدأتْ فى مكان ما قبل ذلك بكثير، فى عادات حياتنا اليومية، فى أمور مثل مكان شربنا والمخالطين لنا. فكانت اللوحة إجلالاً منه لروح الميجي-هيدارى، إذ كان يؤمن وقتها بتلك الأفكار. واللوحة المرسومة بالزيت تصور موائد عديدة وتستوحى الكثير من لون المكان وديكوره – وكان أشد ما لفت النظر قيما استوحته اللافتات والشعارات الوطنية المتدلية من درابزين الشرفة العلوية، وبها تجمع الضيوف حول الموائد وهم يخوضون فى الأحاديث على حين ظهرتْ فى المقدمة نادلة ترتدى الكيمونو وتسرع بصينية عليها المشروبات. إنها لوحة جميلة تأسر بدقة بالغة ما ساد الميجي-هيدارى من جو صاخب، وعلى صخبه كان يعبق بالعزة والاحترام. وكلما اتفق أن أتطلع إليها اليوم، لا يزايلنى الرضا عندما

أتذكر أنى شاركت بدور صغير فى إخراج هذا المكان إلى الوجود وذلك بما اكتسبته سمعتى من نفوذ فى المدينة.

كثيرًا ما أجد نفسى فى هذه الأيام مستغرقًا فى ذكريات الميجي-هيدارى والأيام الخالية أثناء جلوسى بحانة السيدة كاواكامى مساء. فمحل السيدة كاواكامى يطرأ عليه شيء غريب لمّا أكون وشينتارو الزبونين الوحيدين هناك، ثمة شيء غريب يطوقنا بالحنين عندما نجلس معًا إلى البار تحت تلك الأضواء المنخفضة. ربما رحنا نتكلم عن شخص عهدناه فى الماضى أو عن الكمية التى بمقدوره شربها أو عن سلوك مضحك عُرف به. ثم سرعان ما نحاول حث السيدة كاواكامى على تذكر الرجل، وفى خلال محاولاتنا لإنعاش ذاكرتها، نجدنا نتذكر المزيد والمزيد من التفاصيل المسلية عنه. منذ بضع ليال بعد أن ضحكنا من مثل هذه الذكريات، قالت السيدة كاواكامى كما تقول مرارًا فى هذه المواقف: "حسنًا، أنا لا أذكر اسمه لكنى متأكدة أنى سأتعرف وجهه."

قلت متذكرًا: "الحق أنه لم يكن أبدًا زبونًا حقيقيًا للمكان يا أوباسان. فقد داوم على الشرب فى حانة تقع عبر الشارع."

"آه أجل، فى الحانة الكبيرة. مع ذلك قد أتعرفه لو رأيته. لكن مَن يدرى حال الدنيا! الناس يتغيرون أيما تغيير. فمن حين لآخر تقع عيناى على أحد الأشخاص بالشارع وأظننى أعرفه وعلى أن أسلم عليه. لكنى أعيد النظر ويتطرق إلى ذاكرتى الشك."

قال شينتارو بدوره مقاطعًا: "آه يا أوباسان، منذ بضعة أيام بالضبط بادرتُ بتحية أحدهم في الشارع ظنًا منى أنى أعرفه لكن الواضح أن الرجل حسبنى مجنونًا، إذ ابتعد عنى دون أن يرد."

الظاهر أن شينتارو وجد هذه القصة قصة مسلية، إذ ارتفع صوته مغرقًا فى الضحك. ندت ابتسامة عن السيدة كاواكامى لكنها لم تشاركه ضحكه. تلفتت إلى قائلة:

"يجب يا معلم أن تحاول إقناع أصدقائك بالشروع فى العودة إلى هذه الأنحاء. وكلما نبصر وجهًا مألوفًا عرفناه فى تلك الأيام، لعلنا ينبغى حقًا أن نوقفه لنخبره أن يأتى هنا إلى هذا المكان الصغير. وهكذا نستطيع أن نبدأ فى إعادة الأيام الخالية إلى مجدها."

قلت: "يا لها من فكرة رائعة يا أوباسان، سأجربها وسأتذكر أن أنفذها. سأوقف الناس فى الشوارع قائلاً: أنا أتذكرك من زمان. اعتدت أن تكون زبونًا فى حينا. طيب، ربما تحسب أن المنطقة اختفت بأسرها لكنك مخطئ. فحانة السيدة كاواكامى ما تزال هناك مثلما كانت دائمًا، والأوضاع تعود ببطء إلى سالف عهدها."

قالت السيدة كاواكامى: "بالضبط يا معلم، أخبرهم أن الفرصة ستفوتهم، وعندها سيبدأ العمل فى التحسن. فبرغم كل شيء من واجب المعلم أن يُرجع الحشد القديم. فقد كان الجميع دائمى الإعجاب بالمعلم باعتباره القائد الطبيعى فى هذه الأرجاء."

قال شينتارو: "نقطة وجيهة يا أوباسان. ففي الأيام السالفة لو تشتتت قوات أحد القادة عقب معركة، لا يلبث أن يبدأ في حشدهم معًا مرة أخرى، والمعلم يقف في موقف مشابه."

"يا للهراء،" قلت ضاحكًا.

مضت السيدة كاواكامي تقول: "هو ذلك يا معلم، اعثر على كل الزبائن القدامى وقل لهم أن يعودوا. وبعد فترة وجيزة سأشترى المحل المجاور وسنفتتح محلاً ضخمًا عتيقًا، تمامًا مثل ذلك المحل الكبير الذى كان مقامًا فى الماضى."

ما برح شينتارو يقول: "فعلاً يا معلم. يتعين على القائد أن يحشد رجاله ثانية."

"فكرة شائقة يا أوباسان،" قلت بإيماءة من رأسى. "أوتدرين؟ كان الميجي-هيدارى مجرد مكان ضيق ذات يوم، ليس أكبر من هذا المكان، على أننا تمكننا فى الوقت المناسب من تحويله إلى ما كان عليه. طيب، ربما كل ما علينا هو أن نفعل نفس الشيء مجددًا مع محلك هذا. لقد استتبت الآن الأوضاع قليلاً ولا بد من عودة الزبائن."

قالت السيدة كاواكامى: "بإمكانك يا معلم أن تعيد كل أصدقائك الفنانين ولن يلبث رجال الصحافة أن يلحقوا بهم."

"فكرة شائقة. قد نستطيع تحقيقها على صعوبتها. إلا أنى أتساءل يا أوباسان، قد لا تستطيعين التعامل مع مثل ذلك المكان الكبير، نحن لا نريدك أن تخفقى."

"كلام فارغ،" قالت السيدة كاواكامى والاستياء يغلف وجهها. "إذا أسرعتَ يا معلم وقمتَ بدورك، سترى الكفاءة التى سيدار بها المحل."

دارت مثل هذه الأحاديث مرارًا وتكرارًا. ومَن سيقول إن الحى القديم لن يرجع إلى سابق عهده مجددًا؟ قد ينزع أمثال السيدة كاواكامى وأمثالى إلى إطلاق النكات حول الموضوع إلا أن شعاعًا من التفاؤل الجاد قبع وراء مزاحنا. "يتعين على القائد أن يحشد رجاله." ربما يتحتم عليه فعل هذا. ربما حين يستقر مستقبل نوريكو بشكل نهائى، سأولى خطط السيدة كاواكامى بعض التفكير الجاد.

أحسبنى أستطيع أن أشير هنا إلى أنى رأيت تلميذى الذى تبنيته فنيًا، كورودا، مرة واحدة فقط منذ نهاية الحرب. كانت صدفة محضة فى يوم مطير خلال أول عام من الاحتلال قبل تدمير الميجي-هيدارى وكل تلك المبانى الأخرى. كنتُ أسير فى مكان ما، أشق طريقى عبر ما تبقى من حى المتعة مسددًا بصرى من تحت الشمسية إلى تلك الهياكل الخربة. أذكر يومها أن بعض العمال كانوا يجولون فى المكان فلم أحفل فى البداية بالشخص الواقف يتطلع إلى أحد المبانى المحترقة. لم أع أن الشخص استدار وظل يراقبنى إلا عندما مررت بجواره. لزمت مكانى ونظرت حولى، ومن خلال المطر المتساقط على شمسيتى اجتاحتنى صدمة غريبة، فقد اعترض بصرى كورودا مسلط العينين على ووجهه خال من أى تعبير.

تبينتُ من تحت مظلته أنه يرتدى معطف مطر داكنًا فيما لم يعتمر قبعة فوق رأسه. تساقط المطر من المبانى المتفحمة الواقعة خلفه وتناثرت بالقرب منه كمية كبيرة من المطر بفعل بقية باقية من أحد المزاريب. أذكر أن شاحنة مليئة بعمال البناء عبرت بيننا. لاحظتُ أن إحدى دعامات شمسيته مكسورة مما أحدث مزيدًا من التناثر بجانب قدمه بالضبط.

أصبح وجه كورودا – الذى كان شديد الامتلاء قبل الحرب – مجوفًا حول عظام الخدين ولاحت خطوط عميقة عند الذقن والحلق. فقلت في سرى وأنا أقف هناك: "ما عاد شابًا."

حرك رأسه باستخفاف شديد. لم أكن متأكدًا ما إذا كانت تلك الحركة بداية انحناءة أم أنه يعدل رأسه فقط كى يبعد عن ماء المطر المتناثر من شمسيته المكسورة. بعدها استدار وابتعد فى الاتجاه الآخر.

بيد أنى لم أعتزم الإسهاب فى سيرة كورودا الآن. فهو بالفعل لم يكن ليتبادر إلى ذهنى مطلقًا لو لم يُطرح اسمه بلا توقع الشهر الماضى أثناء لقائى بالدكتور سايتو صدفة فى الترام.

حدث هذا بعد ظهيرة أحد الأيام عندما اصطحبتُ إشيرو أخيرًا لمشاهدة فلمه عن الوحش – رحلة حُرم منها فى اليوم السابق بسبب عناد نوريكو. الواقع أنى ذهبت منفردًا بحفيدى، فقد رفضتْ نوريكو المجيء وتطوعتْ سيتسوكو بالبقاء فى المنزل ثانية. كان هذا بالتأكيد

تصرفًا طفوليًا محضًا من جانب نوريكو إلا أن إشيرو كون تفسيره الخاص لتصرفات النساء. كنا جالسين يومذاك لتناول وجبة الغذاء حين طفق يقول:

"لن تجيء الخالة نوريكو ولا أمى. فالفلم مخيف جدًا للنساء. سيصيبهما رعب شديد، أليس كذلك يا أوجي؟"

"أجل، أظن هذا صحيح يا إشيرو."

"سيصيبهما رعب شديد. لن تستطيعى يا خالة نوريكو مشاهدة الفلم من شدة الخوف، أليس كذلك؟"

"أجل،" ردت نوريكو متصنعة وجهًا مذعورًا.

"حتى أوجى خائف. انظرى، يمكنك حتى أن ترى الخوف على وجه أوجى، وهو رجل."

وفى تلك الظهيرة بينما كنتُ أقف فى نهاية المدخل منتظرًا الذهاب إلى السينما، حضرتُ منظرًا عجيبًا بين إشيرو وأمه. كانت سيتسوكو تعقد رباط صندله ورأيته هو يحاول مرارًا أن يقول لها شيئًا. وكلما قالت له: "ما الأمر يا إشيرو، لا أسمعك،" كان يحدجها بعينين غاضبتين ثم يرمينى بنظرة سريعة ليرى إن كنتُ قد سمعته أم لا. وفى النهاية بمجرد أن ارتدى إشيرو الصندل، انحنت سيتسوكو ليهمس إشيرو فى أذنها. عندئذ أومأتْ إليه واختفت داخل المنزل لترجع بعد لحظة بمعطف واقى من المطر طوته وأعطته له.

"ليس من المحتمل أن تمطر،" علقتُ ملقيًا نظرة إلى الخارج إلى ما وراء المدخل الأمامي. كان بحق يومًا صحوًا بالخارج.

ردت سيتسوكو: "يريد إشيرو أن يأخذه رغم ذلك."

أصابني هذا الإلحاح على معطف المطر بالحيرة. لكن حالما خرجنا تحت أشعة الشمس ونزلنا التل باتجاه محطة الترام، لاحظتُ إشيرو وهو يختال في مشيته – وكأن المعطف المعلق على ذراعه حوّله لشخص أشبه بهمفري بوجارت – فاستنتجتُ أن ذلك كله تقليد لبطل من أبطاله الذين يظهرون بمجلات الأطفال المصورة.

كنا قد أشرفنا على بلوغ سفح التل عندما صرح إشيرو بصوت عال:

"كنتَ يا أوجي رسامًا مشهورًا."

"أظنك محقًا يا إشيرو."

"طلبتُ من الخالة نوريكو أن تريني لوحات أوجي لكنها رفضت."

"أ أ. كلها محفوظة في مكان بعيد في الوقت الحالي."

"خالتي نوريكو لا تسمع الكلام، أليس كذلك يا أوجي؟ قلتُ لها أن تريني لوحات أوجي. لماذا لا تريني إياها؟"

ضحكتُ وأجبته: "لا علم لي. ربما كانت مشغولة بشيء ما."

"هى لا تسمع الكلام."

أطلقتُ ضحكة أخرى وقلت: "أظن هذا يا إشيرو."

تبعد محطة الترام مسيرة عشر دقائق عن منزلنا؛ فنحن ننزل التل نحو النهر ثم نسلك طريقًا ضيقًا بمحاذاة السد الخرساني الجديد، ونلتقى الدائرة المتجهة نحو الشمال بالطريق وراء موقع المشروعات السكنية الجديدة بالضبط. وفى تلك الظهيرة المشمسة من الشهر المنصرم استقللت أنا وحفيدى الترام من هناك إلى وسط المدينة وقابلنا الدكتور سايتو فى تلك الرحلة.

أدرك أنى ما استفضت حتى الآن فى الكلام عن عائلة سايتو، العائلة التى ينهمك حاليًا ابنها الأكبر فى محادثات للزواج من نوريكو. وآل سايتو فى المجمل مرشح مختلف كل الاختلاف عن آل مياك الذين تعاملنا معهم السنة المنصرمة. لا ريب أن آل مياك عائلة مهذبة جدًا إلا أنها وبكل إنصاف لا يمكن وصفها بالوجيهة، فى حين أن عائلة سايتو وبلا أية مبالغة هى كذلك حقًا. ورغم أنى فى الواقع لم أتعرف إلى الدكتور سايتو كما ينبغى، كنتُ دومًا على دراية بنشاطاته فى عالم الفن. ولمدة سنوات كلما مررت به فى الشارع، كنا نتبادل التحية بأدب مسلمين بعلمنا بشهرة الآخر. إلا أن لقائى به الشهر الماضى اختلف بالقطع اختلافًا كليًا.

لا يزدحم الترام حتى يعبر النهر عند الجسر الصُلب المواجه لمحطة تانيباشى، وهكذا حينما ركب الدكتور سايتو الترام بعدنا

بمحطة، تمكن من الجلوس على كرسى شاغر بجوارى. بدأ حوارنا بالضرورة بالقليل من عدم الراحة، فالمفاوضات كانت تمر بمرحلة مبكرة حساسة، ولم يبد من اللائق مناقشتها علانية بيد أنه من السخافة التظاهر بعدم حدوثها. انتهى بنا الأمر إلى أن أثنينا على مزايا "صديقنا المشترك، السيد كيو" – الوسيط فى طلب الزواج – وقد علق الدكتور سايتو باسمًا: "فلنأمل أن تثمر مجهوداته عن لم شملنا فى القريب". كان هذا أقرب ما نبسنا به حول الموضوع. لم أتمالك أن ألحظ التناقض الواضح بين ثقة الدكتور سايتو في استجابته لهذا الموقف المحرج قليلاً والعصبية الخرقاء التى تعاملت بها عائلة مياك مع الأمور من البداية إلى النهاية فى العام الماضى. ومهما كانت النتيجة النهائية، تخامر المرء الطمأنينة بحق لتعامله مع أمثال عائلة سايتو.

وبعيدًا عن هذا الموضوع تحدثنا فى الأغلب عن أمور بسيطة. والدكتور سايتو رجل دافئ الأسلوب لطيف الشمائل، ولمّا انحنى ليسأل إشيرو عن مدى استمتاعه بزيارته وعن الفلم الذى نهم برؤيته، لم يُبد حفيدى أى مانع من الحديث معه.

"إنه ولد ممتاز،" خاطبنى الدكتور سايتو مطريًا عليه.

وقبل برهة من الوصول إلى محطته – كان بالفعل قد أعاد قبعته إلى رأسه – علق الدكتور سايتو قائلاً: "ثمة شخص آخر يعرفه كلانا، رجل اسمه السيد كورودا."

رنوت إليه بشيء من الإجفال وكررت على مسامعه: "السيد كورودا. آه، هو بلا شك نفس السيد الذى أشرفتُ عليه ذات مرة."

"صحيح. صادفتُه مؤخرًا واتفق أن ذكر اسمك."

"حقًا؟ لم ألقه منذ فترة. لا ريب أنى لم أره منذ اندلاع الحرب. كيف حال السيد كورودا هذه الأيام؟ ماذا يفعل الآن؟"

"أعتقد أنه على وشك أن يشغل وظيفة بكلية يوماشى الجديدة حيث سيُدرس الفن. وهكذا التقيت به، فقد تكرمتْ الكلية بدعوتى إلى تقديم توصياتى لمجلس التعيينات."

"آه، أى أنك لا تعرفه حق المعرفة."

"فى الواقع لا، إنما آمل أن أراه مستقبلاً."

"فعلاً؟ إذن ما زال السيد كورودا يتذكرنى. يا لطيبته."

"أجل، بالفعل. لقد ذكر اسمك عندما تصادف أن ناقشنا أمرًا ما. ومنا واتتنى الفرصة كى أتحدث معه بالتفصيل. لكن لو قابلتُه مرة ثانية، سأذكر له أنى رأيتك."

"آه، بالطبع."

كان الترام يمر بالجسر الصُلب عندما صدر عن العجلات رنين معدنى صاخب. كان إشيرو يجلس على ركبتيه ليتفرج من النافذة فأشار إلى شيء بالأسفل فى الماء. استدار الدكتور سايتو لينظر وتبادل كلمات معدودة مع إشيرو، ثم وقف عند اقتراب محطته

وألقى تلميحًا أخيرًا إلى "مجهودات السيد كيو" قبل أن ينحنى ويشق طريقه خارجًا.

وكما هى العادة تزاحم الكثير من الناس بالمحطة التالية للجسر ففقدتُ بقية الرحلة الكثير من الراحة. وعندما ترجلنا أمام السينما بالضبط، وسعنى رؤية الملصق البارز بصورة جلية فى المدخل. حقق حفيدى شبهًا قريبًا منه فى المخطط الذى رسمه منذ يومين وإن لم تكن هناك نار بالصورة؛ أما ما تذكره إشيرو فكان خطوط تأثير تشبه أشعة البرق رسمها الفنان ليشدد على ضراوة السحلية العملاقة.

دنا إشيرو من الملصق وانفجر ضاحكًا.

أشار إليه قائلاً: "سهل أن تدرك أنه وحش زائف. كل الناس يمكنهم اكتشاف ذلك. إنه مجرد تلفيق." ثم استأنف الضحك.

"من فضلك يا إشيرو لا تضحك بصوت عال. الكل يحملق إليك."

"لكنى لا أقدر أن أتمالك نفسى. فالوحش يبدو مصطنعًا جدًا. مَن سيخاف من مثل هذا الشيء؟"

بمجرد أن جلسنا بالداخل وبدأ الفلم، اكتشفتُ الغرض الحقيقى من معطف المطر. فبعد مرور عشر دقائق من الفلم سمعنا موسيقى تنذر بالخطر ولاح على الشاشة كهف مظلم يدوم حوله الضباب. همس إشيرو: "هذا ممل. ممكن تقول لى لمّا يحصل شيء مشوق؟" وبعدما قال ما قاله ألقى بمعطف المطر فوق رأسه. ارتفع الزئير بعد

لحظة وظهرتْ للعيان السحلية العملاقة من الكهف. كانت إحدى يدى إشيرو متشبثة بذراعى، وعندما ألقيت نظرة عليه، كانت يده الثانية قابضة على المعطف فى مكانه بإحكام شديد.

ما انفك حفيدى يغطى رأسه بالمعطف طوال الفلم تقريبًا. كان ذراعى يهتز فى بعض الأحيان ويرتفع صوت قادمًا من أسفل: "هل أصبح مشوقًا بعد؟" فاضطر حينئذ أن أصف هامسًا ما يدور على الشاشة إلى أن تظهر ثغرة صغيرة فى المعطف. لكن خلال دقائق وعند أقل إشارة إلى ظهور الوحش تنغلق الثغرة ويقول صوت: "هذا ممل. لا تنسى أن تخبرنى عندما يصبح مشوقًا."

مع ذلك كان إشيرو مشتعل الحماسة للفلم حين انتهينا إلى المنزل. واستمر يقول "أحلى فلم شاهدتُه فى حياتى". كان لا يزال يقص علينا روايته عن الفلم أثناء تناول العشاء.

"هل أقول لكِ ما جرى بعدها يا خالة نوريكو؟ فالفلم يزداد رعبًا. أقول لكِ؟"

"أنا مرعوبة يا إشيرو، بالكاد أستطيع أن آكل،" قالت نوريكو.

"حذار، بل إنه سيصبح أكثر إفزاعًا. هل أقول لك المزيد؟"

"آه، لست متأكدة. لقد أصبتنى بالفعل بالذعر."

لم أكن أنوى أن أثقل على مائدة العشاء بذكر الدكتور سايتو لكن لن يبدو طبيعيًا ألا أذكر لقاءنا أثناء حكيى لأحداث اليوم. لذا قلتُ

عندما توقف إشيرو هنيهة: "قابلتُ الدكتور سايتو فى الترام بالصدفة. كان مسافرًا إلى الشمال للقاء شخص ما."

عندما خرجتْ الكلمات من فمى، كفت ابنتاى عن الأكل ونظرتا إلى والدهشة تتوزعهما.

"لكننا لم نتطرق إلى مواضيع ذات شأن،" قلتُ ضاحكًا ضحكة خافتة. "حقًا، لقد تبادلنا المجاملات فحسب، هذا كل ما هنالك."

ظهر على ابنتى ما قام فى نفسيهما من عدم الاقتناع لكنهما طفقتا تتناولان الطعام ثانية. رمت نوريكو أختها الكبرى بنظرة تلاها صوت سيتسوكو: "أكان الدكتور سايتو بخير؟"

"بدا على ما يرام."

أكلنا فى هدوء برهة. ربما راح إشيرو يتحدث عن الفلم مجددًا. مهما يكن الأمر قلت بعدها بقليل أثناء الوجبة:

"وقع حدث غريب. اتضح أن الدكتور سايتو قابل أحد تلاميذى السابقين، وهو كورودا فى الواقع. البادى أن كورودا يشغل وظيفة فى الكلية الجديدة."

رفعتُ ناظرى عن سلطانيتى لأبصر ابنتى وقد عادتا إلى التوقف عن الأكل. كان من الواضح أنهما تبادلتا النظرات لتوهما، كانت هذه إحدى الحوادث التى جرت فى الشهر الماضى وأوقعتْ فى نفسى انطباعًا جليًا أنهما كانتا تناقشان موضوعات معينة خاصة بى.

حينما جلستُ أنا وابنتاى مرة أخرى إلى المائدة ليلتها كى نقرأ الجرائد والمجلات، أقلقتْ سكينتنا ضوضاء مكتومة مبهمة تتواتر من مكان ما بالمنزل. رفعتْ نوريكو عينيها وقد هالها الصوت إلا أن سيتسوكو أخبرتها:

"إنه إشيرو. هو يُحدث هذا الصوت عندما يجافيه النوم."

"مسكين يا إشيرو. أظنه لم يزل يحلم بالوحش. كان منتهى الأذى من أبى أن أخذه لرؤية مثل هذا الفلم."

"هراء. لقد استمتع به."

"أعتقد أن أبى هو الذى أراد مشاهدته، " قالت نوريكو لأختها وعلى وجهها تكشيرة. "مسكين يا إشيرو، جُررتَ لمثل هذا الفلم السيئ."

استدارت سيتسوكو إلى بنظرة يتخللها الإحراج وتمتمتْ: "كان أبى فى منتهى الطيبة أن اصطحب إشيرو."

"لكنه الآن لا يقوى على النوم،" قالت نوريكو. "سخف أن يأخذه لمثل هذا الفلم. لا، ابقى أنت يا سيتسوكو، سأذهب أنا."

تتبعتْ عينا سيتسوكو أختها وهى تمرق من الحجرة ثم قالت:

"تجيد نوريكو التعامل مع الأطفال. سوف يشتاق إشيرو إليها بعدما نرجع إلى البيت."

"أجل، بالفعل."

: "كانت دومًا ماهرة مع الأطفال. أتذكر يا أبى كيف اعتادت أن تلعب تلك الألعاب مع أطفال عائلة كينوشيتا الصغار؟"

"أجل، بالفعل،" قلت ضاحكًا. ثم أردفت: "أولاد كينوشيتا أكبر بكثير الآن من أن يرغبوا فى المجيء إلى هنا."

"كانت دومًا ماهرة مع الأطفال،" كررتْ سيتسوكو. "أنا حزينة لرؤيتها تبلغ هذه السن بدون زواج."

"بالفعل. نشبت الحرب فى توقيت أضرها."

تابعنا القراءة لحظات معدودة ثم أردفتْ سيتسوكو:

"يا لها من صدفة سعيدة أن تقابل الدكتور سايتو بالترام بعد ظهر اليوم. يبدو أنه رجل مهذب ورائع."

"هو كذلك بالفعل. والابن طبقًا لكل الروايات خليق بأن يكون ابنًا لأبيه."

"حقًا." قالت سيتسوكو متفكرة.

عدنا إلى القراءة دقائق قليلة أخرى ثم كسرتْ ابنتى حاجز الصمت من جديد:

"أيعرف الدكتور سايتو السيد كورودا؟"

أجبتها دون أن أشيح عن جريدتى: "معرفة سطحية. البادى أنهما تقابلا فى مكان ما."

"تُرى كيف حال السيد كورودا هذه الأيام. أستطيع أن أذكر كيف اعتاد أن يأتي هنا لنتكلما معًا بالساعات في حجرة الاستقبال."

"لا أعلم عنه شيئًا هذه الأيام."

"معذرة، ألا تملى الحكمة يا ترى أن تزور يا أبى السيد كورودا عما قريب."

"أزوره؟"

"السيد كورودا، وربما بعض المعارف الآخرين ممن اقترنتَ بهم فى الماضى."

"لست متأكدًا من فهمى لما تقولينه يا سيتسوكو."

"لا تؤاخذنى، عنيت ببساطة أن أقترح أنك قد ترغب فى الحديث مع بعض المعارف من الماضى، أى قبل أن يفعل محققو عائلة سايتو. فنحن فى النهاية لا نود أن يقع أى سوء تفاهم لا ضرورة له."

"نعم، أظن ذلك،" قلت ثم رجعتُ إلى الجريدة.

أعتقد أننا لم نبحث الموضوع أكثر من ذلك وما عادت سيتسوكو إلى طرحه للنقاش حتى انتهت زيارتها الشهر الماضى.

عندما استقللت الترام متجهًا إلى أراكاوا بالأمس، كانت أشعة شمس الخريف الساطعة تغمر العربة. لم أكن قد قمت برحلة إلى أراكاوا مؤخرًا – منذ نهاية الحرب في الحقيقة. وإذ كنتُ أحملق من

النافذة، لاحظتُ تغييرات عدة جدت على ما كان فى الماضى مشهدًا معهودًا. فبالمرور على توزاكا-شو وساكيماشى، وقعتْ عيناى على مبان سكنية مبنية بالطوب تلوح فوق المنازل الخشبية الضئيلة التى أتذكرها من قبل. اجتزت بعدها خلفيات مصانع ميناميماشى، فرأيتُ كيف بات العديد منها مهجورًا؛ تردد بصرى بين أفنية المصانع الواحد بعد الآخر وقد تكدست بها بلا أى نظام أخشاب مكسورة وألواح قديمة من معدن متموج والكثير مما بدا مجرد ركام.

لكن بعدما يقطعِ الترام النهر عند جسر شركة ت هـ ك، يتغير الجو تغيرًا مباغتًا. إذ تجد نفسك مسافرًا وسط حقول وأشجار، وما تلبث ضواحى أراكاوا أن تتراءى لك عند سفح تل عال منحدر ينتهى عنده خط الترام. يتحرك الترام ببطء متناه نازلاً التل ثم يكبح فرامله ليتوقف. وبينما تترجل من الترام وتخطو قدماك فوق تلك الأرصفة المكنوسة بعناية، سيغلب عليك إحساس واضح بأنك خلفت المدينة ورائك.

وأراكاوا كما سمعتُ نجت بالكامل من القصف؛ والحق أن المكان قد لاح بالأمس على نفس الصورة التى كان عليها أبدًا. أفضى بى مجاز قصير يطلع التل وتظلله أشجار الكرز المبهجة إلى منزل شيشو ماتسودا الذى ما مسته يد التغيير هو الآخر.

لم يكن منزل ماتسودا فى مثل اتساع منزلى ولا فى مثل إضاءته الباهرة غير أنه نموذج للمنزل المتين المحترم الموجود

بأراكاوا. وتحيط بالمنزل مساحة من الأرض يطوقها سور من الألواح الخشبية على بعد مسافة معقولة من عقارات الجيران؛ وعند المدخل تقوم شجيرة من نبات الأزالية وعامود سميك انغرز فى الأرض وانكتب عليه اسم العائلة. جذبتُ الجرس فأجابتنى امرأة لم أتعرفها لها من العمر حوالى الأربعين. أدخلتنى حجرة الاستقبال وأزاحت ستارة الشرفة، فسمحت بتسلل أشعة الشمس وأتاحت لى إلقاء نظرة خاطفة على الحديقة. ثم مضت عنى قائلة: "سيوافيك السيد ماتسودا خلال لحظة."

التقيت بماتسودا أول ما التقيت عندما كنتُ أعيش بفيلا سيجى موريياما حيث ذهبتُ أنا والسلحفاة عقب ترك العمل بشركة تاكيدا. الواقع أن ماتسودا حين حضر يومها لأول مرة إلى الفيلا، كنتُ بالفعل أسكن هناك نحو ستة أعوام. لم تنقطع السماء عن الإمطار طوال الصباح، فأمضت مجموعة منا الوقت فى الشرب ولعب الكوتشينة بإحدى الغرف. وبعد الغذاء بفترة وجيزة وتحديدًا عندما كنا نفتح زجاجة ضخمة أخرى، أقبل صوت غريب ينادى من الفناء.

لم يعدم الصوت القوة أو الثقة. أطبق علينا السكون وتبادلنا النظرات والهلع يدب فى قلوبنا. ذلك أن الحقيقة هى أن ذات الخاطرة قفزت إلى أذهاننا جميعًا – أن البوليس جاء ليؤنبنا رسميًا. كانت هذه بالتأكيد خاطرة يعزوها المنطق كلية، فنحن لم نرتكب أية جريمة. وهَبْ أن أحدهم اعترض على أسلوب حياتنا أثناء محادثة فى حانة، أى واحد منا كان سيتمكن من أن ينبرى بقوة للدفاع عنا. غير أن هذا

الصوت الحازم المنادى: "أيوجد أحد بالمنزل؟" أخذنا على غرة فأماط اللثام عن إحساسنا بالذنب لشربنا حتى وقت متأخر من الليل ونومنا صباحًا وعيشتنا عيشة خالية من أى روتين فى فيلا خربة.

مرت عدة لحظات آنذاك قبل أن يفتح الستارة أقرب الرفقاء إليها ليتجاذب كلمات قلائل مع المنادى، استدار بعدها قائلاً: "يوجد سيد يرغب فى التحدث إليك يا أونو."

خرجتُ إلى الشرفة فألفيت شابًا نحيل القسمات فى مثل عمرى تقريبًا يقف وسط الفناء المربع الواسع. وقد احتفظتُ بصورة مشرقة لتلك المرة الأولى التى أبصرتُ فيها ماتسودا. كان المطر قد توقف وانتهى المطاف بالشمس إلى الغروب. فحفت به بريكات المياه وأوراق الشجر المتساقطة من أشجار الأرْز المطلة على الفيلا. كان بالغ الأناقة على أن يكون ضابط بوليس؛ إذ كان معطفه - ذو ياقة مقلوبة عالية - محوكًا بمهارة، وكانت قبعته تميل إلى عينيه بشيء من التهكم. لما برزتُ أمامه، ألفيته يقلب بصره هنا وهناك مبديًا اهتمامه بالبيئة المحيطة به. تلونتْ طريقته هذه بشيء أوحى لى على الفور - فى أول مرة أراه فيها - بطبعه المتغطرس. رآنى فخف إلى الشرفة متسائلاً:

"السيد أونو؟"

سألتُه كيف أستطيع خدمته فاستدار ناظرًا إلى الأرض مرة أخرى ثم كشف ثغره عن ابتسامة.

"مكان مثير للاهتمام. لا بد أنه كان مبنى مهيبًا فيما مضى، مِلك أحد النبلاء."

"صحيح."

"دعنى أعرفك بنفسى يا سيد أونو، أنا شيشو ماتسودا. نحن فى الحقيقة نتراسل، فأنا أعمل بجمعية أوكادا-شينجن."

لم تعد جمعية أوكادا-شينجن تضطلع بأية نشاطات الآن - فهى واحدة من ضحايا عديدين للقوات الغازية - لكن يجوز أن تكون سمعتَ عنها أو على الأقل عن المعرض الذى كانت تقيمه كل سنة حتى دارت رحى الحرب. انصرمتْ فترة كان فيها معرض أوكادا-شينجن السبيل الأول بهذه المدينة كى يحظى الفنانون الناشئون فى الرسم وتصميم الصور المطبوعة بالاستحسان الشعبى. كان صيتها واسعًا بحق حتى إن معظم فنانى المدينة البارزين كانوا فى سنواتها الأخيرة يعرضون أعمالهم الحديثة هناك جنبًا إلى جنب مع تلك المواهب الأحدث. وبخصوص نفس هذا المعرض كتبتُ لى جمعية أوكادا-شينجن قبل الظهيرة التى زارنى فيها ماتسودا بأسابيع قليلة.

أبلغنى ماتسودا: "لقد استرعى ردك يا سيد أونو فضولى قليلاً. من أجل ذلك فكرتُ أن أعرج عليك لأستوضح المسألة."

رشقتُه بنظرة باردة قائلاً: "أعتقد أنى غطيت النقاط اللازمة كافة فى الخطاب الذى حوى ردى. كنتم مع ذلك فى منتهى الكرم أن عرضتم هذا الاقتراح."

بانت ابتسامة صغيرة حول عينيه وقال: "البادى لى يا سيد أونو أنك تهدر فرصة ثمينة لتعزيز شهرتك. لذا أخبرنى من فضلك، عندما أصررتَ على مشيئتك ألا تتعامل معنا، أكان هذا رأيك الشخصي؟ أم ما قضى به معلمك؟"

"التمستُ بطبيعة الحال نصيحة معلمى، وأنا على ثقة تامة أن القرار الذى نقلتُه فى خطابى هو القرار السديد. إنه لكرم منك أن تأتى إلى هنا إنما مع الأسف أنا الآن مشغول ولا أستطيع أن أطلب منك التفضل بالدخول. يوم سعيد، بعد إذنك."

"لحظة من فضلك يا سيد أونو." قال ماتسودا فيما خامرت ابتسامته سخرية أكبر. خطى خطوات معدودة متقدمًا إلى الشرفة مباشرة وارتقى ببصره نحوى: "بصراحة أنا لست منزعجًا بخصوص المعرض. يوجد آخرون كثيرون ممن يستحقونه. لقد أتيت يا سيد أونو لرغبتى فى مقابلتك."

"حقًا؟ هذا لطف منك."

"فعلاً. أردت أن أقول لك إنى مبهور بما شاهدتُ من أعمالك، وعندى قناعة أنك تمتلك موهبة كبيرة."

"إنك فى غاية الكرم. ما من شك أنى أدين بالفضل لتفوق معلمى فى التوجيه."

"ما فى ذلك من شك. دعنا الآن يا سيد أونو نطرح موضوع المعرض جانبًا. فلا بد أن تكون على إدراك كامل أنى لا أعمل كاتبًا

لدى أوكادا-شينجن فحسب. فأنا محب حقيقى للفن، وعندى اعتقاداتى وعواطفى. ولمّا أصادف من حين لآخر موهبة تثيرنى بصدق، أشعر أنى يجب أن يكون لدى رد فعل حيالها. أنا أبغى بشدة أن أناقش أفكارًا محددة معك يا سيد أونو، أفكارًا ربما لم تخطر ببالك أبدًا من قبل، لكنى وبكل تواضع أقترح أنها ستفيد تطورك كفنان. على أنى لن أعطلك الآن أكثر من هذا. اسمح لى على الأقل أن أترك بطاقتى."

أخرج بطاقته من محفظته ووضعها على حافة الشرفة ثم غادر المكان بانحناءة سريعة. إلا أنه استدار قبل أن يجتاز منتصف الفناء وخاطبنى: "من فضلك يا سيد أونو ادرس طلبى مليًا. فغاية مرادى أن أناقش معك أفكارًا محددة، هذا كل ما فى الأمر."

وقعتْ تلك الأحداث منذ حوالى ثلاثين عامًا، عندما كنا شبابًا يحدونا الطموح بيد أن ماتسودا لاح بالأمس رجلاً مختلفًا تمامًا. تقوض بنيان جسمه لِما ألم به من وعكة صحية، ووجهه الذى كان فى يوم ما وسيمًا متكبرًا أمسى مشوهًا بفك سفلى بدا غير قادر على ضبط نفسه مع الفك العلوى. أعانته السيدة التى فتحتْ لى الباب على دخول الحجرة والجلوس. عندما اختلى ماتسودا بى، نظر إلى قائلاً:

"الظاهر أنك بصحة سابغة. أما أنا، فكما ترى تدهورتُ كثيرًا منذ لقائنا الأخير."

عبّرتُ عن تعاطفى وأخبرتُه إنه لا يبدو بهذا السوء على الإطلاق.

"لا تحاول خداعى يا أونو،" قال باسم الثغر. "أعلم بالضبط مدى ما سأؤول إليه من ضعف. يظهر أنه ليس باليد حيلة. ما على سوى أن أنتظر لأرى ما إذا كان جسدى سيسترد عافيته أم سيتدهور. مع ذلك دعنا من هذه المواضيع الكئيبة. إنها لمفاجئة أن تزورنى مجددًا. خلتُ أننا لم نفترق على وفاق."

"حقًا؟ لم أدرك أننا تشاجرنا."

"بالطبع لا. ولِم نتشاجر؟ أنا مسرور بحضورك لرؤيتى مرة أخرى. مرت ثلاثة أعوام منذ لقائنا الأخير."

"أعتقد ذلك. ما قصدتُ أن أتجنبك. فقد صدقتْ نيتى منذ فترة على أن أحضر وأزورك إنما أشغال الدنيا..."

"طبيعي. فعلى عاتقك تقع الكثير من المهام. يجب أن تغفر لى طبعًا تخلفى عن جنازة السيدة ميشيكو. كان فى نيتى أن أرسل لك خطابًا لأعتذر فيه. الحقيقة هى أنى لم أسمع بما جرى سوى بعدها ببضعة أيام، وصحتى وقتها كانت بالطبع..."

"طبعًا، طبعًا. أنا متأكد فى الواقع أنها كانت ستخجل من المراسم الضخمة المتفاخرة. على أية حال كانت ستعلم أنك تفكر فيها."

"يحضرنى الآن اليوم الذى اجتمعتَ فيه بالسيدة ميشيكو." ضحك وأومأ لنفسه: "كنتُ يومها طائرًا من الفرح من أجلك يا أونو."

"أجل،" قلت ضاحكًا أنا الآخر. "كنتَ وسيطنا بكل ما فى الكلمة من معنى، فعمك هذا لم يكن على مستوى المهمة بتاتًا."

"صحيح،" أيدنى مبتسمًا، "أنت تجتر ذكريات الماضى كلها. كان يتعثر فى أذيال الارتباك ولم يكن فى استطاعته قول أى شيء أو عمل أى شيء دون أن يحمر خجلاً. هل تذكر اجتماع الزواج ذاك بفندق ياناجيماشى."

انطلقتْ ضحكاتنا وقلت:

"اضطلعتَ بالكثير نيابة عنا. أشك أن الزواج كان سيتم بدونك. لقد دانت ميشيكو لك دائمًا بالفضل."

"إنه حادث مفجع،" قال ماتسودا مطلقًا من صدره تنهيدة. "سمعتُ بعد أن أوشكت الحرب على الانتهاء أنها كانت غارة غير معهودة."

"بالفعل. لم يصب آخرون. كان كما قلتَ حادثًا مفجعًا."

"آسف على استرجاعى لتلك الذكريات المؤلمة."

"مطلقًا. إن تذكر ميشيكو معك يبعث فى قلبى قدرًا من العزاء. فأنا أتذكرها كما كانت فى الأيام الخالية."

"بالفعل."

أحضرتْ السيدة الشاى. وإذ كانت تضع الصينية، قدمنى ماتسودا إليها: "آنسة سوزوكى، هذا زميل أعرفه منذ زمن، كانت تربطنا علاقتنا حميمة ذات يوم."

استدارت نحوى وانحنت.

"الآنسة سوزوكى تنهض بمهمتين: مدبرة منزلى وممرضتى. وهى مسؤولة عن بقائى على قيد الحياة حتى الآن."

فرت ضحكة من الآنسة سوزوكى وعاودها الانحناء ثم خرجتْ من الحجرة.

جلسنا مطرقين لحظات معدودة بعد خروجها. كان كلانا يتفرس بالخارج فيما بين الستارتين اللتين فتحتهما الآنسة سوزوكى. رأيت من مكانى زوجًا من الصنادل القش متروكًا بالشرفة تحت أشعة الشمس لكنى لم أستطع أن أرى جزءًا كبيرًا من الحديقة نفسها. راودنى الإغراء لحظة أن أقف على قدمى وأخرج إلى الشرفة لكن مع إدراكى أن ماتسودا سيود مرافقتى وسيشق عليه ذلك، لم أبرح مكانى سائلاً نفسى إن كانت الحديقة ما تزال على حالها. وحسبما أتذكرها كانت حديقة ماتسودا، على صغرها، منظمة بذوق رفيع: أرضية مغطاة بالطحالب الممهدة وقلة من الأشجار الصغيرة الجميلة وبركة عميقة. وأثناء جلوسى مع ماتسودا تناهى إلى أذنى أحيانًا صوت طرطشة مياه. كنتُ على وشك أن أسأله إن كان ما زال يحتفظ بأسماك الشبوط عندما باح إلى:

"لم أبالغ حين قلت إن الآنسة سوزوكى مسؤولة عن حياتى. فقد لعبتْ دورًا غاية فى الأهمية فى أكثر من موقف. تعرف يا أونو؟ تمكنتُ برغم كل شيء من الاحتفاظ ببعض المدخرات والأملاك،

وعليه قدرتُ أن أوظفها، وهو أمر ليس متاحًا للبعض. أنا لست فاحش الثراء لكن لو تنامى إلى علمى أن زميلاً سابقًا فى أزمة، سوف أبذل كل وسعى لمعاونته. فأنا فى النهاية لم أنجب أطفالاً ليرثوا أموالى."

ندّت عنى ضحكة: "نفس ماتسودا القديم. صريح جدًا. هذا كرم منك لكن ليس هذا ما جاء بى إلى هنا. أنا كذلك استطعت الاحتفاظ ببعض الأملاك."

"آه، يسرنى سماع ذلك. أتذكر ناكان، مدير كلية مينامى الإمبراطورية؟ أراه من آن لآخر، وحاله هذه الأيام أحسن من الشحاذين بقليل. يحاول من غير ريب الحفاظ على المظاهر لكنه يعيش بالكامل على ما يقترض من أموال."

"يا للفظاعة."

"وقعتْ أحداث فاحشة الظلم، مع ذلك استطاع كلانا الاحتفاظ بأملاكه. وأنت يا أونو عندك سبب إضافى ليشعرك بالامتنان، فالبادى أنك تنعم بصحة موفورة."

"بالفعل، لدى الكثير مما يدعو إلى الامتنان."

ترامى مرة أخرى صوت طرطشة مياه من البركة بالخارج، فجرى ببالى أن طيورًا ربما تستحم عند حافة البركة.

علقتُ قائلاً: "إن صوت حديقتك مختلف تمامًا عن صوت حديقتى. فيكفى مجرد سماعى لها لأؤكد أننا خارج المدينة."

"صحيح؟ أتذكر بالكاد أصوات المدينة. هذا هو نطاق عالمى منذ سنين قلائل، هذا المنزل وتلك الحديقة."

"الحق أنى حضرت بالفعل طالبًا لمساعدتك لكن ليس كما ألمحتَ من قبل."

"أرى أنك اعتبرتها إهانة،" قال هازًا رأسه. "مثلما كان يحدث في الماضى."

علا ضحكنا ثم قال: "إذن كيف أستطيع خدمتك؟"

"فى الحقيقة ابنتى الصغرى نوريكو منهمكة الآن فى محادثات زواج."

"حقًا؟"

"وبصراحة أنا مشغول البال عليها قليلاً. فهى الآن فى السادسة والعشرين، وقد صعبت الحرب حياتها وإلا لكانت الآن متزوجة بلا شك."

"أعتقد أنى أتذكر الآنسة نوريكو لكنى أذكرها وهى مجرد بنت صغيرة. بلغت السادسة والعشرين بهذه السرعة. كما قلتَ لقد صعبت الحرب الحياة حتى أمام أصحاب الفرص."

"كانت على وشك الزواج العام الماضى إلا أن المحادثات أخفقت فى آخر لحظة، وبما أننا بصدد هذا الموضوع، هل فاتحك شخص فى سيرة نوريكو العام الماضي؟ لا أقصد أن أتجاوز حدودى لكن..."

"لستَ متجاوزًا للحدود بالمرة، أنا أتفهم موقفك كلية. لكن لا. ما تحدثتُ قط مع أحد. كنتُ مريضًا للغاية فى ذلك الوقت من العام الماضى، ولو كان أحد المخبرين قد ظهر، كانت الآنسة سوزوكى ستصرفه بالقطع."

أومأتُ برأسى ثم قلت: "من المحتمل فحسب أن يعرج أحدهم عليك هذه السنة."

"حقًا؟ طيب، لن يسعنى إلا قول كل الخير عنك. فقد كنا رغم كل شيء زملاء مقربين فى يوم من الأيام."

"أنا ممنون لك بشدة."

"إنه لطف منك أن تزورنى. لكن بالنسبة لزواج الآنسة نوريكو، ما كان من الضرورى تكبد تلك المشاق. لعلنا لم نفترق على وفاق لكن لا ينبغى لمثل هذه الأمور أن تحول بيننا. فمن الطبيعى أن أقول الخير ولا شيء غير الخير عنك."

"لم ينل منى الشك فى ذلك، كنتَ على الدوام رجلاً شهمًا."

"ومع ذلك إذا تسبب هذا فى لم شملنا ثانية، فأنا سعيد."

بذل ماتسودا مجهودًا حتى مد يديه وجعل يعيد ملء أقداح الشاى. ثم قال أخيرًا: "معذرة يا أونو، لكن الظاهر أنك لا زلت قلقًا من أمر ما."

"هل يبدو عليّ؟"

"اعذر فظاظتى فى التعبير لكن الحقيقة هى أن الآنسة سوزوكى سرعان ما ستدخل لتتبهنى إلى ضرورة أن آوى إلى فراشى مجددًا. يؤسفنى أنى غير قادر على استضافة الضيوف لمدد طويلة، ولا حتى الزملاء القدامى."

"بالطبع، أنا فى غاية الأسف. إنها منتهى قلة الذوق منى."

"لا تكن سخيفًا يا أونو. ما زال بإمكانك البقاء برهة. قلتُ ذلك لأنك إن حضرتَ هنا من أجل إثارة أمر محدد، فيحسن بك أن تعجل بطرحه." وفجأة انفجر في الضحك ملء فيه: "تبدو بحق مبغوتًا من قلة ذوقى."

"مطلقًا. إنها منتهى قلة الذوق منى. لكنى الحقيقة لم آت سوى لأتحدث عن زواج ابنتى."

"مفهوم."

ثم استطردتُ: "على أنى أظن أنه كان فى نيتى ذكر بعض الاحتمالات. فالمفاوضات الحالية قد تكون بالغةَ الدقة، وسوف أدين لك بجزيل الفضل لو أجبتَ بكياسة على أية أُسئلة قد تصادفك."

"بالطبع." قال وهو يرنو إلى فى حين شابت عينيه مسحة حيرة. "بكل لياقة."

"بالأخص، يعنى، فيما يتعلق بالماضى."

"لكنى أخبرتك من قبل،" رد ماتسودا وقد استحال صوته أقل وداً. "ليس لدى سوى الخير لأرويه عنك فى الماضى."

"بالتأكيد."

ظل ماتسودا ينظر إلى هنيهة ثم تنهد ملء صدره.

"لم أبرح هذا المنزل إلا لماماً خلال السنوات الثلاث الأخيرة بيد أنى ما زلت أرهف السمع لما يجرى فى بلدك هذه وأدرك أن ثمة أناساً الآن يجرمون أمثالك وأمثالى لذات الأشياء التى فخرنا بإنجازها فيما مضى. وأخالك مهموماً لهذا السبب يا أونو. تخالنى قد أمتدحك على أمور لعله من الأفضل نسيانها."

"أبداً، على الإطلاق،" قلت متعجلاً. "نحن لدينا الكثير مما يستحق الفخر. كل ما هنالك أنه بالنسبة لمحادثات الزواج، على المرء تقدير حساسية الموقف. لكنك أرحت قلبى، أعرف أنك ستحسن الحكم على الأمور كما هو دأبك."

"سأبذل قصارى جهدى، لكن يا أونو هناك أمور يتعين على كلينا الافتخار بها. لا تلق بالاً لما يقوله كل الناس اليوم. فعما قريب – بعد سنوات معدودة – سيتمكن أمثالنا من أن يرتقوا بهاماتهم عالياً فخراً بما حاولنا صنعه. وكل أملى أن أعيش لأرى ذلك اليوم، فأنا مناى أن أشهد تبرئة مجهودات حياتى."

"لا مراء فى ذلك. أنا أشاركك نفس الأحاسيس لكن بالنسبة لمفاوضات الزواج..."

"طبعًا" قاطعنى ماتسودا. "لن آلو جهدًا كى أتوخى الكياسة."

انحنيت. خيم السكون لفترة وجيزة ثم سألنى:

"لكن أخبرنى يا أونو إذا كنتَ مهمومًا بالماضى، أظنك تزور قلة ممن عرفتهم فى تلك الأيام؟"

"فى الواقع أنت أول من أزور، ليست لدى فكرة الآن عن مكان العديد من أصدقائنا القدامى."

"ماذا عن كورودا؟ سمعتُ أنه يعيش فى مكان ما بالمدينة."

"حقًا؟ لم أتصل به منذ... منذ الحرب."

"إذا كنا قلقين على مستقبل الآنسة نوريكو، ربما يستحسن أن تبحث عنه على ما قد يكون فى ذلك من مشقة."

"بالقطع. كل ما هنالك أنى لا أدرى أين هو."

"طيب. أرجو أن يتوه محققهم أيضًا عن مكانه غير أن هؤلاء المحققين أحيانًا ما يكونون على قدر كبير من سعة الحيلة."

"بالفعل."

"تبدو شاحبًا كالجثة يا أونو. وقد بدوت صحيحًا معافى أول ما وصلتَ هنا. هذا ما يلم بالمرء عندما يشارك رجلاً مريضًا فى الغرفة."

ضحكتُ: "أبدًا. المسألة أن الأولاد يمكن أن يصيبوا الواحد بهم ما بعده هم."

تنهد ماتسودا من جديد: "يخبرنى الناس أحيانًا أنى ما عشت الحياة لأنى لم أتزوج قط أو أنجب أطفالاً لكنى حين أنظر حولى، يتراءى لى أن الأولاد لا يجلبون إلا القلق."

"هذا ليس بعيدًا عن الحقيقة."

"مع هذا كان سيواسيني أن أنجب أطفالاً ليرثوا أملاكى."

"أجل."

أقبلتْ الآنسة سوزوكى بعد دقائق قليلة كما توقع ماتسودا وقالت له شيئًا. سرى الابتسام فى فم ماتسودا وقال بلهجة مستسلمة:

"حضرتْ ممرضتى لتأخذنى. طبعًا البيت بيتك، أهلا بك لتبقى هنا كما يحلو لك. بعد إذنك يا أونو."

كنتُ أنتظر بعدها عند آخر محطة بالترام، الترام الذى سيصعد التل المنحدر ليرجع إلى المدينة. نزلتْ بقلبى السكينة عندما استدعيت يقين ماتسودا من أنه ليس لديه "سوى كل الخير ليرويه عن الماضى". كان من الممكن بالقطع أن أكون على ثقة من رأيه دون أن أزوره غير أنه من المفيد دومًا أن يعيد المرء ترسيخ صلاته بزملائه القدامى. وفى المجمل كانت رحلة الأمس إلى أراكاوا تستحق بلا مراء ما بُذل فيها من عناء.

أبريل ١٩٤٩

ما زلت ألفى نفسى أسلك هذا الطريق ثلاث مرات أو أربع مساء كل أسبوع، أنزل باتجاه النهر والجسر الخشبى الصغير الذى لا يزال معروفًا لدى بعض مَن عاشوا هنا قبل الحرب بـــ "جسر التردد". أطلقنا عليه ذلك الاسم لأنه حتى وقت قريب كان عبوره يفضى بك إلى حي المتعة الخاص بنا، وحسبما ذهبتُ الأقاويل كنتَ ترى مَن اضطربتْ ضمائرهم من الرجال يحومون حول المكان وقد وقعوا فى شرك التردد بين السعى إلى قضاء أمسياتهم فى اللهو أو العودة لزوجاتهم. لكنى إن شوهدت أحيانًا أعلى ذلك الجسر، متكئًا على الحاجز تتوزعنى الأفكار، لا يعنى هذا أن ترددًا يلم بى. فالأمر لا يعدو أنى أستمتع بالوقوف هناك وقت الغروب، أعاين الأجواء المحيطة وما طرأ عليها من تغييرات.

أطلت مجموعات من المنازل الجديدة قرب سفح التل الذى هبطتُ منه للتو. وعلى مسافة أبعد بحذاء ضفة النهر – حيث لم يكن هناك سوى الحشائش والطين منذ عام مضى – تقوم إحدى شركات المدينة ببناء وحدات سكنية لمَن سيفد فى المستقبل من الموظفين إلا أنها لا تزال فى حاجة إلى وقت طويل حتى تكتمل، وعندما ينخفض قرص الشمس على النهر، قد يذهب المرء إلى أن يحسبها بالخطأ أنقاض القصف الموجودة حتى الآن فى بعض أجزاء المدينة.

. على أن مثل هذه الأنقاض تزداد ندرة بمرور الأسابيع؛ فربما كان على المرء حقًا أن يمضى إلى أقصى الشمال حتى منطقة واكاميا أو إلى تلك المنطقة التى اندكت فى القصف ما بين هونشو وكازوجاماشى ليصادف الآن تلك الأنقاض بأعداد كبيرة. غير أنى واثق أن أنقاض القصف كانت منذ سنة فقط لا تزال مشهدًا معهودًا فى أرجاء المدينة كافة. فمثلاً فى مثل هذا الوقت من العام الماضى كانت المنطقة البادئة من جسر التردد حيث وقع حى المتعة ما تزال صحراء من الأنقاض بيد أن العمل يتقدم فيها الآن كل يوم باطراد. وخارج حانة السيدة كاواكامى – حيث تزاحمت ذات يوم حشود طالبى المتعة الحشد وراء الآخر – يتم تشييد طريق واسع من الأسمنت، وعلى جنبيه تُرمى أسس صفوف من أبنية المكاتب الضخمة.

وفى إحدى الأمسيات منذ أمد قصير أبلغتنى السيدة كاواكامى بعرض الشركة لشراء محلها مقابل مبلغ سخي، فسلّمتُ منذ حينها أنها ستضطر عاجلاً أو آجلاً إلى إغلاق محلها والانتقال إلى مكان آخر.

أسرت إلى: "لا أدرى ماذا أفعل، سيشق على الرحيل عن المكان بعد كل هذه الفترة. لقد جافانى النوم طوال الليلة الماضية ولم أنقطع عن التفكير. لكن يا معلم، حين أمعنتُ النظر فى المسألة، قلت لنفسى، طيب، الآن مع رحيل السيد شينتارو، أضحى المعلم هو الزبون الوحيد الذى يمكننى الاعتماد عليه. لا أعرف حقًا ماذا أصنع."

أنا بحق زبونها الحقيقى الوحيد هذه الأيام؛ فشينتارو لم يرنا وجهه بحانة السيدة كاواكامى منذ تلك الحادثة البسيطة التى وقعت فى الشتاء الماضى – يفتقر إلى الشجاعة بلا شك لمواجهتى. وأخال ذلك جلب سوء الحظ إلى السيدة كاواكامى التى ما كان لها دخل فى الموضوع.

كان ذلك فى إحدى أمسيات الشتاء الماضى – كنا نشرب معًا كالمعتاد وقتئذ – عندما ذكر لى شينتارو لأول مرة أنه يطمح إلى الفوز بوظيفة مدرس بإحدى المدارس الثانوية الجديدة، وأخذ يبوح لى أنه ملأ بالفعل جملة من الطلبات لمثل هذه الوظائف. انقضت الآن بالطبع عدة سنوات منذ كان شينتارو تلميذى، ولا يوجد ما يدعوه ألا يباشر مثل تلك المحاولات بدون استشارتي؛ فقد كنتُ أعى تمام الوعى بوجود آخرين الآن – رئيسه فى العمل مثلاً – ممن يحتلون مكانة أنسب منى بكثير ليقوموا بمهمة الضامن فى تلك الأمور. مع ذلك أعترف أن اندهاشًا قد داخلنى لأنه ما ائتمنى مطلقًا على هذه الطلبات. وهكذا عندما ظهر شينتارو عند منزلى فى ذلك اليوم الشتوى بعد بداية العام الجديد بقليل وألفيته واقفًا يقهقه بعصبية فى المدخل ويقول: "إنها منتهى الوقاحة منى أن آتى على هذا النحو،" شعرتُ بإحساس يقترب من الراحة وكأن الأمور قد عادت إلى مجاريها المعهودة.

أشعلتُ كانونًا بحجرة الاستقبال ثم جلس كلانا إلى جانبه ندفئ أيدينا. لاحظتُ أن بعض ندف الثلوج تذوب على معطف شينتارو الذى كان لا يزال يرتديه، فسألتُه:

"هل راح الثلج يتساقط مجددًا؟"

"القليل منه فقط يا معلم، ليس كما كان صباحًا."

"آسف على شدة برودة المكان، فهي للأسف أبرد حجرة بالمنزل."

"مطلقًا يا معلم، فحجرات بيتى أشد برودة بمراحل." ابتسم ثغره بسعادة وأخذ يحك يديه معًا فوق الفحم ثم قال: "إنها طيبة منك أن تستقبلنى هكذا. كنتَ يا معلم أشد ما تكون عطفًا على طوال السنين. أنا لا أقدر أن أحصى ما فعلتَه من أجلى."

"العفو يا شينتارو. أحيانًا ما أحسب فى الحقيقة أنى تعاملت معك بشيء من الإهمال فى الماضى، لذا لو هناك وسيلة ما يمكننى أن أعوضك بها عن إهمالى هذا – حتى فى تلك المرحلة المتأخرة – يسعدنى أن تعلمنى بها."

ضحك شينتارو وأخذ يحك يديه: "حقًا يا معلم، إن كلامك غير معقول. لا أقدر أبدًا أن أحصى ما فعلتَه من أجلى."

راقبتُه لحظة ثم تساءلتُ: "إذن قل لى يا شينتارو، كيف أستطيع خدمتك؟"

رفع عينين نال منهما الاستغراب ثم بدرتْ منه ضحكة أخرى.

"معذرة يا معلم. كنتُ قد بدأت أحس براحة بالغة هنا حتى إنى كنتُ سأنسى تمامًا الغرض من قدومى لإزعاجك هكذا."

كان عظيم التفاؤل حسبما قال لى بخصوص طلبه المقدَم إلى مدرسة هيجاشيماشى الثانوية؛ فقد جعلته مصادر موثوق بها يعتقد أن طلبه موضع استحسان جم.

"رغم ذلك يا معلم، يبدو أن هناك نقطة أو نقطتين صغيرتين دون غيرهما ما تزال اللجنة تشعر حيالهما بالقليل من عدم الرضا."

"ياه؟"

"بالفعل يا معلم. لعلى يجب أن أصارحك بالمسألة: النقاط الصغيرة التى أشير إليها تخص الماضى."

"الماضي؟"

"أجل يا معلم." انطلقتْ فى تلك اللحظة ضحكة عصبية من شينتارو الذى أردف جاهدًا: "ينبغى أن تعرف يا معلم أن احترامى لك لا يماثله أى احترام. فقد تعلمتُ منك الكثير وسأظل فخورًا برابطتنا."

أومأتُ برأسي وتريثتُ حتى يمضى هو فى حديثه.

"الحقيقة يا معلم أنى سأكون فى غاية الامتنان لو كتبتَ بنفسك خطابًا للجنة لتؤكد فحسب على بعض الإفادات التى صرحتُ بها."

"وما نوعية هذه الإفادات يا شينتارو؟"

عاودتْ شينتارو القهقهة ثم مد يديه فوق المدفأة مجددًا.

"الهدف هو مجرد إرضاء اللجنة يا معلم، ليس أكثر ولا أقل. قد تتذكر يا معلم كيف اختلفنا فى الرأى ذات مرة بخصوص عملى إبان الأزمة الصينية."

"الأزمة الصينية؟ للأسف لا أستحضر أننا تشاجرنا يا شينتارو."

"لا تؤاخذنى يا معلم، لعلى بالغتُ. لم يصل الأمرَ قط إلى الشجار الصريح. لكنى بالفعل تحامقت وعبّرت عن اختلافى فى الرأى، بمعنى أنى عارضت اقتراحاتك بخصوص عملى."

"معذرة يا شينتارو، لقد غاب عن بالى قصدك."

"لا شك لدى أن مثل هذا الأمر التافه لن يعلق فى عقل المعلم. لكن الحقيقة هى أن هذا الشأن يمثل أهمية كبرى بالنسبة إلى فى هذه المرحة الحاسمة. قد تنتعش ذاكرتك إن ذكّرتُك بالحفلة التى أقمناها ليلتها حين احتفلنا بخطبة السيد أوجاوا. حدث هذا ليلتئذ – أعتقد أننا كنا فى فندق هامابارا – لعلى أسرفت قليلاً فى الشراب وكنتُ من الوقاحة أن عبّرت لك عن آرائى."

"أذكر تلك الليلة بصورة مبهمة، لا أستطيع أن أقول إن ذاكرتى واضحة عنها. ومع ذلك يا شينتارو ما دخل اختلاف بسيط فى الآراء مثل هذا بأى شيء يجرى الآن؟"

"اعذرنى يا معلم، لكن الحقيقة هى أن الموضوع قد اكتسب أهمية ما. فاللجنة ملزمّة بالاطمئنان إلى بعض المسائل. فبرغم كل شيء لا بد من إرضاء السلطات الأمريكية..." خفت صوت شينتارو

بعصبية ثم تابع: "أتوسل إليك يا معلم أن تحاول تذكر ذاك الخلاف البسيط. فبرغم إحساسى بالعرفان في الماضى - العرفان الذى ما زال قائمًا حتى الآن لغزارة ما تعلمته تحت إشرافك - لم أكن فى الواقع دائم الاتفاق معك فى الرأى. الحق أنى قد لا أبالغ حين أصرح أن تحفظات قوية راودتنى على مسلك مدرستنا وقتها. ربما تذكر مثلاً أنه برغم اتباعى لتعليماتك فى النهاية بخصوص ملصقات الأزمة الصينية، خامرتنى فيها الشكوك وبالفعل ذهبت إلى حد إطلاعك على آرائى."

"ملصقات الأزمة الصينية،" حدثت نفسى مفكرًا. "أجل، أذكر الآن ملصقاتك. كان وقتًا حاسمًا بالنسبة إلى الأمة، وقتًا وجب علينا فيه أن نحجم عن التردد ونقرر ما نريده. أذكر أنك أحسنت البلاء وكنا جميعًا فخورون بعملك."

"لكنك ستذكر أن شكوكًا جادة تملكتنى حول ما أردتَ منى القيام به. ولو ستذكر، صارحتك من غير تحفظ بمعارضتى فى ذلك المساء بفندق هامابارا. معذرة يا معلم لإزعاجك بمثل هذا الموضوع التافه."

أظننى أطرقت بضع لحظات. ولا بد أنى وقفت فى هذه اللحظة تقريبًا لأنى لمّا تكلمت بعدها، أذكر أنى كنت أقف قبالته على الجانب الآخر من الحجرة عند ستائر الشرفة.

قلتُ فى آخر الأمر: "تريد منى أن أكتب خطابًا للجنتك ينفى صلتك بتأثيرى. هذا ما يعادله طلبك."

"لا شيء من هذا القبيل يا معلم، لقد أسأتَ فهمي. أنا فخور أبدًا بانتساب اسمي إلى اسمك. المسألة ببساطة هي أنه فيما يتعلق بمسألة حملة الملصقات الصينية، لو اطمأنت اللجنة فحسب إلى أن..."

خفت صوته مرة أخرى. أزحت الستارة عن ثغرة صغيرة فهَب هواء بارد على الحجرة لكني لسبب ما لم آبه له. ومن خلال الثغرة حملقتُ عبر الشرفة إلى الحديقة. كان الثلج يتساقط في ندف تنساب في بطء.

" لِمَ لا تواجه الماضي ببساطة يا شينتارو؟ لقد نلتَ فضلاً كبيرًا وقتها نتيجة ملصقك الخاص بالحملة، فزتَ بفضل عظيم واستحسان أي استحسان. قد يكون للعالم الآن رأي مخالف في عملك لكن لا حاجة بك إلى الكذب عن نفسك."

"فعلاً يا معلم. أنا أوافقك. لكن رجوعًا إلى موضوعنا، سأكون ممنونًا للغاية إذا كتبتَ للجنة فيما يتعلق بملصقات الأزمة الصينية، ومعي هنا في الواقع اسم رئيس اللجنة وعنوانه."

"من فضلك يا شينتارو، أصغي إلي."

"يا معلم، مع كل احترامي، أنا في غاية الشكر على الدوام لنصيحتك وتعليمك لكني في هذه اللحظة رجل في غمرة مسيرته المهنية. خير أن يفكر المرء ويتدبر عندما يتقاعد لكن الواقع هو أني أعيش في عالم مشحون ولا بد أن أضطلع بأمر أو اثنين لو كنت سأحصل على هذه الوظيفة التي هي بكل الاعتبارات الأخرى من نصيبي بالفعل. أتوسل إليك يا معلم، تفهم موقفي أرجوك."

لم أحر نطقًا إنما رحت أرنو بالخارج إلى ما تساقط على حديقتى من ثلج. ومن خلفى التقطت صوت شينتارو وهو يقف على قدميه.

"ها هو الاسم والعنوان يا معلم. سأتركهما هنا إذا سمحت لى. أرجوك ول الأمر التفكير الوافى عندما يسنح وقتك."

أمسكتُ عن الكلام وهلة فى حين انتظر هو على ما أخال ليرى ما إذا كنتُ سأستدير واسمح له بالرحيل بشيء من الكرامة. أخذتُ أتفرس فى حديقتى: برغم استمرار سقوط الثلج، استقر بصورة طفيفة على الشجيرات والأغصان فقط. وبينما كنت أراقب المشهد، هزت نسمة غصنًا من أغصان شجرة القيقب نافضة عنها معظم الثلج. كانت المشكاة الحجرية بخلفية الحديقة هى الوحيدة التى ارتدت قلنسوة سميكة من الثلج.

سمعتُ شينتارو يستأذن مغادرًا الحجرة.

قد يبدو الأمر يومها كما لو كنتُ أقسو على شينتارو بلا داعٍ. لكن لو وضع المرء نصب عينيه ما حدث فى الأسابيع التى سبقت زيارته مباشرة، سيبيت مفهومًا من غير ريب لِم شعرتُ بعدم التعاطف مع مساعيه إلى التهرب من مسؤولياته. فقد أتت زيارة شينتارو فى الواقع عقب عدة أيام من اللقاء المشترك الخاص بزواج نوريكو.

تقدمتْ بنجاح كاف طوال الخريف الفائت مفاوضات زواج نوريكو المعتزَم من تارو سايتو؛ إذ تم تبادل الصور فى أكتوبر

وتلقينا لاحقًا رسالة من السيد كيو، وسيطنا، بأن الشاب شديد التوق للقاء نوريكو. تظاهرت نوريكو طبعًا بأنها تفكر مليًا فى المسألة غير أنه بحلول تلك المرحلة صار من الواضح أن ابنتى – وقد بلغت بالفعل السادسة والعشرين – لا تستطيع تجاهل فرصة مثل تارو سايتو باستخفاف.

لذلك أعلمتُ السيد كيو بموافقتنا على اللقاء المشترك، وانتهى بنا الأمر إلى الاتفاق على يوم فى نوفمبر بفندق 'متنزه كازوجا.' وقد توافقنى الرأى على أن فندق 'متنزه كازوجا' يخالطه هذه الأيام جو سوقى، وعليه تولانى شيء من عدم الرضا عن الاختيار. غير أن السيد كيو أكد لى أنه سيتم حجز غرفة خاصة ومضى يوحى بأن آل سايتو مغرمون بالطعام هناك، فأبديت موافقتى أخيرًا وإن جاءت خالية من الحماس.

وقد بَين السيد كيو أيضًا أن اللقاء يبدو وكأنه يرجح كفة أسرة العريس المرتقب – فقد اعتزم أخوه الأصغر الحضور، هذا فضلاً عن والديه. لذا نوه بأنه سيكون من المناسب تمامًا أن نصطحب قريبًا أو صديقًا حميمًا لنشد من أزر نوريكو. لكن بالطبع بما أن سيتسوكو تعيش بعيدًا جدًا، لم يكن هناك مَن يمكننا دعوته بصورة لائقة لحضور هذه المناسبة. ومن الجائز أن شعورنا بأن وضعنا فى اللقاء ليس على ما يرام علاوة على عدم ارتياحنا إلى المكان تسببا فى ازدياد توتر نوريكو تجاه المقابلة عما قد تكون عليه لو اختلفت الظروف. على أية حال ألفيت الأسابيع المفضية إلى اللقاء أسابيع عصيبة.

كثيرًا ما كانت تعود إلى المنزل من مكتبها وتبدى من فورها تعليقًا مثل: "ماذا كنتَ تصنع طيلة النهار يا أبي؟ أحسبك كنتَ تتجول فقط بلا هدف فى المنزل كما هى عادتك." وبغض النظر عن "التجول بلا هدف"، انشغلتُ فى الواقع بمحاولاتى لضمان نتيجة مرضية لمفاوضات الزواج لكن لأنى اعتقدت وقتها أنه من المهم ألا أقلقها بتفاصيل سير الأمور، ما كنتُ أفه سوى بعبارات مبهمة عن يومى، فأعطيتها الفرصة لتستمر فى تلميحاتها. وعندما أستعيد ما حدث متدبرًا إياه، أفطن إلى أن عدم مناقشتنا لأمور معينة بصراحة ربما فاقم من توتر نوريكو، وربما حالت مفاتحة أكثر صراحة من جانبى دون العديد من المحادثات المزعجة التى دارت بيننا طيلة تلك الفترة.

أستدعى مثلاً بعد ظهيرة أحد الأيام حين وصلتْ نوريكو إلى البيت وأنا أقلم بعض شجيرات الحديقة. ألقت على من الشرفة تحية مهذبة كل التهذب قبل أن تختفى مجددًا فى المنزل. بعدها بدقائق قليلة كنتُ أجلس فى الشرفة، أتطلع إلى الحديقة لأقيّم ما خلفه عملى من أثر. ظهرتْ نوريكو ببعض الشاى بعد أن أبدلتْ ثيابها بالكيمونو. وضعتْ الصينية بيننا واتخذتْ مجلسها. أذكر أن كانت تلك الظهيرة واحدة من آخر تلك الظهائر الرائعة التى مرت علينا فى خريف العام المنصرم. كان ثمة ضوء رقيق يقع على أوراق النباتات. تتبعتْ نوريكو عينى المحدقة وقالت:

"لِم قلمتَ الخيزران هكذا يا أبي؟ تلوح لى الآن غير متوازنة."

"غير متوازنة؟ أتعتقدين هذا؟ أظنها متوازنة بما يكفى، فعليك أن تضعى في الاعتبار الموضع الذى تغلب فيه البراعم الصغيرة."

"يميل أبى إلى الإكثار من العبث. أظنك ستتلف تلك الشجيرة أيضًا."

"أتلف تلك الشجيرة أيضًا؟" قلتُ ملتفتًا إلى ابنتى. "ماذا تقصدين؟ أتزعمين أنى أتلفت شجيرات أخرى؟"

"لم تستعد الأزاليات شكلها السابق قط. هذا ما يحدث لمّا يتوافر عند أبى وقت طويل دون عمل أى شيء، ينتهى به الحال إلى العبث فيما لا يحتاج."

"معذرة يا نوريكو، لا أفهم جيدًا ما تعنينه، أتقولين إن الأزاليات غير متوازنة أيضًا؟"

تطلعتْ نوريكو إلى الحديقة ثانية ثم أرسلتْ تنهيدة: "كان يجب أن تدع الأمور فى حالها."

"آسف يا نوريكو لكننى أرى أن الخيزران والأزاليات فى تحسن كبير. لا أبصر بتاتًا للأسف جانبك "غير المتوازن"."

"طيب لا بد إذًا أن أبى فى طريقه إلى فقد بصره أو لعله مجرد ذوق سيئ."

"ذوق سيئ؟ ذلك رأى عجيب. تعلمين يا نوريكو أن الناس لم تربط إجمالاً بين الذوق السيئ واسمى."

قالت بنبرة متبرمة: "حسنًا، أنا أرى يا أبى أن الخيزران غير متوازنة وقد أفسدتَ كذلك تدلى الشجرة عليها."

جلستُ برهة محملقًا إلى الحديقة فى سكون ثم قلتُ فى آخر الأمر: "أجل،" وأومأتُ برأسى. "أظنك قد تشاهدينها على هذا النحو يا نوريكو، فأنت لم تتمتعى البتة بغريزة فنية، لا أنت ولا سيتسوكو، أما كنجى فقد اختلف عنكما. أنتما أيتها الفتاتين تشبهان أمكما. أذكر حقيقة أن أمك اعتادت أن تطلق بالضبط مثل هذه التعليقات الخاطئة."

"هل أبى خبير إلى هذا الحد فى تهذيب الشجيرات؟ لم أكن مدركة ذلك. آسفة."

"ما ادعيت أية خبرة. المسألة فقط هى أنى مندهش قليلاً لاتهامك إياى بالذوق السيئ، فهو اتهام غير مألوف فى حالتى، هذا كل ما هنالك."

"طيب يا أبى، أنا على ثقة أنها مسألة آراء."

"كانت أمك يا نوريكو قريبة الشبه بك، فهى لم تكن تتردد فى الإفصاح عن كل ما يدور بخلدها. أحسبها أمانة شديدة."

"أنا متأكدة أن أبى أكثر دراية بتلك المسائل، لا شك أن هذا لا يحتاج إلى جدال."

"أذكر أن أمك كانت أحيانًا تطلق تعليقاتها حتى وأنا أرسم. كانت تعلق على شيء ما فتجعلنى أغرق فى الضحك ثم تضحك هى أيضًا مسلمة بعلمها بالقليل عن هذه الأمور."

"وهكذا أتصور أن أبى كان دومًا محقًا بخصوص لوحاته أيضًا."

"يا نوريكو، هذا حديث لا طائل فيه. إلى جانب أنه إذا لم يعجبك ما فعلته بالحديقة، فمرحبًا بك أن تخرجى إلى هناك وتفعلى ما يحلو لك لتصحيح الأوضاع."

"هذا لطف كبير منك يا أبى لكن متى تقترح أن أقوم بهذا؟ ليس لدى اليوم بطوله مثلما هو متاح لأبى."

"ماذا تعنين يا نوريكو؟ كان يومى مشحونًا." رمقتُها غاضبًا لحظة إلا أنها ما فتئت ترنو إلى الحديقة والضجر يكسو وجهها. استدرت وتنهدتُ قائلاً: "إنما هذا حديث لا طائل فيه. كانت أمك على الأقل تقول مثل تلك التعليقات لنضحك عليها معًا."

فى مثل تلك اللحظات كان مغريًا بحق أن أبين لها مدى ما كنتُ فى الحقيقة أبذله لمصلحتها. ولو كنتُ قد فعلت هذا، كانت ابنتى ستذهل لا مراء وأخالها كانت ستخجل من سلوكها تجاهى. فمثلاً فى ذلك اليوم تحديدًا قصدتُ حى ياناجاوا حيث اكتشفتُ أن كورودا يعيش هناك.

فى النهاية لم يكن اكتشاف مكان كورودا بالمهمة الشاقة. فأستاذ الفن بكلية يوماشى – بمجرد أن أقنعته بنواياى الحسنة – لم يكتف بمنحى العنوان بل حكى لى ما جرى لتلميذى السابق خلال هذه السنوات الماضية. البادى أن كورودا تحسنت ظروفه منذ إطلاق

سراحه فى نهاية الحرب. تلك هى أحوال هذه الدنيا، منحته سنون السجن أوراق اعتماد قوية وحرصت مجموعات معينة على الترحيب به والعمل على الوفاء باحتياجاته. ومن ثم لم يجد صعوبة كبيرة فى إيجاد عمل – كانت فى الأغلب وظائف تدريس صغيرة – أو فى الحصول على الأدوات لاستئناف الرسم. ثم تعين فى وظيفة مدرس رسم بكلية يوماشى قرب مستهل الصيف الفائت.

قد يبدو غريبًا نوعًا ما أن يصدر عنى الآن هذا الكلام غير أنى سررت – بل وانتابنى نوع من الافتخار – عندما سمعتُ بتطور مهنة كورودا. إلا أنه من الطبيعى فحسب أن يواصل – رغم كل شيء – معلمه السابق فخره بهذه التطورات حتى لو شاءت الظروف أن يغدو المعلم والتلميذ غريبين.

لم يكن كورودا يقيم فى حى راق. فقد سرت فترة من الوقت عبر حارات ضيقة تغص بنزل متهدمة قبل أن أبلغ ميدانًا مرصوفًا بالأسمنت يشبه ساحة مصنع أمامية. أبصرتُ بعض الشاحنات الواقفة عبر الميدان، وإلى أبعد منها وراء سور من السلك قامت جرافة تهز الأرض هزًا. أذكر أنى وقفت أراقب الجرافة بضع لحظات قبل أن أدرك أن المبنى الضخم الجديد الذى يلوح فوقى هو فى الحقيقة مبنى كورودا.

صعدتُ إلى الطابق الثانى حيث ألفيت ولدين صغيرين يركبان دراجة ثلاثية جيئة وذهابًا فى الردهة. بحثتُ عن باب منزل كورودا.

لم تلق رنتى الأولى إجابة غير أنى كنت وقتها ماضى العزم على إتمام اللقاء فقرعتُ الجرس مرة أخرى.

انفتح الباب عن شاب جذاب فى حوالى العشرين من عمره.

"أنا بحق آسف" – تكلم بجدية شديدة – "لكن السيد كورودا ليس بالمنزل حاليًا. هل حضرتك يا سيدى زميله فى العمل؟"

"شيء من هذا القبيل. ثمة موضوعات قليلة أبغى مناقشتها مع السيد كورودا."

"فى هذه الحالة تفضل بالدخول والانتظار. أنا متأكد أن السيد كورودا لن يغيب طويلاً وسيأسف للغاية إن فاتته مقابلتك."

"لكنى لا أريد أن أزعجك."

"على الإطلاق يا سيدى. أرجوك، أرجوك تفضل بالدخول."

كانت الشقة صغيرة، ومثلها مثل العديد من هذه الشقق الحديثة ليست لها ردهة بالمعنى المعروف، إذ انبسطت الحصيرة بعد سلمة صغيرة تبعد عن الباب الرئيسى بمسافة قليلة. اتسم المكان بالترتيب وتزينت الحوائط بعدد من اللوحات والمعلقات. طغى ضوء الشمس على الشقة من خلال نوافذ عريضة تنفرج عن شرفة ضيقة. نمت إلينا ضوضاء الجرافة آتية من الخارج.

"آمل يا سيدى ألا تكون فى عجلة من أمرك،" أنهى الشاب وهو يحط وسادة لأجلس عليها. "إلا أن السيد كورودا لن يغفر لى قط لو

رجع وعلم أنى تركتك ترحل. أرجوك اسمح لى أن أعد بعض الشاى."

"يا للكرم" قلتُ وأنا أتخذ مجلسى. "هل أنت تلميذ السيد كورودا؟"

فرت من الشاب ضحكة خفيضة النبرات: "من عطف السيد كورودا أنه يشير إلى بأنى تلميذه الذى يتبناه فنيًا رغم أنى أنا نفسى أشك فى استحقاقى لمثل هذا اللقب. اسمى إنشى. كان السيد كورودا معلمى، والآن رغم ارتباطاته المرهقة فى كليته، ما زال يتكرم بالاعتناء بعملى."

"حقًا؟"

ترامت إلى أذنى ضوضاء الجرافة وهى تعمل بالخارج. حام الشاب فى المكان بارتباك لحظة أو اثنتين ثم استأذن قائلاً: "سأعد بعض الشاى بعد إذنك."

حينما ظهر مرة ثانية بعدها بلحظات قلائل، أشرت إلى لوحة معلقة على الحائط: "إن أسلوب السيد كورودا الفنى لا تخطئه العين."

ما إن نبستُ بهذا التعليق حتى ضحك الشاب ونظر متحرجًا إلى اللوحة وصينية الشاى لا تزال بين يديه:

"للأسف يا سيدى لا ترقى تلك اللوحة إلى مستويات السيد كورودا."

"أليست عملاً من أعماله؟"

"إنها للأسف يا سيدى واحدة من محاولاتى الخاصة. كان معلمى كريمًا كرمًا لا حدود له أن عدها جديرة بالعرض."

"فعلاً؟ حسنًا، حسنًا."

أخذتُ أمعن النظر فى اللوحة بينما وضع الشاب الصينية فوق مائدة منخفضة بجانبى ثم اتخذ مجلسه.

"أعملك ذاك فعلاً؟ إنك تتمتع بموهبة كبيرة، موهبة كبيرة بحق."

أرسل ضحكة أخرى تشى بارتباكه ثم قال: "من حسن طالعى أن السيد كورودا معلمى لكنى للأسف ما زلت فى حاجة إلى تعلم الكثير."

"وكنتُ أنا على يقين بأنها مثال لعمل من أعمال السيد كورودا، فضربات الفرشاة لها نفس خصائص أعماله."

أثار الشاب جلبة خرقاء بإبريق الشاى كما لو كان غير واثق مما سيقوم به. شاهدتُه يرفع غطاء الإبريق ويحملق إلى ما بداخله.

"ينصحنى السيد كورودا على الدوام بأن أحاول أن أرسم بأسلوب أكثر تفردًا لكنى أجد الكثير مما يدعو إلى الإعجاب فى أساليب السيد كورودا وقلما أستطيع أن أقاوم تقليده."

"ليس عيبًا أن تقلد معلمك برهة من الوقت، فالمرء يتعلم الكثير بتلك الطريقة. لكنك ستطور أفكارك وتقنياتك الخاصة فى الوقت

المناسب، فأنت شاب ذو موهبة كبيرة ما فى ذلك شك. نعم، أنا واثق أن مستقبلاً مرموقًا ينتظرك. لا غرو أن السيد كورودا يوليك عنايته."

"إن أفضال السيد كورودا على لا تعد ولا تحصى. فكما ترى أنا حتى أقيم هنا فى شقته. جئتُ هنا منذ قرابة أسبوعين، فقد طُردتُ من مسكنى السابق وهب السيد كورودا لنجدتى. يتعذر على أن أخبرك يا سيدى بكل ما صنعه من أجلى."

"أتقول إنك طُردتَ من محل سكنك؟"

"أؤكد لك يا سيدى،" قال بضحكة خافتة، "أنى دفعت الإيجار لكنى لم أقدر مهما حاولتُ أن أتحاشى تلطيخ الحصيرة بالألوان، فطردنى صاحب البيت فى النهاية."

أطلق كلانا الضحكات ثم قلت:

"أنا آسف، ما قصدتُ أن أبدى عدم التعاطف. كل ما هنالك هو أنى أذكر تعرضى لمثل تلك المشاكل بالضبط فى مستهل حياتى. لكنك سرعان ما ستجد الظروف الملائمة للعمل إن ثابرتَ، أؤكد لك هذا."

ضحك كلانا ثانية.

"حضرتك مشجع جدًا" نبس الشاب وطفق يصب الشاى. "لا أظن أن السيد كورودا سيتأخر. أرجوك لا تتعجل فى الرحيل. سوف يسعد السيد كورودا أيما سعادة حين تتهيأ له الفرصة ليشكرك على كل ما بذلته."

نظرتُ إليه بعينين تنطقان بالدهشة: "أتحسب أن السيد كورودا يرغب فى شكري؟"

"معذرة يا سيدى، أنا خلتك من جمعية كوردون."

"جمعية كوردون؟ آسف، ما هى تلك الجمعية؟"

سدد إلى الشاب نظرة سريعة وقد عاوده بعض من سالف اضطرابه ثم قال: "آسف يا سيدى، إنها غلطتى، فقد خلتك من جمعية كوردون."

"لا صلة لى بها للأسف. لستُ أنا إلا واحد من معارف السيد كورودا القدامى."

"آه. زميل سابق؟"

"أجل. إذا جاز القول." حدقتُ إلى أعلى مجددًا نحو لوحة الشاب المعلقة على الحائط ثم تفوهتُ: "أجل، بالفعل. موهوب جدًا. موهوب جدًا بحق". كنتُ أعى الآن أن الشاب يتطلع إلى بوجه متفحص إلى أن سأل فى آخر الأمر:

"آسف يا سيدى، لكن هل لى أن أتعرف بك؟"

"آسف، لا بد وأنك تحسبنى وقحًا. اسمى أونو."

"مفهوم."

قام الشاب واتجه إلى النافذة. راقبتُ البخار لحظة أو اثنتين وهو يتصاعد من قدحى الشاى الموضوعين على المائدة.

"هل سيتأخر السيد كورودا؟" سألتُه فى النهاية.

ظننت لأول وهلة أن الشاب لن يرد على لكنه قال دون أن يشيح بوجهه عن النافذة: "ربما لو لم يعد سريعًا، لا يتحتم عليك أن تعطل روحك عن أعمالك الأخرى أكثر من ذلك."

"سأتريث قليلاً إذا سمحتَ، بما أنى قطعت الرحلة إلى هنا."

"سأنبئ السيد كورودا بزيارتك وقد يبعث لك خطابًا."

وبالخارج فى الردهة بدا وكأن الأطفال يتصايحون ويخبطون دراجتهم بالحائط ليس بمبعد عنا. استوقفنى لحظتها كيف ظهر الشاب الواقف عند النافذة كالطفل العابس.

"اغفر لى قولى هذا يا سيد إنشى، أنت غر صغير، ربما حقًا لم تكن سوى مجرد غلام أول ما تعرفتُ إلى السيد كورودا. أود أن أطلب منك ألا تقفز إلى النتائج حول شئون تجهل تفاصيلها الكاملة."

قال وهو يتحول إلى: "تفاصيلها الكاملة؟ عذرًا يا سيدى، هل أنت نفسك على دراية بالتفاصيل الكاملة؟ أتدرى ما كابده؟"

" يا سيد إنشى إن معظم الأمور أعقد مما تتراءى. فشباب جيلك ينزعون إلى رؤية الأشياء ببساطة مخلة. على أية حال لا مغزى من جدالنا الآن فى هذه المواضيع. إذا لم يكن لديك مانع، سوف أنتظر السيد كورودا."

"أود أن أقترح يا سيدى ألا تؤخر نفسك عن أعمالك الأخرى أكثر من ذلك. سوف أُبلغ السيد كورودا حين يعود." كلفتْه نبرته

المهذبة غاليًا من ضبط النفس حتى تلك اللحظة لكن يبدو الآن أنه قد فقد سيطرته على نفسه، إذ قال: "لا أكتمك يا سيدى، أنا مشدوه من جرأتك، أن تأتى هنا كما لو كنتَ مجرد صديق يزور صديقه."

"لكنى بالفعل صديق يزور صديقه. واسمح لى أن أقول إنى أخال الأمر يرجع إلى السيد كورودا فى تحديد ما إذا كان يود استقبالى بوصفى صديقًا أم لا."

"يا سيدى، لقد أصبحتَ وثيق المعرفة بالسيد كورودا وفى حكمى أنه من الأفضل أن ترحل. فلن يشاء أن يراك."

تنهدتُ ملء صدرى ثم نهضتُ. واصل الشاب النظر من النافذة. وعندما تناولتُ قبعتى من مشجب المعاطف، استدار ثانية: "التفاصيل الكاملة يا سيد أونو،" فاه وصوته يحمل نبرة غريبة من رباطة الجأش. "الواضح أنك أنت الجاهل بالتفاصيل الكاملة وإلا كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا على هذا النحو؟ أحسبك مثلاً يا سيدى ما دريت قط ما حدث لكتف السيد كورودا؟ حل به ألم رهيب بيد أن الحراس أهملوا الإبلاغ عن الإصابة ولم تلق العناية الطبية حتى نهاية الحرب. لكنهم بالطبع تذكروها جيدًا كلما قرروا أن يوسعوه ضربًا من جديد. خائن. هكذا كانوا يدعونه. خائن. كل دقيقة من كل يوم. لكننا نعلم جميعًا الآن مَن هم الخونة الحقيقيون."

انتهيت من ربط الحذاء واتجهتُ نحو الباب.

"يا سيد إنشى أنت أصغر من أن تعرف كنه ذلك العالم وتعقيداته."

"نحن جميعًا نعلم الآن مَن هم الخونة الحقيقيون، وما زال العديد منهم مطلقى السراح."

"ستخبر السيد كورودا أنى كنت هنا؟ قد يتكرم ويرسل لى خطابًا. يوم سعيد يا سيد إنشى."

لم أسمح بالقطع لكلمات الشاب بإقلاق مضجعى غير أن احتمالية معاداة كورودا لذكراى كما أوحى إنشى كانت جد باعثة على القلق وذلك فى ضوء مفاوضات زواج نوريكو. على كل كان واجبًا على كأب أن أواصل مسلكى عليٍ كراهتى له. فعند عودتى إلى المنزل بعد ظهر ذلك اليوم، كتبتُ خطابًا لكورودا أعبر فيه عن رغبتى فى لقائه ثانية ولا سيما نظرًا لأن فى جعبتى موضوعًا ذا حساسية وأهمية أود أن أناقشه معه. كانت نبرة الخطاب محبة تنم عن الاسترضاء، لذا داهمتنى خيبة أمل للرد البارد المقتضب اقتضابًا مهينًا الذى تلقيته بعدها بأيام قلائل.

كتب تلميذى السابق: "ليس هناك ما يدعونى إلى الاعتقاد بأن لقاء بيننا سوف يثمر عن أى شيء ذى قيمة. شكرًا على تفضلك بالعروج على منذ بضعة أيام بيد أنى أستشعر أنه لا يتعين على أن أجشمك عناء الوفاء بمثل تلك الواجبات."

أعترف أن مسلك كورودا ألقى بمسحة من الكآبة على مزاجي؛ فقد أفسد بالتأكيد تفاؤلى بنجاح مفاوضات نوريكو. وبرغم أنى كما ذكرتُ أخفيت عنها تفاصيل محاولاتى لمقابلة كورودا، أحست ابنتى

يقينًا بأن الموضوع لم ينته إلى حل مُرض مما أسهم بلا ريب فى قلقها.

ففى يوم اللقاء المشترك نفسه، لاحت ابنتى فى توتر ما بعده توتر، فاعترانى القلق من الانطباع الذى سوف تخلفه ليلتها لدى آل سايتو الذين كانوا أنفسهم مصممين على إظهار ثقة سلسة لا تخلو من هدوء. وقرب نهاية الظهيرة شعرتُ أنه من الحكمة أن أجرب التفريج عنها بعض الشيء. كان هذا دافعى إلى التعليق عليها وهى تمر عبر حجرة الطعام حيث كنتُ أجلس للقراءة:

"تدهشنى يا نوريكو قدرتك على قضاء اليوم بطوله لا تقومين بشيء سوى هندمة مظهرك. إنه ليس احتفال الزفاف نفسه."

"هذه هى عادة أبى أن يسخر من الآخرين ثم لا يكون هو نفسه جاهزًا بشكل ملائم،" ردت بلهجة سريعة حادة.

"لن أحتاج سوى برهة لأهيئ من شأنى،" قلتُ ضاحكًا. "فانشغالك اليوم كله هكذا أمر فوق العادة."

"تلك هى مشكلة أبى. إنه متكبر زيادة على اللزوم لأن يستعد كما يجب لتلك المناسبات."

رفعتُ بصرى إليها دهشًا: "ماذا تعنين بـــ "متكبر زيادة على اللزوم"؟ إلام توحين يا نوريكو؟"

حانت من ابنتى التفاتة بعيدًا فيما كانت تعدل مشبك شعرها.

"ماذا تعنين يا نوريكو بـــ "متكبر زيادة على اللزوم"؟ إلام توحين؟"

"إن لم يرغب أبى فى إثارة جلبة حول شيء فى تفاهة مستقبلى، فذلك مفهوم تمامًا، فأبى فى النهاية لم يفرغ حتى من جريدته بعد."

"أنت الآن تبدلين كلامك، كنتِ تقولين شيئًا عن كونى "متكبرًا زيادة على اللزوم". لِم لا تفسرين ما قلتيه؟"

"أرجو فقط أن يبدو أبى حسن المظهر عندما يحين الوقت." نبستْ بهذه الكلمات ثم تعمدتْ الخروج من الحجرة.

فى ذلك الموقف كما حدث كثيرًا فى تلك الأيام الصعبة اضطررت إلى أن أتأمل التباين الجلى بين موقف نوريكو الحالى وموقفها السنة الماضية أثناء المحادثات مع عائلة مياك. إذ نعمتْ أيامها بالاسترخاء لدرجة وصلتْ تقريبًا إلى الرضا الكامل عن النفس؛ لكنها كانت بطبيعة الحال على معرفة جيدة بجيرو مياك وأخالها كانت واثقة من زواجهما ناظرة إلى المناقشات العائلية بوصفها مجرد رسميات مزعجة. ولا شك أن ما ألم بها من صدمة كان مريرًا، إنما يلوح لى من غير الضرورى أن تلقى بتلك التلميحات مثلما فعلتْ فى تلك الظهيرة. مهما يكن من أمر لم تساعد تلك المشادة التافهة على تهيئة نفسيتنا للقاء ولعلها أسهمت فيما جرى ليلتئذ بفندق متنزه كازوجا.

كان فندق متنزه كازوجا لسنوات عدة من بين ألطف الفنادق المقامة على الطراز الغربى فى المدينة؛ مع ذلك درجتْ الإدارة فى هذه الأيام على تصميم ديكور الغرف بأسلوب يدل على شيء من الابتذال – المراد منه بلا مراء لفت أنظار الزبائن الأمريكيين، إذ شاع المكان بينهم باعتباره "يابانيًا" بصورة ساحرة. برغم هذا نظرتُ إلى الغرفة التى حجزها السيد كيو بعين الرضا، فقد كانت أبرز سماتها إطلالة مشربياتها العريضة على المنحدر الغربى لجبل كازوجا حيث تتراءى أضواء المدينة من بعيد تحتنا. وإلى جانب هذا سادت الغرفة طاولة دائرية كبيرة وكراس ذات ظهور عالية، وعُلقتْ على أحد الجدران لوحة تعرفتُ رسامها وهو ماتسوموتو، فنان ربطتنى به معرفة سطحية قبل الحرب.

من الجائز بالفعل أن توتر المناسبة جعلنى أحتسى الخمر أسرع قليلاً مما انتويت، فذاكرتى عن تلك الأمسية ليست واضحة مثلما كان من المحتمل أن تكون. أتذكر حقًا أنى شكلت فى الحال انطباعًا مرضيًا عن تارو سايتو، الشاب الذى سئلتُ أن أفكر فى تزويجه ابنتى. فهو لم يظهر عليه فقط أنه شاب ذكى يقوى على تحمل المسؤولية إنما تجلى كذلك تمتعه بكل ما راقنى فى أبيه من سلوكيات حسنة وكياسة واثقة. وعندما لاحظتُ فى الحقيقة الأريحية والدماثة الجمة التى استقبلنا بهما تارو سايتو أنا ونوريكو أول وصولنا، عاودتنى ذكرى شاب آخر أوقع فى نفسى أثرًا قويًا فى موقف مماثل منذ بضع سنين – أعنى سويشى خلال لقاء زواج

سيتسوكو فيما كان يسمى أيامها فندق الإمبراطور. حامت أفكارى وهلة حول احتمالية أن تذبل بلا ريب دماثة تارو سايتو وحسن طبعه مع الوقت كما جرى لسويشى غير أن المرء يأمل بالتأكيد ألا يكابد تارو سايتو مطلقًا التجارب المنغصة التى يقال إن سويشى عاناها.

أما عن الدكتور سايتو نفسه، فقد بدا كما هو الحال أبدًا مهيمنًا على الحضور. ومع أن التعارف بيننا لم يتم قط كما ينبغى قبل ذلك المساء، عرف فى الواقع كلانا الآخر بضع سنوات، إذ اعتدنا تبادل التحية فى الشارع كاعتراف متبادل منا بصيت الآخر. وقد سلّمتُ كذلك على زوجته – امرأة مليحة فى الخمسين – إنما فى أحيان أقل؛ وقد فطنتُ إلى أنها شأنها شأن زوجها تتمتع باتزان جم، واثقة من قدرتها على التعامل مع ما قد يطرأ من مواقف محرجة. الفرد الوحيد فى عائلة سايتو الذى لم يبهرنى هو الابن الأصغر ميتسو الذى خمنتُ أنه فى أوائل العقد الثالث.

والآن عندما أسترجع تلك الأمسية، أوقن أن شكوكي فى الشاب ميتسو قد استثيرت بمجرد أن وقعتْ عليه عيناى. لم أزلِ غير موقن بالشرارة التى أطلقتْ أول تحذير – ربما لأنه ذكّرنى بالشاب إنشى الذى قابلتُه بشقة كورودا. على أية حال حين شرعنا فى تناول الطعام، ألفيت روحى متأكدًا أكثر فأكثر من هذه الشكوك. ومع أن ميتسو كان يتصرف وقتئذ بمنتهى الذوق الواجب، ثمة شيء فى نظراته التى كنتُ أضبطها أو فى الطريقة التى ناولنى بها السلطانية عبر المائدة جعلنى أستشعر عداوته واتهامه.

بعد عدة دقائق من تناولنا الطعام حينذاك، ورد ببالى خاطر مباغت؛ وهو أن موقف ميتسو لا يختلف حقيقة عن موقف بقية العائلة – غاية الأمر أنه لا يتحلى بمثل مهارتهم لإخفائه. فاعتدت منذ ذلك الحين أن أرمى ميتسو بنظرات خاطفة كما لو كان أوضح المؤشرات على حقيقة تفكير آل سايتو. لكن لأنه جلس بعيدًا عبر المائدة ولأن السيد كيو الجالس إلى جانبه شغله على ما يظهر بمحادثات مطولة، لم أطرق أى حديث ذى دلالة مع ميتسو فى تلك المرحلة من الأحداث.

أذكر أن السيدة سايتو علّقت فى إحدى المرات: "سمعنا أنك مغرمة بالعزف على البيانو يا آنسة نوريكو."

صدرت عن نوريكو ضحكة خافتة: "أنا لا أتدرب بما يكفى."

"اعتدتُ العزف عندما كنتُ أصغر لكنى الآن لا أتدرب أنا الأخرى. ليس لدينا نحن النساء متسع من الوقت لمثل هذه الهوايات، أليس كذلك؟"

"فعلاً،" أجابت ابنتى بنوع من العصبية.

"أنا عن نفسى لا أتذوق الموسيقى بتاتًا،" قاطع تارو سايتو الكلام رامقًا وجه نوريكو وهو ثابت الجنان. "الحق أن أمى تتهمنى دائمًا بعدم قدرتى على تمييز الألحان. ومن ثم لا أثق فى ذوقى الخاص فاضطر أن أستشيرها فى الملحنين الذين يجب أن أعجب بهم."

"كلام فارغ،" قالت السيدة سايتو.

"أتعلمين يا آنسة نوريكو؟ في مرة من المرات كانت معي مجموعة من التسجيلات لكونشيرتو بيانو من تأليف باخ وكنتُ مولعًا بها للغاية لكن أمي لم تنفك تنتقدها وتوبخني على ذوقي الرديء. وطبعًا لم تصمد آرائي أمام آراء أمي، ونتيجة لهذا نادرًا ما أستمع الآن لباخ. لكنك قد تستطيعين إنقاذي يا آنسة نوريكو، ألستِ مولعة بباخ؟"

"باخ؟" رانت علامات الارتباك لحظة على أسارير ابنتي ثم ابتسمتْ قائلة: "أجل، بالطبع. مولعة به جدًا."

"آه،" فاه تارو بنبرة المنتصر. "ستحتاج أمي الآن إلى إعادة النظر في ذوقها."

"ابني يتكلم كلامًا لا معنى له يا آنسة نوريكو. ما انتقدتُ أبدًا أعمال باخ بأكملها. لكن أخبريني، ألا تتفقين معي أن شوبان أبلغ فيما يخص العزف على البيانو؟"

"بالقطع،" ردت نوريكو.

مثل هذه الإجابات الجامدة طبعتْ سلوك ابنتي في أغلب الجزء الأول من الأمسية. قد أزعم أن هذا لم يغب تمامًا عن توقعاتي: فعندما تتوسط نوريكو أفراد العائلة أو أصدقاء مقربين، تدأب على اتخاذ سلوك ثرثار نوعًا ما، وكثيرًا ما تتصف بالظرف والبلاغة؛ غير أني طالما عهدتها في الجلسات الأكثر رسمية تواجه صعوبة في إيجاد اللهجة الملائمة؛ وبالتالي تعطي انطباعًا بأنها شابة يلفها الخجل.

أن يحدث هذا بالتحديد فى هذه المناسبة من بين كل المناسبات أمر يدفع إلى القلق؛ إذ تبدى واضحًا أن آل سايتو ليسوا من النوع التقليدى للأسر الذين يؤثرون أن تكون نساؤهم صامتات رزينات، وقد لاح حضور السيدة سايتو الطاغى مؤيدًا لهذه الفكرة. تكهنتُ فى الحقيقة بهذا وشددتُ فى استعداداتنا للقاء على أنه ينبغى لنوريكو أن تؤكد بالقدر الملائم على سجاياها الذكية المفعمة بالحياة، وقد وافقتنى ابنتى تمامًا على هذه الخطة. الحق أنها صرحت بإصرار متناه أنها تنوى التصرف بصراحة وبساطة حتى إنى خشيت أن تتمادى وتتجاوز حدود اللياقة. لذا بينما كنتُ أراقبها وهى تكافح لتقدم ردودًا بسيطة تتلون بالإذعان على أسئلة آل سايتو الفورية – وقد ندر أن برحتْ نظرتها الشاخصة سلطانيتها – وسعنى تخيل ما عانته من إحباط.

لكن باستثناء مشاكل نوريكو، بدا أن الحديث يتدفق بسهولة حول المائدة. وقد برهن الدكتور سايتو على الأخص أنه خبير بما ينعم به من قدرة على خلق جو هادئ بالمكان، حتى إنه لولا وعيى بحملقة الشاب ميتسو إلى، ربما كنتُ قد نسيت خطورة الموقف وقللت من حذرى. بإمكانى أن أذكر أن الدكتور سايتو استراح إلى الوراء فى كرسيه فى إحدى اللحظات وقال:

"الظاهر أن المزيد من المظاهرات نشبت اليوم فى وسط المدينة. أتعلم يا سيد أونو؟ كنتُ أستقل الترام هذه الظهيرة وركب رجل تتلون جبهته بكدمة كبيرة. جلس إلى جوارى، فسألتُه بالطبع إذا كان على ما يرام ونصحتُه بالذهاب إلى المستوصف. لكن أتعلم؟

اتضح أنه كان للتو عند الطبيب وكان لحظتها عاقد العزم على معاودة الانضمام إلى رفقائه المتظاهرين. ماذا تستنتج من ذلك يا سيد أونو؟"

كان حديث الدكتور سايتو عرضى بدرجة كافية لكن خالجنى الانطباع لحظة أن كل مَن كان يجلس إلى المائدة – بما فيهم نوريكو – امتنع عن الأكل لسماع إجابتى. احتمال كبير طبعًا أن هذا من شطحات خيالى لكنى بالفعل أذكر بمنتهى الوضوح أنى لمحت الشاب ميتسو وهو يراقبنى بحدة غريبة.

أجبته: "إن إيذاء الناس أمر يؤسف له بحق، لا ريب أن المشاعر تتصاعد حدتها."

قاطعتْ السيدة سايتو: "أنا متأكدة من صواب كلامك يا سيد أونو، لعل المشاعر تتصاعد بالفعل لكن يبدو أن الناس تتمادى الآن فى تلك المشاعر، فقد أصيب العديدون. على أن زوجى يدعى أن هذا للصالح العام وقد غاب عن فهمى حقًا مرماه."

توقعتُ أن يند عن الدكتور سايتو رد فعل لكن بدلاً من هذا خيم صمت لاح الانتباه يتركز فيه نحوى مجددًا.

فعلّقتُ: "كما تقولين، إصابة العديدين بالأذى أمر يؤسف له أشد الأسف."

"إن زوجتى يا سيد أونو تعطى فكرة خاطئة عنى كالمعتاد. لم أدع البتة أن كل هذا العراك محمود لكنى كنت أحاول إقناع زوجتى أن بهذه الأحداث معانى تتجاوز مجرد إيذاء الناس. لا شك أن الواحد

لا يريد أن يرى ضررًا يقع بالناس إلا أن الروح الكامنة – شعور الناس بالحاجة إلى التعبير بصراحة وبقوة عن أفكارها – هى الأمر الصحى، ألا تعتقد هذا يا سيد أونو؟"

لعلى ترددت لحظة؛ على كل تكلم تارو قبل أن أستطيع الرد.

"لكن من المؤكد يا أبى أن الأمور تخرج الآن عن نطاق السيطرة. إن الديمقراطية امتياز رائع غير أنها لا تعنى أن للمواطنين الحق فى إثارة الشغب متى اختلفوا فى إحدى القضايا. فنحن اليابانيون نظهر كالأطفال فى هذا المضمار. لم يزل علينا أن نتعلم كيفية النهوض بمسؤولية الديمقراطية."

قال الدكتور سايتو ضاحكًا: "ها هى حالة فريدة من نوعها. يبدو أن الأب فى هذه القضية على الأقل أكثر ليبرالية بمراحل من الابن. قد يكون تارو محقًا، فبلادنا فى هذه المرحلة أشبه بالطفل الصغير الذى يتعلم المشى والجرى بيد أنى أعتقد أن الروح الكامنة صحية. فالمسألة تعادل مشاهدة طفل نام وهو يجرى ويكشط ركبته. فالمرء لا يرغب فى أن يحول دون خروجه ويحبسه فى البيت. ألا تظن هذا يا سيد أونو؟ أم أنى ليبرالى زيادة على اللزوم كما يصر ابنى وزوجتى ؟"

ربما جانبنى الصواب مرة أخرى لأنى كما قلت احتسيت الخمر أسرع قليلاً مما انتويت لكن تراءى لى أن اختلاف الآراء المفترَض بين آل سايتو يحوى انسجامًا غريبًا، وفى غضون ذلك لاحظتُ أن نظرات الشاب ميتسو ترصدنى ثانية.

قلتُ: "آمل بالقطع ألا يتأذى آخرون."

أعتقد أن تارو سايتو غير دفة الموضوع عند هذه النقطة بأن سأل نوريكو عن رأيها فى أحد المراكز التجارية الذى افتُتح حديثًا بالمدينة وعاد الحديث وهلة إلى موضوعات أبسط.

إن هذه المناسبات ليست قطعًا هينة بالنسبة إلى أية عروس مرتقبة – فمن الظلم أن نطلب من شابة أن تصدر أحكامًا بالغة الحسم حول سعادتها فى المستقبل بينما هى ذاتها واقعة تحت مثل هذا التدقيق – لكن على أن أعترف أنى لم أتوقع أن تتأثر نوريكو بتوترها إلى هذا الحد. فمع تقدم الأمسية بدت ثقتها آخذة فى التضاؤل حتى ظهرتْ عاجزة عن أن تنطق سوى بـــ "نعم" أو "لا". أبصرتُ تارو سايتو وهو يبذل وسعه ليحمل نوريكو على الاسترخاء إلا أن المناسبة اقتضت ألا يبدو عليه الإلحاح الزائد، فانتهت محاولاته المرة بعد الأخرى لبدء محادثة طريفة بصمت مشوب بالحرج. وفيما كنتُ أشاهد محنة ابنتى، لفت نظرى مجددًا التباين بين مجريات الأحداث ولقاء السنة السابقة. كانت سيتسوكو وقتئذ موجودة فى إحدى زياراتها حتى تؤازر أختها غير أن نوريكو لاحت ليلتها فى غير حاجة إلى مساندتها. أذكر فى الحقيقة أنى تميزت غيظًا لمّا استمرت نوريكو وجيرو مياك فى تبادل النظرات العابثة عبر الطاولة وكأنهما يهزآن من رسمية المناسبة.

قال الدكتور سايتو: "أتتذكر يا سيد أونو آخر مرة التقينا فيها، اكتشفنا أن بيننا أحد المعارف المشتركين، السيد كورودا."

كنا فى هذا الوقت نقترب من نهاية الوجبة.

"آه نعم، فعلاً."

أشار الدكتور سايتو إلى الشاب ميتسو الذى ما تبادلتُ معه كلمة واحدة حتى وقتها: "يدرس ابنى فى الوقت الحالى بجامعة يوماشى حيث يُدرس الآن السيد كورودا."

"أحقًا؟" سنحت منى التفاتة إلى الشاب قائلاً: "إذن فأنت تعرف السيد كورودا حق المعرفة؟"

"ليست معرفة قوية. للأسف لستُ بارعًا فى الفنون واتصالى بأساتذة الفن محدود."

قال الدكتور سايتو مقاطعًا: "لكن السيد كورودا ذو سمعة طيبة، أليس كذلك يا ميتسو؟"

"هو كذلك بالفعل."

"كان السيد أونو ذات يوم من معارف السيد كورودا المقربين. أكنتَ تعلم بذلك؟"

"نعم، سمعتُ بهذا."

فى تلك اللحظة بدّل تارو الحديث من جديد:

"أتعلمين يا آنسة نوريكو؟ اعتقدت دومًا بنظرية تفسر عدم تذوق أذنى للموسيقى. فعندما كنتُ طفلاً، لم يضبط أبواى أبدًا درجات النغم الصحيحة بالبيانو. وفى كل يوم طوال معظم أعوام تكوينى،

كنتُ مجبرًا على الاستماع لأمى وهى تتدرب على بيانو نغماته نشاز. ألا تخالين أن هناك احتمالاً كبيرًا أن يكون هذا وراء كل متاعبي؟"

"نعم،" قالت نوريكو ثم غضت بصرها نحو الطعام.

"ها هو الرأي! كنتُ أؤكد دومًا أنها غلطة أمى وكانت هي توبخنى باستمرار كل هذه السنين لعدم تذوقى للموسيقى. لقد عوملتُ بظلم جائر، ألا توافقيننى يا آنسة نوريكو؟"

ابتسم ثغر نوريكو بدون أن يحر جوابًا.

عند تلك النقطة طفق السيد كيو – الذى كان بعيدًا عن الأنظار حتى لحظتها – يقص إحدى نوادره الكوميدية. ووفقًا لرواية نوريكو على الأقل كان لا يزال فى وسط حكايته عندما قاطعتُه بتحولى إلى الشاب ميتسو سايتو:

"تكلم السيد كورودا معك عنى بلا ريب."

رفع ميتسو عينيه بتعبير ملؤه الاضطراب.

"تكلم عنك يا سيدي؟" نبس بنبرة لم تنج من التردد. "أنا متأكد أنه ينوه بك كثيرًا لكنى للأسف لست وثيق الصلة بالسيد كورودا وعلى هذا..." تضاءل صوته وانسحبتْ نظراته إلى والديه التماسًا للعون.

"أنا على يقين،" تفوه الدكتور سايتو بلهجة داخلها نوع من التعمد أدهشنى، "أن السيد كورودا يتذكر السيد أونو جيدًا."

تطلعتُ إلى ميتسو ثانية: "لا أظن أن السيد كورودا يذكرني بالخير."

لاحت من الشاب التفاتة أخرى مثقلة بالحرج ناحية والديه، فتكلمتْ السيدة سايتو هذه المرة:

"بالعكس، أنا على ثقة أنه يقدرك أيما تقدير يا سيد أونو."

"البعض يا سيدة سايتو" – لعل صوتي ارتفع قليلاً – "يعتقد أن سيرتي المهنية تحمل تأثيرًا سلبيًا، تأثيرًا من الأحسن له الآن أن يُمحى ويُلقى في طي النسيان. وأنا لست جاهلاً بوجهة النظر تلك وأخال السيد كورودا ممن يؤيدونها."

"فعلاً؟" قد أكون مخطئًا بهذا الشأن لكني ظننت أن الدكتور سايتو يراقبني مثلما ينتظر المدرس أن يردد تلميذه قطعة محفوظات حفظها عن ظهر قلب.

"فعلاً، وأنا عن نفسي على أتم الاستعداد الآن لتقبل صحة هذا الرأي."

"أنا متأكد أنك تجور على روحك يا سيد أونو،" أنشأ تارو سايتو يقول إلا أني استأنفت سريعًا:

"هناك مَن يقولون إن أمثالي هم المسؤولون عما نزل بأمتنا هذه من فظائع. وأنا أعترف عن طيب خاطر أني ارتكبت العديد من الأخطاء فيما يخصني وأقر أن أكثر ما صنعتُ ألحق في نهاية

المطاف ضررًا بأمتنا وأن تأثيرى كان جزءًا من تأثير أكبر ترتبتْ عليه معاناة لا توصف لشعبنا. أعترف بهذا، كما ترى يا دكتور سايتو أعترف به من غير تردد."

مال الدكتور سايتو إلى الأمام وقد علت ملامحه الحيرة.

"لا تؤاخذنى يا سيد أونو، أتقول إنك غير راض عما أديتَه من عمل؟ عن لوحاتك؟"

"لوحاتى، تعاليمى. أنا كما ترى يا دكتور سايتو أعترف بهذا بلا أدنى تردد. كل ما فى وسعى أن أقوله هو إنى تصرفت وقتها بحسن نية. إذ رسخ فى اعتقادى بإخلاص لا مزيد عليه أنى أحقق الخير لأبناء بلدى لكنى الآن كما ترى لا أهاب الاعتراف بخطأى."

"أنا متيقن أنك تقسو على روحك يا سيد أونو،" قال تارو سايتو بصوت مرح ثم تلفت إلى نوريكو: "أخبرينى يا آنسة نوريكو، هل أبوك متزمت دائمًا إلى هذا الحد مع نفسه؟"

أدركتُ أن نوريكو كانت تحدجنى بنظرات ذاهلة، وربما نجم عن ذلك أن تخلت عن حذرها مع تارو لتجرى ثرثرتها المعتادة على شفتيها للمرة الأولى فى ذلك المساء.

"أبى ليس متزمتًا على الإطلاق. أنا التى يجب أن أتزمت معه وإلا لن يستيقظ أبدًا لتناول الإفطار."

"حقًا؟" قال تارو سايتو مبتهجًا لانتزاعه ردًا أقل رسمية من نوريكو. "أبى أيضًا يتأخر فى النوم. يقولون إن الكبار ينامون أقل منا إنما يبدو بناء على تجربتنا أن هذا غير صحيح بالمرة."

ضحكتْ نوريكو قائلة: "أخالها مشكلة تخص الآباء فقط، أنا واثقة أن السيدة سايتو لا يصعب عليها الاستيقاظ."

"رائع،" عقّب الدكتور سايتو موجهًا كلامه إلى، "إنهما يسخران منا ونحن لم نخرج حتى بعد من الحجرة."

لا أريد أن أدعى أن الخطبة برمتها كانت معلقة فى الميزان حتى تلك اللحظة لكنى أحسست بلا مراء أن اللقاء انقلب عند تلك النقطة من لقاء مربك وربما منذر بكارثة إلى أمسية ناجحة. فقد رحنا نأخذ بأطراف الحديث ونحتسى الساكى بعد الوجبة بفترة طويلة. وبحلول الوقت الذى أقبلتْ فيه سيارات التاكسى، تجلى إحساس بأننا جميعًا على وفاق، والأهم من ذلك بدا واضحًا أن تارو سايتو ونوريكو، على تحفظهما، قد تآلفا.

لا أزعم بالطبع أنى ما تجرعت الألم خلال لحظات معينة من ذلك المساء؛ ولا أدعى أنى كنت سألقى بهذا النوع من التصريح حول الماضى بمنتهى السهولة ما لم تكرهنى الظروف على حكمة الإقدام على هذا. ومع ذلك لا بد أن أقول إنه يصعب على فهم كيف يرغب أى إنسان يقدر احترامه لذاته أن يتحاشى مسؤولية أفعاله السابقة فترة طويلة؛ لعله ليس بالأمر الميسور على الدوام غير أنه لا سبيل إلى

الشك فى أن المرء يفوز بالرضا والكرامة عند مجابهة ما اقترفه من أخطاء فى حياته. ومهما يكن ليس ثمة قطعًا أى عار شنيع فى الأخطاء المرتكبة بحسن نية، فالمعيب بحق هو العجز عن الإقرار بها أو عدم الرغبة فى ذلك.

عندك شينتارو مثلاً - الذى يبدو أنه حصل مصادفة على وظيفة التدريس التى رغب فيها كل الرغبة. فى رأيى أن شينتارو كان سيبيت اليوم رجلاً أكثر اغتباطًا إذا ما واتته الشجاعة والأمانة للاعتراف بما قام به فى الماضى. أظنه من الجائز أن رد فعلى البارد فى تلك الظهيرة بعد بداية العام الجديد مباشرة أقنعه بتغيير مسلكه فى التعامل مع اللجنة بخصوص ملصقات الأزمة الصينية لكن تخمينى أن شينتارو أبى إلا أن يمارس نفاقه الحقير سعيًا وراء مأربه. والحق أنى صرت أعتقد الآن أن طبع شينتارو عابه دومًا قدر من المكر والخداع لم أنتبه إليه حقًا فيما خلا.

عندما كنتُ عند السيدة كاواكامى فى إحدى الأمسيات القريبة، فاتحتُها فى المسألة: "أتدرين يا أوباسان؟ يعترينى بعض الشك أن شينتارو لم يكن قط رجلاً ساذجًا كما أرادنا أن نعتقد. فهذه طريقته فحسب للتفوق على الآخرين وتسيير الأمور على هواه. فالأفراد ممن هم على شاكلة شينتارو إن لم يرغبوا فى أداء عمل ما، يتظاهرون بأنهم تائهون من غير عون وأنهم قد أُعفوا من كل مهمة."

"حسبك يا معلم." رشقتني السيدة كاواكامي بنظرة مستنكرة رافضة على نحو مفهوم إساءة الظن بشخص ظل مدة طويلة من أحسن زبائنها.

استطردتُ: "تأملي مثلاً يا أوباسان مهارته في تحاشي الحرب. ففي الوقت الذي كان فيه الآخرون يفقدون كل غال، اكتفي شينتارو بالعمل في ذلك الأستوديو الصغير الخاص به وكأن لا شيء يقع حوله."

"لكن يا معلم ساق السيد شينتارو مريضة."

"سواء كانت مريضة بالفعل أم لا، استدعوا الكل إلى الحرب. وجدوه بطبيعة الحال في النهاية إلا أن الحرب انفضت خلال أيام. أتعلمين يا أوباسان أن شينتارو أخبرني مرة أنه خسر أسبوعين من العمل من جراء الحرب. هذا ما كلفتْ الحرب شينتارو. صدقيني يا أوباسان، إن كثيرًا من العلل تتوارى وراء المظهر الطفولي لصديقنا السابق."

"طيب، على أية حال،" قالت السيدة كاواكامي في ضجر، "يبدو أنه لن يرجع إلى هنا بعد الآن."

"فعلاً يا أوباسان. البادي أنك فقدتِه إلى الأبد."

مالت السيدة كاواكامي إلى حافة الطاولة وهي تمسك في يدها بسيجارة تحترق، كانت نظراتها تتردد بين أرجاء حانتها الصغيرة. كنا كالعادة بمفردنا في المحل. تسللتْ أشعة شمس أول المساء من

شبكات البعوض المثبتة على النوافذ، فتبدت الحجرة أترب وأعتق مما تكون عليه بمجرد أن يحل الظلام وتضيئها مصابيح السيدة كاواكامى. وبالخارج ما فتئ العمال يشتغلون. كان صوت الدق يدوى بالحانة من أحد الأماكن طوال الساعة المنصرمة والمكان يهتز بأكمله المرة تلو الأخرى بفعل موتور شاحنة أو انفجار ناتج عن آلة الثقب. وفيما تتبعتُ نظرة السيدة كاواكامى حول المكان فى تلك الليلة الصيفية، عنّ لى خاطر ما، وهو أن حانتها الصغيرة ستبدو مكانًا ضيقًا مهلهلاً فى غير محله وسط الأبنية الأسمنتية الضخمة التى تشيدها شركة المدينة حولنا فى نفس تلك اللحظة، فاقترحتُ على السيدة كاواكامى:

"أتعلمين يا أوباسان؟ يتعين عليك حقًا أن تفكرى بجدية فى قبول هذا العرض والانتقال إلى مكان آخر، إنها فرصة عظيمة."

"لكن مر على وقت طويل وأنا هنا،" قالت ولوحتْ بيدها لتبدد الدخان المتصاعد من سيجارتها.

"بإمكانك يا أوباسان افتتاح مكان جديد أنيق فى حى كيتاباشى أو حتى فى هونشو وتأكدى أنى سأزورك متى مررت بالمنطقة."

أطرقتْ السيدة كاواكامى هنيهة كمن تستمع إلى شيء ما وسط ما أحدثه العمال من أصوات بالخارج ثم أشع وجهها بابتسامة قائلة: "كان هذا الحى آية فى الروعة فى يوم من الأيام، أتتذكر يا معلم؟"

أجبت ابتسامتها بمثلها غير أن شفتى لم تنفرجا عن جواب. كانت المنطقة القديمة جميلة بلا مراء، فقد استمتعنا جميعًا بأوقاتنا،

وكانت الروح التى اقترنتْ بالمزاح والجدال مخلصة على الدوام لكن عل نفس تلك الروح لم تكن رامية دومًا إلى الخير. وشأن العديد من الأشياء الآن، قد يكون ذلك العالم الصغير انقضى بلا رجعة. ساورتنى رغبة ليلتئذ فى أن أقول هذا للسيدة كاواكامى لكن قدّرتُ أنه ستعوزني اللباقة إن فعلتُ. فمن الواضح أن الحى القديم يحتل مكانة عزيزة فى قلبها – فقد كرستْ له أغلب حياتها وطاقتها – وبوسع الإنسان بالتأكيد أن يتفهم عزوفها عن قبول فكرة زواله إلى الأبد.

نوفمبر ١٩٤٩

ما زالت ذاكرتى عن المرة الأولى على الإطلاق التى قابلتُ فيها الدكتور سايتو قوية للغاية مما جعلنى واثقًا كل الثقة من دقتها. لا بد وأنها كانت منذ عهد لا يربو على ست عشرة سنة في اليوم الذى أعقب انتقالى إلى منزلى. أذكر أنه كان يومًا صيفيًا تسطع شمسه وكنتُ بالخارج أضبط السور أو لعلى كنت أثبت شيئًا بالمدخل متبادلاً التحية مع مَن يمر من جيرانى الجدد. أوليت الطريق ظهرى برهة وعيت بعدها أن شخصًا يقف خلفى، الظاهر ليشاهد ما أصنع. استدرت لأجد رجلاً فى مثل عمرى تقريبًا ينعم النظر فى اسمى المنقوش حديثًا على عمود البوابة.

"إذن فأنت السيد أونو، حسنًا، حسنًا، إن هذا لشرف حقيقى، شرف حقيقى أن يسكن شخص فى مثل منزلتك هنا فى حينا. أنا عن نفسى مستغرق فى عالم الفن الرفيع. أعرفك بنفسى، أنا سايتو من جامعة مدينة الإمبراطور."

"الدكتور سايتو؟ ياه، إن الشرف لنا، سمعتُ عنك الكثير يا سيدى."

أعتقد أننا أخذنا نتحدث عدة لحظات هناك خارج مدخل بيتى، وأنا متأكد تمام التأكد أن الدكتور سايتو نوه مرارًا وتكرارًا فى نفس تلك الواقعة بعملى وسيرتى المهنية. أذكر أنه قبل أن يمضى فى سبيله

نازلاً التل ردد كلمات فحواها: "إنه لشرف عظيم يا سيد أونو أن يقيم بحينا فنان له مثل مكانتك."

منذ ذلك الحين داومتُ أنا والدكتور سايتو على تبادل التحية بكل احترام كلما اتفق أن تقابلنا. صحيح على ما أخال أنه نادرًا ما توقفنا لإجراء أحاديث طويلة عقب تلك المقابلة الأولى إلى أن خلقتْ الأحداث الأخيرة مودة أكبر بيننا غير أن ذاكرتى عن ذاك اللقاء الأول وتعرُف الدكتور سايتو اسمى بقائمة البوابة واضحة بقدر كاف لأن أؤكد بشيء من الثقة أن ابنتى الكبرى سيتسوكو أخطأتْ على الأقل فى بعض الأمور التى حاولت الإلماح إليها فى الشهر المنقضى. فليس من المحتمل مثلاً أن الدكتور سايتو غمضتْ عليه هويتى حتى ألزمتْه مفاوضات الزواج فى العام المنصرم على اكتشاف شخصى.

ولأن زيارتها هذه السنة كانت بالغة القصر ولأنها قضتها فى بيت نوريكو وتارو الجديد بحى إيزوميماشى، كانت تمشيتى مع سيتسوكو فى ذاك الصباح عبر متنزه كاواب جد فرصتى الوحيدة للتحدث إليها كما ينبغى. ليس من المستغرب إذًا أن أقلب تلك المحادثة فى عقلى فترة من الوقت بعدها، وأظنه معقولاً أن أجد نفسى الآن ساخطًا أكثر فأكثر على أشياء معينة قالتها لى يومذاك.

على أنى لم أستطع حينها أن أعمل فكرى فى كلمات سيتسوكو لأنى أذكر أن مزاجى كان على ما يرام، سعيد بصحبة ابنتى والاستمتاع بالمشى عبر متنزه كاواب بعد انقطاع. جرى هذا منذ

أكثر من شهر بالضبط عندما كانت الشمس، كما ستذكر، تشرق نهارًا رغم تساقط أوراق الشجر. كنتُ أنا وسيتسوكو نشق سبيلنا فى طريق مشجر واسع يخترق وسط المتنزه. بكرنا إلى موعد اتفقنا عليه لمقابلة نوريكو وإشيرو بجانب تمثال الإمبراطور تيشو، فرُحنا نسير على مهل متوقفين من حين إلى آخر لنتطلع بعيون تنطق بالإعجاب إلى مشاهد الخريف الطبيعية.

علك ستوافقنى فى أن متنزه كاواب هو أكثر متنزهات المدينة إرضاء للزائرين؛ فبعد أن يسير المرء برهة فى تلك الشوارع المزدحمة الضيقة بحى كاواب، ينتعش انتعاشًا لا حد له عندما يلفى نفسه فى أحد تلك الطرق الطويلة الرحبة ذات الأشجار. غير أنك إن كنت حديث العهد بالمدينة ولستَ مطلعًا على تاريخ متنزه كاواب، ربما وجب على أن أشرح لك هنا لِم استحوذ المتنزه دومًا على اهتمام خاص فى قلبى.

هنا وهناك بالمتنزه، ستتذكر بلا شك عبورك لبعض رقع العشب المنعزلة التى لم تكن أكبر من فناء مدرسة، تطل عليك من بين الأشجار وأنت تمشى فى أى من تلك الطرق المشجرة وكأن مخططى المتنزه اختلط عليهم الأمر وتخلوا عن خطة ما أو تركوها بغير إكمال. الواقع أن هذا هو تقريبًا الوضع. فمنذ بضع سنوات كانت تعتمل بذهن أكيرا سوجيمورا أكثر الخطط طموحًا لمتنزه كاواب – وهو الرجل الذى اشتريت بيته عقب وفاته بوقت قليل. أنا مدرك أن اسم 'أكيرا سوجيمورا' قلما يُسمع هذه الأيام لكن دعنى

أوضح لك أنه منذ فترة بسيطة كان بلا مراء واحدًا من أكثر رجال المدينة نفوذًا. وقد سمعتُ أنه امتلك فى إحدى الفترات أربعة منازل، وقلما أمكنك أن تطيل التجول فى هذه المدينة قبل أن تصادف مشروعًا ما أو غيره يمتلكه سوجيمورا أو يرتبط به أشد الارتباط. وفى حوالى عام ١٩٢٠ أو ١٩٢١ قرر سوجيمورا وهو فى أوج نجاحه أن يغامر بأغلب ثروته ورأس ماله فى مشروع يسمح له بدمغ بصمته على هذه المدينة وسكانها إلى الأبد. فقد استقر عزمه أن يحول متنزه كاواب – الذى كان وقتها مكانًا طاله الإهمال ولم ينج من الكآبة – إلى بؤرة النشاط الثقافى بالمدينة. فالأمر لن يقتصر على توسعة الأرض لتضم مناطق طبيعية إضافية يسترخى بها الناس بل سيغدو المتنزه موقعًا لمختلف المراكز الثقافية المتألقة – متحف للعلم الطبيعي؛ مسرح كابوكى جديد لمدرسة تاكاهاشى التى فقدت مؤخرًا مسرحها بشارع شيراهاما بفعل حريق؛ مبنى للاحتفالات مقام على الطراز الغربي؛ وكذلك مدفن لقطط المدينة وكلابها على ما فى ذلك من غرابة. ليس بوسعى تذكر المزيد مما خطط له بيد أنى لم أخطئ تقدير ما طغى على الخطة من طموح جارف. فسوجيمورا لم يكن يأمل أن يبدل شكل حىٍ كاواب فقط بل توازن المدينة الثقافى برمته ليضفى بذلك ثقلاً جديدًا على الجانب الشمالى من النهر. ومثلما قلت لم تكن تلك الخطط بأقل من محاولة رجل واحد لدمغ بصمته على شخصية المدينة إلى الأبد.

لاح لى أن العمل يجرى على قدم وساق عندما كانت الخطة تجابه صعوبات مالية بالغة. لستُ متأكدًا من تفاصيل الموضوع لكن

كانت العاقبة أن تلك "المراكز الثقافية" الخاصة بسوجيمورا لم يتم بناؤها قط. خسر سوجيمورا نفسه مبلغًا لا يستهان من المال ولم يستعد أبدًا سالف نفوذه. بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وقع متنزه كاواب تحت السيطرة المباشرة لسلطات المدينة التى شيدت الطرق المشجرة. وكل ما بقى اليوم من خطط سوجيمورا هى رقع العشب الخالية على نحو غريب حيث كان من المفترض أن ترتفع متاحفه ومسارحه.

ربما قلت من قبل إن تعاملاتى مع عائلة سوجيمورا بعد أن وافته المنية – عند ابتياعى لآخر منزل من منازله – لم تكن من النوع الذى يجعلنى أشعر تمامًا بالود إزاء ذكرى الرجل. مع ذلك كلما ألفي نفسى أتجول بمتنزه كاواب هذه الأيام، أشرع فى التفكير فى سوجيمورا وخططه معترفًا أنى بدأت أكن للرجل إعجابًا. فالحق أن مَن يتشوف إلى الارتفاع إلى ما فوق المتوسط، إلى الإضحاء شخص غير عادى، يستحق يقينا الإعجاب حتى لو خاب فى النهاية وخسر ثروته فى سبيل طموحه. وفى اعتقادى أن سوجيمورا لم يمت رجلاً تعيسًا، ففشله لم يكن شبيهًا بما يتعرض له أغلب الأشخاص العاديين من حالات فشل مهينة، ورجل مثله كان سيفطن إلى هذا الفارق. فالإنسان إن أخفق حيثما لم يتحل الآخرون بالشجاعة أو الإرادة للتجريب، يستشعر عزاء بل وقناعة عميقة عند اجتلاء حياته من خلفه.

غير أنى لم أعتزم الإسهاب فى سيرة سوجيمورا. فكما قلت كنت بوجه عام أستمتع بتمشيتى مع سيتسوكو عبر متنزه كاواب رغم

إبدائها لملاحظات حملتْ دلالات ما استوعبتُها جيدًا حتى تدبرتُها فى وقت لاحق. مهما يكن انتهى حديثنا عندما لاح فى منتصف الطريق تمثال الإمبراطور تيشو على بعد مسافة قصيرة حيث رتبنا لمقابلة نوريكو وإشيرو. كنتُ أحدق فى اتجاه المقاعد المحيطة بالتمثال حين التقطتْ أذناى صوت ولد يصيح: "ها هو أوجي!"

أقبل إشيرو ناحيتى مهرولاً وقد بسط ذراعيه كمن يتوقع عناقًا. إلا أنه حين بلغنى، بدا وكأنه كبح نفسه، إذ ثبت على وجهه تعبيرًا رزينًا ومد يده ليصافحنى.

"يوم سعيد،" خاطبنى بأسلوب جاد.

"ياه يا إشيرو، كبرتَ حقًا وأصبحتَ رجلاً. كم عمرك الآن؟"

"أعتقد أنى فى الثامنة. من فضلك يا أوجى تعال من هنا. عندى أمور قليلة لأناقشها معك."

تتبعناه أنا وأمه إلى مقعد نوريكو حيث كانت تنتظر. ارتدت ابنتى الصغرى فستانًا زاهيًا لم أره مطلقًا من قبل.

"شكلك مبهج للغاية يا نوريكو، الظاهر أن البنت عندما تبرح بيتها، تبدأ فورًا فى التغير."

"ليس هناك ما يدعو المرأة إلى لبس رداء رتيب لمجرد أنها تزوجت،" سارعتْ نوريكو بالرد وإن بدت مسرورة بمجاملتى.

أذكر أننا جلسنا جميعًا تحت تمثال الإمبراطور تيشو وتجاذبنا أطراف الحديث برهة. كنا قد التقينا في المتنزه لأن ابنتي أرادتا قضاء بعض الوقت معًا في شراء الأقمشة، لذا وافقتُ على اصطحاب إشيرو لتناول الغذاء بأحد المراكز التجارية ثم أمضيت فترة بعد الظهر أريه وسط المدينة. ما طاق إشيرو صبرًا على الانتظار وراح ينكز ذراعي ونحن جالسون قائلاً:

"يا أوجي، دع النساء يثرثرن مع بعضهن. عندنا مسائل لا بد من الاهتمام بها."

انتهيت أنا وحفيدي إلى المركز التجاري بعد ميعاد الغذاء المعتاد بوقت قليل، فلم نجد طابق المطعم مزدحمًا. أخذ إشيرو وقته في الاختيار من بين شتى الأطباق المعروضة فوق الأرفف، تلفت إلى ذات مرة قائلاً:

"أوجي، خمن ما هو طعامي المفضل الآن."

"أأ. لا أعرف يا إشيرو. كعكة ساخنة؟ آيس كريم؟"

"السبانخ! فالسبانخ تمد الإنسان بالقوة!" قال وهو ينفخ صدره ويوسع كتفيه.

"نعم. حسنًا، بوجبة الغذاء الصغيرة بعض السبانخ."

"وجبة الغذاء الصغيرة للأطفال."

"قد تكون للأطفال لكنها لذيذة جدًا. ممكن أوجي يطلبها لنفسه."

"حسنًا. سآخذ أنا أيضًا وجبة الغذاء الصغيرة لأكون معك. لكن قل للرجل أن يضع لى الكثير من السبانخ."

"حاضر يا إشيرو."

"لازم يا أوجى أن تأكل السبانخ بقدر الإمكان، فهى تعطى قوة."

اختار إشيرو إحدى الموائد إلى جانب صف من النوافذ العريضة، وفى حين كنا ننتظر غذاءنا، أخذ يضع وجهه قبالة الزجاج ليشاهد الشارع الرئيسى المزدحم الواقع أسفلنا بأربعة طوابق. لم أكن قد رأيت إشيرو منذ زيارة سيتسوكو من أكثر من سنة – فهو لم يحضر حفل زفاف نوريكو لإصابته بفيروس – فاسترعى انتباهى كم كبر خلال تلك الفترة. فهو لم يكن فقط أطول بكثير إنما صار سلوكه كله أهدأ وأقل طفولية ولا سيما عينيه اللتين اعترتهما نظرة أكبر سنًا بكثير.

الحق أنه فى الوقت الذى كنتُ أراقب فيه إشيرو يومها وهو يضغط وجهه إلى الزجاج ليتفرج على الشارع، استطعت أن أبصر كيف سيصبح شبيهًا بأبيه. كانت هناك أيضًا آثار من سيتسوكو غير أنها تواجدت بالأساس فى سلوكه والقليل من حركات وجهه. بالطبع استوقفنى من جديد شبه إشيرو بابنى كنجى فى تلك السن. أعترف أن راحة غريبة تداخلنى حين ألاحظ أن الأطفال يرثون أوجه التشابه هذه من أفراد العائلة وكل أملى أن يحتفظ حفيدى بها فى سن المراهقة.

لا ريب أننا لا نتعرض لهذه الخصائص المتوارثة الصغيرة فى سن الطفولة فقط؛ فأى معلم أو ناصح يعجب به الإنسان بشدة فى سن المراهقة المبكرة سوف يخلف بصمته. والواقع أنه بعد فترة طويلة من إعادة الإنسان تقييم أغلب تعاليم ذلك الرجل وربما حتى بعد نبذها، سوف تنزع بعض السمات إلى البقاء كظل ما لذلك التأثير وتمكث مع الإنسان طيلة عمره. فأنا مدرك مثلاً إلى أن بعض سلوكياتى – كالطريقة التى أحفظ بها توازن يدى حين أشرح موضوعًا ما وبعض التغييرات التى تنتاب نبراتى عندما أحاول التعبير عن تهكمى أو نفاذ صبرى، بل عبارات بأكملها أولع باستخدامها وقد ظنها الناس عباراتى – أنا واع لأنها كلها سمات اكتسبتُها فى الأصل من السيد مورى، معلمى السابق. ولعلى لا أفرط فى الإطراء على نفسى حين أتصور أن عديدًا من تلاميذى اكتسبوا منى تباعًا مثل هذه الموروثات الصغيرة. أرجو كذلك أن يظل معظمهم شاكرين لأكثرية ما تعلموه برغم أية إعادة تقييم ربما قاموا بها لتلك السنوات التى قضوها تحت إشرافى. أنا عن نفسى مهما كانت مواطن الضعف الواضحة فى شخصية معلمى السابق – سيجى مورياما أو "السيد موري" كما لقبناه دائمًا – ومهما حدث بيننا فى النهاية، لا شك أنى سوف أقر دومًا بأن تلك الأعوام السبعة التى أنفقتُها مقيمًا فى فيلا أسرته بريف مقاطعة واكايا كثير التلال كانت أكثر السنوات حسمًا بالنسبة لمسيرتى المهنية.

عندما أحاول اليوم استدعاء صورة لفيلا السيد مورى، أميل إلى تذكر منظر غاية فى البهاء من أعلى طريق جبلى يؤدى إلى

أقرب قرية. فأثناء صعود المرء ذلك الطريق، ستظهر الفيلا في الوادي بالأسفل كمستطيل خشبي معتم يتوسط أشجار الأرز الطويلة. تتصل أجزاء الفيلا الثلاثة الشاهقة لتشكل ثلاثة أضلاع من مستطيل يحيط بفناء مركزي؛ وقد اكتمل الضلع الرابع بسور من أشجار.الأرز وبوابة. هكذا كان الفناء مطوقًا بالكامل، وبإمكان المرء تخيل كيف شق على المعتدين في الأيام الغابرة أن يدخلوا حالما انغلقتْ تلك البوابة الضخمة.

على أن متطفلي هذه الأيام لن يواجهوا مثل تلك الصعوبة، ففيلا السيد موري أمست في حالة خربة كل الخراب وإن لم يتأت للمرء تمييز هذا من أعلى الطريق. فالمرء لن يحزر من هناك أن بالمبنى حجرات يكسو جدرانها ورق ممزق ويغطي أرضياتها حصير بال حتى إن خطر السقوط إلى الطابق الأسفل تربص بالمرء في عدة أماكن إذا ما وطأ بقدمه دون احتراس. وعندما أحاول في الحقيقة استدعاء صورة الفيلا عن كثب، لا يتوارد إلى ذهني سوى قراميد سطح مهشمة وتعريشات متفسخة وشرفات مهترئة تكسرتْ حوافها. كانت تلك الأسطح تكشف باستمرار عن ارتشاحات جديدة، وبعد انقضاء ليلة ينهمر فيها المطر، تفيح بكل الغرف رائحة الخشب الرطب ومصاريع النوافذ الرثة. انصرمتْ شهور كانت الحشرات والعثة تغزو فيها المكان بأعداد كبيرة، فكانت تلتصق بالأخشاب في كل مكان وتختبئ في كل شق وصدع حتى خشينا أن تتسبب في انهيار المكان تمامًا.

من بين كل تلك الغرف ثمة غرفتان أو ثلاث فى وضع يدل على ما كانت عليه الفيلا من روعة فى يوم من الأيام. كانت واحدة من تلك الغرف تشع بضوء ساطع أغلب النهار لذا أفردها السيد مورى للمناسبات الخاصة. أذكر أنه كان يستدعى كل تلاميذه - وكنا عشرة - إلى تلك الحجرة من وقت لآخر كلما فرغ من لوحة جديدة. أذكر كيف كنا نتسمر عند العتبة لنلهث معجبين باللوحة القائمة فى منتصف الأرضية. قد يكون السيد مورى فى غضون ذلك يعتنى بنبات من النباتات أو يطل من النافذة غافلاً فيما يبدو عن قدومنا. ما نلبث أن نتحلق حول اللوحة على الأرضية، وكل واحد يشير للآخرين بنبرات خفيضة إلى جمالياتها. "وانظر كيف ملأ المعلم تلك الزاوية هناك. بديع!" لكن لا أحد منا يوجه بالفعل إليه الحديث: "يا لها من لوحة مدهشة يا معلم" إذ كان عُرف هذه المناسبات بطريقة ما هو أن نتصرف كما لو لم يكن المعلم موجودًا.

كثيرًا ما كانت كل لوحة جديدة تشكل ملامح أحد الابتكارات الأخاذة ليتطور بيننا جدال متقد الحماسة. أذكر مثلاً أننا دخلنا الحجرة مرة لتعترض أعيننا لوحة تصور امرأة راكعة مرسومة من زاوية منخفضة بغرابة - منخفضة جدًا لدرجة أننا بدونا وكأننا نتطلع إليها من مستوى الأرضية.

أذكر أن أحدهم جزم قائلاً: "من الواضح أن المنظور المنخفض يسبغ على المرأة وقارًا لن تناله لو رُسمتْ بنظرة مختلفة. إنه إنجاز غاية فى الدهشة. فهى تلوح من كل النواحى الأخرى امرأة ترثى

لحالها وهذا التوتر هو ما يضفى على اللوحة قوتها الرقيقة."

علق آخر: "قد يكون هذا صحيحًا. ربما تتميز المرأة بضرب من الوقار على أن هذا ينبع بالكاد من المنظور المنخفض. إذ يبدو جليًا أن المعلم ينبئنا بأمر أكثر صلة باللوحة، فهو يقول إن المنظور لا يظهر منخفضًا سوى لأن أعيننا متناغمة مع مستوى معين من الرؤية لتتجلى هنا مشيئة المعلم فى تحريرنا مما يقيدنا من عادات اعتباطية. فهو ينهى إلينا:"لا حاجة بكم إلى أن تبصروا دائمًا الموجودات من الزوايا الاعتيادية المبتذلة،" ومن ثم فاللوحة فى منتهى الإلهام."

ما أسرع ما انقلب حديثنا إلى صياح وعارض كل منا الآخر مستخدمين نظريات حول نوايا السيد مورى. وعلى جدالنا، واصلنا اختلاس النظر إلى المعلم الذى لم يعطنا أية إشارة على موافقته على أى من نظرياتنا. أذكر أنه اكتفى بالوقوف هناك فى النهاية القصية للحجرة وقد ربع يديه وجعل يتفرس فى الفناء من خلال الشبكة الخشبية المثبتة بالنافذة فيما أطلت من وجهه نظرة توحى بالتأمل. استمع إلى جدالنا فترة من الوقت ثم استدار قائلاً: "ربما عليكم مغادرة المكان الآن. هناك بعض المسائل أود أن أتولى أمرها". ما إن فاه بهذه الكلمات حتى خرجنا جميعًا فى صف واحد مغمغمين ثانية بآهات الإعجاب باللوحة الجديدة.

وفيما أحكي هذه الواقعة أدرك أن سلوك السيد مورى قد يستوقفك وكأن به مسحة من العجرفة لكن ربما يسهل عليك فهم ما

أبداه من تحفظ فى مثل هذه المناسبات لو كنتَ أنت نفسك تشغل موقعًا لا ينفك الناس يبجلونه ويعجبون به. إذ ليس من المرغوب فيه أن يداوم المدرس على إلقاء التعليمات على تلاميذه وتقديم الآراء لهم؛ ففى كثير من المواقف يُفضل أن يُمسك المدرس عن الكلام حتى يمنحهم الفرصة للنقاش والتأمل. وكما سبق القول أى شخص يفوز بمركز عظيم التأثير سوف يقدر هذا.

على أية حال كانت النتيجة تتابع المناظرات حول عمل معلمنا طيلة أسابيع متوالية. ومع الغياب المستمر لأى إيضاح من جانب السيد مورى نفسه، نزعنا إلى الاعتماد على واحد منا، فنان اسمه ساساكى تمتع فى تلك المرحلة بمكانة التلميذ القائد عند السيد مورى. ورغم أني قلت إن بعض المجادلات كان من الممكن أن تستمر لأمد طويل، حالما يقرر ساساكى موقفه من القضية، يضع هذا فى المعتاد نهاية للجدل. وبالمثل إن أوحى ساساكى أن لوحة شخص "غير وفية" بأية طريقة لتعاليم معلمنا، يؤدى هذا فى كل الحالات تقريبًا إلى استسلام فورى من قِبل المذنب الذى يهجر اللوحة توًا أو يحرقها مع النفاية فى بعض الحالات.

أذكر بحق أن السلحفاة دمر أعماله مرارًا وتكرارًا لعدة شهور عقب وصولنا معًا إلى الفيلا تحت مثل هذه الظروف. ففى حين كنتُ أنا قادرًا على الاندماج بكل سهولة مع أسلوب عملهم هناك، أنتج رفيقى المرة تلو المرة أعمالاً تبرز عناصر تتعارض بوضوح مع مبادئ معلمنا. ناشدتُ زملائى الجدد عدة مرات شارحًا لهم نيابة عنه

أنه لا يتعمد عدم الإخلاص للسيد مورى. وخلال تلك الأيام الأولى طالما دنا السلحفاة منى بسحنة يكللها الحزن وقادنى لأرى أحد أعماله غير المكتملة قائلاً بصوت منخفض: "يا سيد أونو، قل لى أرجوك، أهذه اللوحة تشبه ما قد ينتجه المعلم؟"

حتى أنا كان السخط يتولانى أحيانًا حين أكتشف أنه استعمل غافلاً – رغم الانتقادات – واحدًا من العناصر المزعجة إزعاجًا لا اختلاف عليه. فأولويات السيد مورى لم تكن صعبة مطلقًا على الفهم. فقد أُطلق أيامها لقب "يوتامارا الحديث" عدة مرات على معلمنا، وبرغم أنه نعت كان يُمنح بسهولة زائدة لأى فنان قدير تخصص حينذاك فى تصوير نساء حى المتعة، يميل اللقب إلى تلخيص اهتمامات السيد مورى بدقة. ذلك أن السيد مورى كان يعمد إلى محاولة "تحديث" تعاليم يوتامارا؛ ففى العديد من أشد لوحاته تميزًا – "ربط طبلة الرقص" مثلاً أو "بعد الاستحمام" – يرسم المرأة من الخلف على نمط يوتامارا الكلاسيكى. والعديد من مثل تلك الملامح الكلاسيكية تتكرر فى أعماله: امرأة تمسك بمنشفة أمام وجهها، أخرى تمشط شعرها الطويل. وقد استعمل السيد مورى الأداة التقليدية الممثلة فى التعبير عن المشاعر بشكل كلى وذلك من خلال منسوجات تمسك بها المرأة أو ترتديها بدلاً من استخدام ما يعتلى وجهها من نظرة. غير أن أعماله حفلت فى نفس الوقت بتأثيرات أوروبية عدها أشد المعجبين بيوتامارا إخلاصًا بمثابة هجوم على تعاليمه؛ إذ أقلع مثلاً منذ فترة طويلة عن استخدام الخطوط الغامقة التقليدية لتحديد

الأشكال وآثر الاستخدام الغربى لمجموعات الألوان مع الأضواء والظلال لخلق هيئة ثلاثية الأبعاد. كما اقتدى بلا مراء بالأوروبيين فى اهتمامه الأول والأخير: ألا وهو استعمال الألوان المخففة. فقد كانت رغبة السيد مورى أن يستثير سوداوية ما داخل جو ليلى يحف بنسائه، وطوال الأعوام التى درستُ فيها تحت رعايته، أجرى تجارب موسعة على الألوان فى محاولة منه لانتزاع الإحساس بضوء المشكاة. ولأجل هذا كان دائمًا تصوير المشكاة بمكان ما فى اللوحة – بالإيحاء إن لم يكن فى الواقع – علامة تميز أعمال السيد مورى. وربما يكون نموذجًا لبطء السلحفاة فى إدراك أساسيات فن السيد مورى أنه، حتى بعد قضاء عام بالفيلا، كان يستخدم ألوانًا تُحدث الأثر الخاطئ تمامًا ثم يتساءل بعدها عن سبب اتهامه ثانية بعدم الوفاء فى حين أنه تذكر إضافة مشكاة ضمن تركيبته.

وعلى الرغم من كل مرافعاتى، ضاق أمثال ساساكى ذرعًا بمصاعب السلحفاة، وكان الجو ينذر أحيانًا بالعداء تجاه رفيقى بالضبط مثلما لاقى بشركة السيد تاكيدا. وأثناء عامنا الثانى بالفيلا حل بساساكى تغيير أدى إلى إظهاره عداوة معذبة اتخذت طبيعة أقسى وأقتم من أى شيء أضمره للسلحفاة من قبل.

أتصور أن كل مجموعات التلاميذ تنحو إلى اتخاذ قائد – شخص اصطفى المعلم قدراته كمثال يحتذى به الآخرون. هذا التلميذ القائد يميل إلى الاضطلاع بدور المترجم الأساسى لأفكار معلمه للتلاميذ الأقل خبرة والعاجزين عن استيعابها وذلك بفضل إلمامه

العميق بأفكار أستاذه مثلما فعل ساساكى بالضبط. إلا أن نفس هذا التلميذ القائد هو على الأرجح مَن ستتكشف له عيوب أعمال أستاذه أو سيطور أفكارًا خاصة به تختلف عن أفكار معلمه. ونظريًا يتعين بطبيعة الحال على المعلم الكفء تقبل هذه النزعة وبالقطع الترحيب بها كعلامة على أنه آزر تلميذه للارتقاء إلى مرحلة النضج غير أن المشاعر المواكبة قد تكون غاية فى التعقيد عند التطبيق. فالمرء أحيانًا عندما يرعى تلميذًا موهوبًا بمثابرة فترة طويلة، يصعب عليه أن يرى فى تلك الموهبة الناضجة إلا خيانة له، وقد تطرأ بينهما بعض المواقف المؤسفة.

إن ما فعلناه مع ساساكى إثر خلافه مع معلمنا ليس إلى تبريره سبيل بتاتًا، ولن يجدينا نفعًا تذكر تلك الأحداث هنا إلا أن ذاكرتى عن تلك الليلة التى تركنا فيها ساساكى واضحة وضوح الشمس فى ذهنى.

كان أغلبنا قد خلد إلى النوم قبل رحيله. كنتُ عن نفسى أرقد فى فراشى مستيقظًا فى الظلام بإحدى تلك الغرف المتهدمة عندما نمى إلى صوت ساساكى. كان ينادى على شخص بالقرب من الشرفة بيد أنه لم يتلق ردًا من المخاطب. تناهت إلى فى آخر الأمر أصوات ستارة تنغلق ووقع أقدام ساساكى وهى تدنو. سمعتُه يتوقف عند حجرة أخرى ويقول شيئًا لكن يظهر أن كلماته لم يقابلها سوى صمت جديد. اقتربتْ خطواته مع ذلك وسمعتُه يفتح ستارة الحجرة بجانبى قائلاً:

"نحن صديقان حميمان منذ سنين عديدة، ألن تتحدث معى على الأقل؟"

لم يجد ساساكى أية استجابة من المخاطب:

"ألن تخبرنى فحسب بمكان اللوحات؟"

ظل السكون يرين على المكان لكن صك أذنى – وأنا راقد هناك فى الظلام – صوت جرذان تعدو تحت ألواح أرضية تلك الغرفة المجاورة فتراءى لى هذا الضجيج نوعًا من الرد.

مضى صوت ساساكى: "لو كنتَ تعتبرها بغيضة إلى هذه الدرجة، فلا معنى لاحتفاظك بها. لكنها تعنى لى الكثير الآن، أريد أن آخذها معى أينما سأذهب، فلستُ أملك ما آخذه سواها."

جاء صوت عدو الجرذان مرة أخرى كردٍ على طلبه ثم غشى المكان صمت طويل. دام الصمت فترة طويلة حقًا حتى إنى ظننت أن ساساكى ابتعد فى الظلام دون أن أسمعه. لكنى سمعته عند ذاك ينبس مجددًا:

"لقد آذانى الآخرون أشد الإيذاء خلال هذه السنوات القليلة الماضية إلا أن أكثر ما آلمنى هو رفضك أن تعطينى ولو مجرد كلمة عزاء واحدة."

أطبق صمت آخر سأل بعده ساساكى: "ألن تنظر حتى إلى وتتمنى لى الخير؟"

فى النهاية سمعتُ الستارة تنغلق وصوت خطوات ساساكى وهو ينزل الشرفة ويبتعد عبر الفناء.

لم يُذكر اسم ساساكى بالفيلا بعد رحيله إلا نادرًا وفى المرات المعدودة التى ذُكر فيها، لم يُشر إليه سوى بـــ "الخائن". أذكر بحق

كيف كانت ذكرى ساساكى تصيبنا بالاستياء عندما أستدعى ما حدث مرة أو مرتين أثناء تلك النزاعات نابية الألفاظ التى كثيرًا ما انغمسنا فيها.

كنا نميل فى الأيام الدافئة إلى ترك ستائر غرفنا مفتوحة على وسعها، فكان فى استطاعة المحتشدين فى إحدى الحجرات أن يروا مجموعة ثانية تجتمع هي الأخرى بالجناح المقابل. سرعان ما ينتهى هذا الوضع إلى أن يصرخ أحدهم عبر الفناء بتعليق مستفز مضحك، فما تلبث المجموعتان أن تتجمعا فى شرفتيهما لتتصايحا بالإهانات. ربما يبدو هذا التصرف منافيًا للعقل حين أحكيه غير أن أسلوب تصميم الفيلا وما يُحدثه من أصوات مدوية عندما يصيح أحدهم من جناح لآخر شجعنا على الانهماك فى تلك الخلافات الطفولية. كنا نرشق بالإهانات على نطاق واسع – كأن نسخر من رجولة أحدهم أو لوحة اكتملت للتو – إلا أن تلك الإهانات خلت فى الأغلب من أية نية للتجريح، وأذكر شُجُر كثيرة لا حد لتسليتها أغرقتْ كلا الجانبين فى ضحك صاخب. من المؤكد أن ذكرياتى عن هذه الأحاديث تلخص بدقة ما استمتعنا به خلال تلك السنوات بالفيلا من مودة تخللها التنافس وكذا الروح العائلية. ومع ذلك حين أثير اسم ساساكى خلال هذه الإهانات مرة أو اثنتين، خرجتْ الأمور فجأة عن نطاق السيطرة، إذ تخطى الزملاء الحدود وتشاجروا بالفعل فى الفناء. فتعلمنا سريعًا أن مقارنة شخص بـــ "الخائن" ولو على سبيل الفكاهة لن تُستقبل بروح مرحة على الإطلاق.

علك تستنتج من تلك الذكريات أن تفانينا لمعلمنا ولمبادئه كان كاملاً جامحًا. إنما عقب إدراك طبيعة ما حدث بعد وقوعه – وفور تجلى عيوب نفوذ ما – يسهل توجيه الانتقاد إلى معلم عزز مثل ذاك المناخ. لكن من ناحية أخرى، أى شخص تمسك بطموحات رفيعة أو شغل مكانة يحقق من خلالها إنجازًا ضخمًا وشعر بالحاجة إلى نقل أفكاره شاملة ما استطاع، سيخامره بعض التعاطف مع الأسلوب الذى أدار به السيد مورى دفة الأمور. فبرغم أن الأمر يبدو الآن سخيفًا قليلاً فى ضوء ما لحق بمستقبله، انصبت مشيئة السيد مورى وقتها على تغيير هوية فن الرسم بمدينتنا كلية. نشد كذلك هدفًا آخر لم يكن بأقل من الأول فى ذهنه، ألا وهو تكريس وقت وفير وثروة هائلة لتنشئة التلاميذ، ولعله من المهم أن نتذكر هذا عند إصدار الأحكام على معلمنا السابق.

لا ريب أن تأثيره علينا لم يقتصر على عوالم الفن فحسب. فقد عشنا طيلة تلك السنوات وفقًا لقيمه وأسلوب حياته، واستتبع هذا قضاء وقت طويل فى استكشاف "عالم المدينة الطليق" – العالم الليلى للمتعة والتسلية والشرب، عالم كون خلفية جميع لوحاتنا. والآن يشملنى حنين لا يفارقنى عندما ينثال على ذاكرتى وسط المدينة كما كان أيامها؛ لم تكن الشوارع مشحونة إلى هذا الحد بضوضاء المرور وكانت المصانع تستنشق شذا الزهرات الموسمية من جو الليل. كنا نفضل ارتياد مقهى صغير يسمى "قناديل الماء" بجانب القناة فى شارع كوجيما، فقد كان المرء يبصر بالفعل قناديل المنشأة منعكسة

على مياه القناة حين يدنو منها. ربطت مالك المقهى صداقة قديمة بالسيد مورى مما ضمن لنا الحصول على معاملة كريمة دومًا. أذكر ليالى هناك لا يمكن أن تُطوى فى زوايا النسيان، أمضيناها فى الغناء مع المضيفات والشرب معهن. اعتدنا كذلك الاختلاف إلى مكان آخر، قاعة الرماية بشارع ناجاتا حيث لم تمل صاحبة المكان أبدًا من تذكيرنا بأن السيد مورى استعان بها منذ سنين خلت – لمّا كانت فتاة جيشا بأكيهارا – كعارضة لمجموعة من الصور المطبوعة عن كليشيهات خشبية حققت رواجًا شديدًا وقتها. كانت تشتغل فى تلك القاعة نحو ست مضيفات أو سبع، وبعد مضى برهة بات لكل منا الأثيرة لديه يبادلها الغليون ويقضى معها الليلة.

لم يكن قصفنا محصورًا فى رحلاتنا إلى المدينة. فقد ظهر أن للسيد مورى سلسلة لا تنتهى من المعارف المنتسبين إلى عالم اللهو، إذ لم تنقطع عن الفيلا فرق جوالة فقيرة من الممثلين والراقصين والموسيقيين الذين احتفينا بهم وكأنهم أصدقاء نقابلهم بعد غيبة. كنا نحتسى كميات كبيرة من الخمر ويغنى زوارنا ويرقصون طيلة الليل ثم ما نلبث أن نرسل أحدهم ليوقظ بائع الخمر فى أقرب قرية لإمدادنا بالمزيد. كان أحد الزوار المعتادين أيامها قاصًا يدعى ماكى، رجل سمين مرح الطوية يقدر من خلال طريقة أدائه للقصص القديمة أن يجعلنا تسترسل فى حالة ضحك لا إرادى فى لحظة ثم يُسيل دموعنا حزنًا فى اللحظة التالية. وفيما أعقب من سنوات صادفتُ ماكى مرات قلائل فى الميجي–هيدارى وانهمكنا بنبرات دهشة فى ذكرياتنا حول

تلك الليالى بالفيلا. كان ماكى على اقتناع أنه يتذكر حفلات عديدة تواصلتْ بلا انقطاع طوال الليل حتى النهار التالى ثم الليلة الثانية. وبرغم عدم تأكدى من هذا، كان على أن أسلم بصحة ذكريات جرت نهارًا بفيلا السيد مورى عندما كانت الأجساد النائمة أو المنهكة تتبعثر فى كل مكان وقد تهالك بعضها فى الفناء والتهبت أشعة الشمس فوقها.

على أن ذاكرتى أنشط عن إحدى تلك الليالى. كنتُ أسير وحدى فى الفناء المركزى شاعرًا بالامتنان لهبوب هواء الليل العليل ولهروبى لحظة من المرح الصاخب. أذكرِ أن قدمى قادتانى حتى مدخل المخزن، وقبل أن أدلف إليه أرسلتُ نظرة خلفى عبر الفناء نحو الحجرة التى يرفه بها رفقائى وزوارنا عن بعضهم البعض، فشاهدتُ خيالات تتراقص خلف الستائر الورقية وترامى صوت مغن ينساب باتجاهى عبر سكون الليل.

اتخذتُ طريقى إلى المخزن لعلمى أنه أحد الأماكن القليلة فى الفيلا التى تتيح الفرصة للمرء أن يمكث بلا إزعاج لأية فترة من الوقت. أتخيل أن الحجرة كانت تستعمل فى الأيام الغابرة فى تخزين الأسلحة والدروع لمّا كان الحراس والخدم يقيمون بالفيلا. غير أنى حين دخلتها ليلتها وأضأت المصباح المعلق فوق الباب، وجدتُ الأرضية مكتظة على آخرها بأكوام من كل نوع وصنف وقد استحال عبورها بدون أن أثب من فراغ إلى فراغ؛ زخر المكان بأكوام من اللوحات القديمة مربوطة معًا بحبال، وحوامل مكسرة، وكل ضروب

القدور والجرار تتنأ منها الفرش والعصى. تغلبتُ على العقبات حتى بلغتُ مكانًا خاليًا على الأرضية جلستُ عليه. لاحظتُ أن المصباح الموضوع فوق الباب يجعل الأشياء تلقى ظلالاً ضخمة حولي؛ كان أثرًا مخيفًا أشعرنى وكأنى جالس فى نسخة مصغرة من مقبرة غريبة.

لا بد وأنى غرقت فى تأملاتى لأنى أذكر أنى جفلت من صوت باب المخزن وهو ينفتح. رفعتُ نظرى لأرى السيد مورى بالمدخل فسارعتُ بالقول: "مساء الخير يا معلم."

ربما لم يبعث المصباح نورًا كافيًا لإلقاء الضوء على مجلسى من الحجرة أو عل وجهى قبع فقط فى الظل. على كل حدق السيد مورى إلى الأمام قائلاً:

"مَن هذا؟ أونو؟"

"أجل يا معلم."

راح يرنو إلى الأمام هنيهة ثم تناول المصباح من فوق العارضة وأمسكه أمامه، أخذ يتقدم نحوى واطئًا بحذر بين المرمى على الأرضية. وفى أثناء ذلك، تحركتْ الظلال فى كل مكان حولنا متأثرة بحركة المصباح. أسرعتُ بإفساح مكان إلا أنه سبقنى وجلس عن كثب فوق صندوق خشبى قديم. أطلق تنهيدة قائلاً:

"خرجتُ لأستنشق القليل من الهواء النقى فوقعتْ عيناى على الضوء هنا. عم الظلام جميع الأنحاء عدا هنا. فقلتُ لنفسى، بما أن

المخزن لا يصلح لاختباء العشاق، فأيًا كان الموجود هناك لا بد أنه يشعر بالوحدة."

"أخالنى كنت أجلس فى حلم يا معلم، فلم أكن أعتزم البقاء هنا طويلاً."

كان قد وضع المصباح على الأرضية بجانبه، فلم أستطع أن أرى سوى شبحه. أطلعنى: "الظاهر أن إحدى الراقصات مفتونة بك، وستصاب بخيبة أمل لو اكتشفتْ أنك أضعت الليلة هنا."

"لم أقصد أن أبدو وقحًا مع ضيوفنا يا معلم. فأنا مثلك، ما خرجتُ سوى لاستنشاق بعض الهواء النقى."

استعنا بالصمت هنيهة. وعبر الفناء كان بمقدورنا سماع رفاقنا يغنون ويصفقون بأياديهم فى تناغم إيقاعى.

أفضى السيد مورى فى آخر الأمر: "حسنًا يا أونو، ما رأيك فى صديقى القديم جيزابورو؟ شخصية فريدة."

"فعلاً يا معلم. يبدو سيدًا فى غاية الدماثة."

"لعله يرتدى ملابس مهلهلة هذه الأيام لكنه كان ذات يوم شخصية طبق صيتها الآفاق. وكما بَين لنا الليلة ما زال يتمتع بالكثير من مهاراته السابقة."

"بالفعل."

"إذن ماذا يقلقك يا أونو؟"

"يقلقني يا معلم؟ آه، لا شيء بالمرة."

"هل يضايقك شيئًا ما في شخصية جيزابورو العجوز؟"

"أبدًا يا معلم،" قلت وأنا أضحك ارتباكًا. "ياه، مطلقًا. إنه سيد جذاب بحق."

قطعنا فترة وجيزة نطرق مواضيع أخرى، أي شيء جال في خاطرنا. لكن عندما رد السيد موري الحديث إلى "قلقي" ثانية واتضح أنه علي استعداد أن يقعد هناك منتظرًا حتى أفضي بسريرة قلبي، صارحته في النهاية:

"يتراءى لي حقًا أن السيد جيزابورو رجل مهذب في منتهى الطيبة. كان راقصوه كرماء أيما كرم لترفيههم عنا. بيد أني لا أتمالك يا معلم التفكير في الأمر، لقد كثرت زيارات أمثالهم خلال هذه الشهور القليلة الماضية."

لم تنفرج شفتاه عن رد، لذا مضيت أبوح:

"لا تؤاخذني يا معلم. أنا لا أعني التقليل من احترام السيد جيزابورو وأصدقائه. لكن أحيانًا ما أشعر بالقليل من الحيرة، الحيرة لأننا نحن أهل الفن نكرس وقتًا طويلاً للاستمتاع بصحبة أمثال السيد جيزابورو."

أعتقد أن معلمي نهض عند تلك اللحظة تقريبًا وسار عبر الأرضية والمصباح في يده قاصدًا الحائط الخلفي للمخزن. كان

الجدار غارقًا فى الظلمة لكن ما إن رفع المصباح قبالته حتى كشف بجلاء عن ثلاث صور مطبوعة عن كليشيهات خشبية معلقة على الحائط الواحدة تحت الأخرى، تصور كل منها فتاة جيشا من ظهرها وهى جالسة على الأرضية تعدل تسريحة شعرها. دقق السيد مورى فى الصور لحظات قلائل محركًا المصباح من صورة لأخرى ثم هز رأسه وغمغم لروحه: "بها عيوب جسيمة. يعيبها الحفل بالتوافه". مرت عدة ثوان أردف بعدها دون أن يشيح بنظره عن الصور: "غير أن المرء دائم التعلق بأعماله الأولى. لعلك ستشعر ذات يوم بالمثل نحو ما قمت به من عمل هنا." هز رأسه تارة أخرى قائلاً: "لكن يشوب جميع هذه الصور عيوب جسيمة يا أونو."

"أنا لا أوافقك الرأى يا معلم. فى اعتقادى أن هذه الصور أمثلة رائعة على سمو موهبة الفنان فوق تخوم أسلوب محدد. لقد اعتقدتُ فى أحيان كثيرة أن حبس صور المعلم الأولى فى مثل هذه الغرف عار شنيع. إذ لا بد من غير ريب أن تُعرض مع لوحاته."

ظل السيد مورى منهمكًا فى صوره ثم كرر: "بها عيوب جسيمة. لكن أحسبنى كنت غرًا صغيرًا." حرك مصباحه من جديد فخبت لوحة فى العتمة فى حين ظهرتْ أخرى للعيان. ثم أنهى إلى: "كل هذه مشاهد من أحد منازل فتيات الجيشا بهونشو، منزل كان له اعتباره فى أيام شبابى. اعتدنا أنا وجيزابورو أكثر ما اعتدنا زيارة تلك الأماكن معًا." ثم أعاد بعد لحظة أو اثنتين: "بها عيوب جسيمة يا أونو."

"لكنى لا أستطيع أن أقف على العيوب التى يمكن أن تلتقطها أكثر العيون تمييزًا فى هذه الصور."

ما انفك يتفحص الصور دقائق أخرى ثم شرع فى العودة إلى مكانه عبر الحجرة. بدا لى أنه أنفق وقتًا مبالغًا فيه حتى تخطى عقبات الأرضية؛ كنت أسمعه أحيانًا يتمتم لنفسه وصوت قدمه تدفع جرة أو صندوق. خلته بالفعل مرة أو مرتين ينشد شيئًا فى فوضى الأكوام، ربما المزيد من صوره المبكرة، إلا أنه اتخذ مكانه فى النهاية على الصندوق الخشبى القديم وندت عنه تنهيدة. لفنا السكون لحظات ثم أسر إلى:

"إن جيزابورو رجل تعيس. فقد أخذ بأسباب حياة بائسة. ألمّ الخراب بموهبته. مات من أحبهم ذات يوم أو هجروه منذ زمن بل إنه كان فى شبابنا شخصية لا تزايلها الوحدة والحزن." كف السيد مورى لحظة ثم استأنف: "لكننا درجنا أحيانًا على الشرب والاستمتاع بنساء أحياء المتعة ليتذوق بعدها جيزابورو السعادة. فقد كانت أولئك النسوة تلقين على أذنيه بكل ما يهفو إليه، وأيًا ما كان يصدقهن لمدة سواد الليل. لكن ما إن يبزغ الصباح حتى يثوب إلى رشده، كان بالطبع أذكى من أن يصدق تلك الكلمات. غير أن جيزابورو لم يجل تلك الليالى لهذا السبب؛ فقد اعتاد دومًا أن يقول إن خيرة الأشياء تجتمع ليلاً ثم يتلاشى أثرها صباحًا. ما يسميه الناس العالم الطليق يا أونو هو عالم فطن جيزابورو إلى كيفية تقديره."

أحجم السيد مورى مجددًا عن الكلام. واستطعت كالسابق أن أرى هيئته مجرد شبح لكن خامرنى انطباع أنه يصغى لأصوات

العربدة المقبلة من الجانب الآخر للفناء. ثم خرج عن صمته: "هو الآن أكبر سنًا وأشد حزنًا لكن أدركه تغيير طفيف. هو الليلة سعيد، تمامًا مثلما ألف أن يكون بمنازل المتعة تلك". سحب نفسًا طويلاً كمن يدخن تبغًا ثم راح يقول: "إن أروع ضروب الجمال وأكثرها رقة يسع أى فنان أن يأمل فى انتزاعها تنساب داخل منازل المتعة تلك بعد أن يسدل الليل أستاره. وفى مثل هذه الليالى يا أونو يتسرب بعض من ذلك الجمال داخل أحيائنا هنا. بيد أن تلك الصور المعلقة هناك لا تلمح حتى إلى هذه الصفات الزائلة الخادعة. فهى معيوبة بشدة يا أونو."

"لكنى أرى يا معلم أن تلك الصور توحى بلغة متناهية التأثير بذات تلك الصفات."

"كنتُ صغيرًا جدًا عندما أعددت هذه الصور. أظننى لم أمجد العالم الطليق لأنى ما استطعت أن أحمل نفسى على الإيمان بقيمته. فكثيرًا ما ينوء الشباب بأثقال الذنب من جراء الملذات، وأحسبنى لم أختلف عنهم فى شيء. أتصور أنى اعتقدت أن إهدار الوقت فى مثل تلك الأماكن وتبديد مهارات الإنسان فى الاحتفاء بنشاطات مجردة عابرة به شيء من الضياع والفساد. فمن العسير أن يعجب الإنسان بجمال عالم حين يرتاب فى شرعيته ذاتها."

تفكرتُ فى حديثه ثم أقررت: "من الحق أن أعترف يا معلم أن ما انتهيتَ إليه قد ينطبق على عملى أنا أيضًا، لهذا لن أدخر وسعًا لتصحيحه."

يبدو أن السيد موري لم يسمعني، إذ استطرد قائلاً: "على أني نفضتُ يا أونو كل تلك الشكوك منذ أمد بعيد. وعندما يمتد بي العمر وأطل على حياة خلفتُها ورائي لأجدني كرستها لمهمة أسر الجمال الفريد لذلك العالم، سأكون قرير العين ولن يدفعني أي إنسان إلى الاعتقاد أني ضيعت وقتي سدى."

يجوز طبعًا أن السيد موري لم يفه بتلك الكلمات تحديدًا. فبعد تأمل تلك العبارات، تظهر في الواقع أقرب إلى نوعية العبارات التي كنتُ أنا نفسي أصرح بها لتلاميذي بعدما نشرب قليلاً بالميجي-هيداري. "باعتباركم الجيل الجديد من الفنانين اليابانيين، أنتم تحملون على عاتقكم مسؤولية ثقافة هذه الأمة. إني أشعر بالفخر لأن لدي تلاميذ مثلكم. وعلى حين أني قد لا أستحق غير أقل الثناء على لوحاتي، عندما أتطلع إلى حياتي من ورائي وأتذكر أني احتضنتكم وعاونت مسيرتكم، لن يجعلني أي إنسان أعتقد أني ضيعت وقتي هباء". متى ألقيت بأحد تلك التصريحات، تتعالى حول المائدة كل أصوات هؤلاء الشباب المجتمعين لتحجب القوية منها الضعيفة احتجاجًا على نبذي للوحاتي صارخين بأنها بلا شك أعمال عظيمة واثقة من مكانتها عبر الأجيال المقبلة. لكني أشرت من قبل أني ورثت فعلاً من السيد موري عبارات وتعبيرات كثيرة أضحت صفة مميزة لشخصي، لذا احتمال كبير أن تكون تلك الكلمات هي عين كلمات معلمي ليلتها وقد رسختْ في ذهني لِما خلفته من انطباع قوي وقتئذ.

غير أنى عدتُ إلى الانحراف عن الموضوع. كنتُ أحاول استدعاء الغذاء الذى تناولته بالمركز التجارى مع حفيدى الشهر الفائت عقب تلك المحادثة المزعجة مع سيتسوكو بمتنزه كاواب. أعتقد فى الحقيقة أنى كنت أتذكر على الأخص إطراء إشيرو على السبانخ.

فور وصول غذائنا جلس إشيرو منشغلاً بالسبانخ فى طبقه دافعًا إياها بملعقته. رفع وجهه قائلاً: "انظر يا أوجي!"

راح حفيدى يكوم أكبر كمٍ ممكن من السبانخ بملعقته ثم رفعها عاليًا فى الهواء وجعل يسكبها فى فمه كمن يشرب البقية الباقية فى زجاجة.

"عيب يا إشيرو."

إلا أن حفيدى ظل يصب المزيد من السبانخ فى فمه وهو يمضغ بنشاط طيلة الوقت. لم يخفض ملعقته سوى لمّا فرغتْ وامتلأ خداه إلى حد الانفجار. ثبّت بعد ذلك تعبيرًا متجهمًا على وجهه وهو لا يزال يمضغ ثم دفع صدره إلى الأمام لاكمًا الهواء حوله.

"ماذا تفعل يا إشيرو؟ أخبرنى ماذا يشغلك."

"خمن يا أوجي!" قال وهو يلوك السبانخ.

"أ أ. لا أعرف يا إشيرو. رجل يحتسى الساكى ويقاتل. لا؟ قل لى أنت إذن. لا يستطيع أوجى التخمين."

"البحار جاحظ العينين!"

"مَن هذا يا إشيرو؟ بطل آخر من أبطالك؟"

"يأكل البحار جاحظ العينين السبانخ لتزوده بالقوة."

دفع صدره ثانية إلى الأمام وسدد للهواء مزيدًا من اللكمات.

"فهمتُ يا إشيرو،" قلتُ ضاحكًا. "السبانخ طعام رائع حقًا."

"أيجعلك الساكى قويًا؟"

جرى الابتسام على ثغرى وهززت رأسى: "الساكى يجعلك تعتقد أنك قوى إنما الحقيقة يا إشيرو هى أنك لا تزداد قوة عن سابق شربك له."

"إذًا لِم يا أوجى يشرب الرجال الساكي؟"

"لا أعلم يا إشيرو. ربما لأنهم يستطيعون الاعتقاد أنهم أقوياء هنيهة لكن الساكى لا يمد الرجل بالقوة بالفعل."

"تزودك السبانخ بالفعل بالقوة."

"إذن فالسبانخ أفضل بكثير من الساكى. استمر يا إشيرو فى تناول السبانخ. لكن انظر، ماذا عن كل هذه الأصناف الأخرى بطبقك؟"

"أنا أحب شرب الساكى والويسكى. هناك حانة فى مدينتى أذهب دائمًا إليها."

"أحقًا يا إشيرو؟ أظنه يحسن بك أن تواصل أكل السبانخ، فهى كما تقول تجعلك قويًا فعلاً."

"أنا أحب الساكى أكثر. أشرب عشر زجاجات كل ليلة ثم أشرب عشر زجاجات ويسكى."

"صحيح يا إشيرو؟ هذا هو الشرب الحقيقى وإلا فلا. لا بد أن هذا يسبب صداعًا حقيقيًا لأمك."

"النساء لا تفهمن أبدًا طبيعة شربنا نحن الرجال،" قال إشيرو ثم صرف انتباهه إلى الغذاء الموضوع أمامه. إلا أنه ما لبث أن رفع عينيه ثانية: "سيأتى أوجى على العشاء الليلة."

"نعم يا إشيرو، أتوقع أن تعد خالتك نوريكو طعامًا شهيًا."

"أحضرتْ خالتى نوريكو بعض الساكى وقالت إن أوجى والعم تارو سيشربانه كله."

"حسنًا، ربما نشربه كله حقًا. أنا متأكد أن النساء سوف يلذ لهن احتساء القليل منه أيضًا. لكنها على حق يا إشيرو، الساكى بالأساس شراب الرجال."

"ماذا يحدث يا أوجى إن شربتْ النساء الساكي؟"

"أ أ. لا يمكن تخمين هذا. فالنساء لسن فى قوتنا نحن الرجال يا إشيرو، لذا قد يسكرن بسرعة البرق."

"ربما تسكر خالتى نوريكو! قد تشرب كأسًا صغيرة وتسكر تمامًا."

انطلقتْ ضحكة من بين شفتى: "نعم، محتمل جدًا."

"ربما تسكر خالتى نوريكو تمامًا! وستصدح بأغان ثم تهوى نائمة على المائدة!"

"طيب يا إشيرو،" قلت والضحك لا يذهب عنى. "يستحسن إذًا أن نحتفظ بالساكى لأنفسنا نحن الرجال، أليس كذلك؟"

"الرجال أقوى، لذا نستطيع أن نشرب أكثر."

"صحيح يا إشيرو. الأفضل أن نحتفظ بالساكى لأنفسنا."

تفكرتُ لحظة ثم أضفت: "أظنك فى الثامنة الآن يا إشيرو. ستكبر لتغدو رجلاً ناضجًا. مَن يعلم؟ ربما يعمل أوجى على أن تحصل على بعض الساكى الليلة."

صوب حفيدى إلى نظرة تنم عن إحساسه بالتهديد ولم ينبس بكلمة. وجهتُ إليه ابتسامة ثم رنوت إلى السماء الرمادية الباهتة من النافذة العريضة بجوارى.

"لم تقابل خالك كنجى قط يا إشيرو. عندما كان فى مثل عمرك، كان فى مثل حجمك وقوتك. أذكر أنه تذوق الساكى لأول مرة لمّا كان فى سنك تقريبًا. سأعمل على أن تتذوق قليلاً منه الليلة."

لاح إشيرو وكأنه يدرس المسألة لحظة ثم قال:

"ربما تعمل أمى مشكلة."

"لا تقلق من أمك يا إشيرو. سيقدر أوجى على التعامل معها."

هز إشيرو رأسه فى سأم. "لا تفهم النسّاء أهمية احتساء الرجال للساكى."

"لقد حان الوقت لرجل مثلك أن يتذوق الساكى. لا تشغل بالك يا إشيرو، دع أمك لأوجى. لا يمكننا أن ندع النساء يتّحكمن فينا، أليس كذلك؟"

ظل حفيدى منهمكًا فى أفكاره هنيهة ثم علا صوته فجأة:

"قد تسكر خالتى نوريكو!"

"سنرى يا إشيرو،" قلت ضاحكًا.

"قد تسكر خالتى نوريكو تمامًا."

مرت خمس عشرة دقيقة أو نحوها ونحن فى انتظار الآيس كريم ثم سأل إشيرو بصوت متفكر:

"يا أوجى أكنتَ تعرف يوجيرو ناجوشي؟"

"لا بد أنك تعنى يوكيو ناجوشى. لا، لم يسبق لى أبدًا معرفته معرفة شخصية."

لم يبدر من حفيدى أى رد فعل مشغولاً على ما يظهر بالفرجة على انعكاس صورته على لوح الزجاج المجاور.

رحت أقول: "يبدو أن أمك كانت تفكر هى الأخرى فى السيد ناجوشى حين تحدثت معها بالمتنزه هذا الصباح. أفهم من ذلك أن الكبار كانوا يتكلمون عنه على العشاء الليلة الماضية، أليس كذلك؟"

مضى إشيرو يحملق برهة إلى انعكاس صورته ثم استدار إلى متسائلاً:

"أكان السيد ناجوشى مثل أوجي؟"

"أكان السيد ناجوشى مثلي؟ حسنًا، يبدو أن أمك عن نفسها لا تعتقد هذا. الحكاية يا إشيرو هى أنى كنت أقول شيئًا لعمك تارو فى مرة من المرات ولم أكن جادًا فيما قلته. لكن البادى أن أمك أخذته على محمل جاد زيادة عن اللزوم. بالكاد أذكر ما قلته آنذاك للعم تارو لكن حدث أن أوحى أوجى أنه يشترك فى أمر أو اثنين مع أشخاص كالسيد ناجوشى. الآن أخبرنى يا إشيرو، ماذا كان الكبار يقولون الليلة الماضية؟"

"لِمَ قتل السيد ناجوشى نفسه يا أوجي؟"

"لا يمكن معرفة هذا على وجه اليقين يا إشيرو. فأنا لم أكن أعرف السيد ناجوشى شخصيًا قط."

"لكن أكان رجلاً شريرًا؟"

"لا. ما كان رجلاً شريرًا. لم يكن سوى شخص عمل مجتهدًا على أن يصنع ما حسبه فى سبيل الخير. لكن تعرف يا إشيرو؟ حين انتهت الحرب، اختلفتْ الأمور تمامًا. كانت الأغانى التى لحنها السيد ناجوشى ذائعة الصيت، ليس فى المدينة فقط بل فى أرجاء اليابان كافة. غناها المغنون فى المذياع والحانات وصدح أمثال خالك كنجى بها وهم يتقدمون إلى المعركة أو قبلها. وبعد أن انتهت الحرب، ظن

السيد ناجوشى أن أغانيه كانت – يعنى – نوعًا من الخطأ. إذ تفكر فى كل مَن لقى حتفه وكل الصبية الذين فى سنك يا إشيرو وحُرموا من آبائهم، فكر فى كل هذه الأشياء وظن أن أغانيه ربما كانت غلطة. فشعر أن من واجبه أن يقدم اعتذارًا لكل مَن عاش، لصبية صغار حُرموا من آبائهم ولآباء فقدوا صبية صغار مثلك. أراد أن يقول لكل هؤلاء الناس: أنا آسف. أعتقد أن هذا هو سبب انتحاره. لم يكن السيد ناجوشى رجلاً شريرًا البتة يا إشيرو. فقد تحلى بالشجاعة عندما اعترف بأخطائه واتصف بكل شجاعة وشرف."

كان إشيرو يرمقنى وهو مستغرق فى التفكير، فضحكتُ قائلاً: "ما بالك يا إشيرو؟"

هم حفيدى بالتحدث لكنه التفت ثانية لينظر إلى وجهه المنعكس على الزجاج.

"ما قصد جدك أوجى أى شيء بقوله إنه يشبه السيد ناجوشى. كانت دعابة ليس إلا. أخبر أمك بذلك عندما تسمعها مرة ثانية تتحدث عن السيد ناجوشى. لأنه من كلامها هذا الصباح، أستطيع أن أقول إنها فهمت الأمر برمته بشكل خاطئ تمامًا. ماذا بك يا إشيرو؟ حط عليك الهدوء فجأة."

عقب تناول الغذاء قطعنا بعض الوقت فى التجول بين محلات وسط المدينة، نتفرج على اللعب والكتب. وقرب انتهاء الظهيرة ابتعت لإشيرو آيس كريم آخر من أحد المقاهى الأنيقة الكائنة بحذاء

شارع ساكوراباشى وذلك قبل أن نتوجه إلى شقة تارو ونوريكو الجديدة بإيزوميماشى.

ومنطقة إيزوميماشى أصبح من الشائع، كما قد تعلم، أن يسكنها الآن الأزواج الشبان القادمون من بيئات اجتماعية أرقى، فهى تتميز ولا شك بجو مهذب محترم. لكن يلوح لى أن أغلب العمارات حديثة الإنشاء التى جذبتْ هؤلاء الأزواج الشبان تفتقر إلى الإبداع ويعيبها الضيق. فشقة تارو ونوريكو مثلاً عبارة عن شقة صغيرة مكونة من حجرتين فى الطابق الثالث: الأسقف منخفضة والأصوات تصل إليها من الشقق المجاورة والنافذة تشرف كلية على المبنى المقابل ونوافذه. وبعد قضاء وهلة فى المكان، بدأتُ أجده خانقًا من فرط ضيقه، وأنا موقن أن هذا لا يعود فقط إلى اعتيادى على منزلى التقليدى الأكثر رحابة. على أن نوريكو فخورة أى فخر بشقتها وما تنفك تطرى على خصائصها "الحديثة". إذ يبدو أنه من الميسور للغاية الحفاظ على نظافتها والتهوية بها شديدة الفاعلية والمطابخ والحمامات بالأخص مصممة على الطراز الغربى بالمبنى كله، وابنتى تؤكد لى أنها أكثر عملية بمراحل من – مثلاً – المنافع الموجودة ببيتى.

مهما كان المطبخ مريحًا، فهو أشد ما يكون صغرًا، وعندما دلفتُ إليه مسائها لأرى كيف تتقدم الوجبة على يد ابنتى، لم يتسع لى كى أقف به، فلم أمكث لأتحدث معهما طويلاً، إذ بدتا كذلك مشغولتين. لكنى علقت فى إحدى اللحظات:

"أتعلمين؟ قال لي إشيرو إنه متحمس لتذوق القليل من الساكي."

كانت سيتسوكو ونوريكو تقفان متجاورتين وهما تُشرحان الخضراوات، فإذا بهما تكفان وترفعان بصريهما إلي.

استطردتُ: "أعطيت الموضوع بعض التفكير وقررت أنه من الممكن أن ندعه يتذوق مقدارًا قليلاً لكن ربما ينبغي أن تخففيه ببعض الماء."

"معذرة يا أبي، لكن أتقترح أن يشرب إشيرو الساكي الليلة؟" استفسرتْ سيتسوكو.

"القليل منه فحسب، فهو قبل كل شيء ولد لا يزال في طور النمو. لكن كما قلتُ يحسن بك أن تخففيه."

تبادلتْ ابنتاي النظرات ثم قالت نوريكو: "إنه لا يزال في الثامنة يا أبي."

"ليس ثمة ضرر ما دمت ستخلطينه بالماء. قد لا تفهمن أنتن النساء لكن هذه الأشياء تعني الكثير بالنسبة لولد صغير مثل إشيرو. إنها مسألة كبرياء. سوف يتذكر هذا الحدث بقية عمره."

"يا أبي، هذا هراء. كل ما سيحدث هو أن إشيرو سيمرض،" اعترضتْ نوريكو.

"هراء أم لا، لقد قلّبتُ الموضوع بعناية. أنتن النساء أحيانًا لا تبدين تعاطفًا كافيًا مع كبرياء ولد." أشرت إلى زجاجة الساكي

الموضوعة على الرف فوق رأسيهما وقلت: "جرعة صغيرة فقط ستفى بالغرض."

هممت بالخروج عقب هذه الكلمات الأخيرة بيد أنى سمعت نوريكو تقول: "هذا غير مطروح للنقاش يا سيتسوكو. لا أدرى ماذا يدور فى ذهن أبى."

"لِم كل هذا الهرج والمرج؟" قلت مستديرًا عند المدخل. فقد وردتْ إلى من خلفى أصوات تارو وحفيدى يتضاحكان على شيء ما بحجرة المعيشة. خفضتُ صوتى واستطردتُ: "على أى حال أنا أعطيته وعدًا الآن وهو يتوق إلى التجربة. أنتن النساء لا تفهمن أحيانًا فى مسائل الكبرياء."

كنتُ على وشك ترك المطبخ ثانية عندما تحدثتْ سيتسوكو هذه المرة:

"إنه عطف كبير من أبى أن يراعى مشاعر إشيرو بهذا الاهتمام لكن ألا تراه قد يكون من المستحسن أن ننتظر حتى يكبر إشيرو قليلاً؟"

صدرتْ عنى ضحكة خافتة: "أتعلمين؟ أذكر احتجاج أمك بنفس تلك الطريقة تمامًا حين قررتُ أن أترك كنجى يتذوق الساكى فى هذه السن، والساكى بالتأكيد لم يؤذ أخاك."

شعرتُ بالندم فى الحال لإقحامى كنجى فى مثل هذا الخلاف التافه وأعتقد بحق أنى تضايقت من روحى أيما ضيق برهة، لذا

يجوز أنى لم أعر ما قالته سيتسوكو بعدها اهتمامًا كبيرًا. مهما يكن يبدو أنها قالت شيئًا من قبيل:

"لا شك يا أبى أنك أوليت تربية أخى عناية بالغة إنما فى ضوء ما جرى فى الماضى، ربما نستطيع أن ندرك أن أفكار أمى كانت بحق الأكثر سدادًا فيما يتعلق بموضوع أو اثنين على الأقل."

كى أكون منصفًا، يُحتمل أنها لم تقل أى شيء بغيضًا إلى هذه الدرجة، ويجوز حقًا أنى أسأت كلية فهم ما قالته لأنى أذكر بوضوح أن نوريكو لم يصدر عنها بتاتًا أى رد فعل تجاه كلمات أختها سوى أنها عادت متبرمة إلى تقطيع خضراواتها، فضلاً عن أنى لا أخال سيتسوكو قادرة على إقحام ملحوظة لا مبرر لها على الإطلاق مثل هذه فى الحديث. لكن من جانب آخر، حين آخذ بعين الاعتبار التلميحات التى ألقتها بمتنزه كاواب فى وقت سابق من نفس اليوم، أخاله على أن أعترف باحتمالية قولها بالفعل كلمات لها مثل هذا الوقع. على كل أذكر أن سيتسوكو ختمت حديثها:

"بالإضافة إلى أنى أخشى ألا يرغب سويشى فى أن يحتسى إشيرو الساكى حتى يكبر قليلاً لكن هذا لطف بالغ من أبى أن يولى مشاعر إشيرو هذه العناية."

مع إدراكى أن إشيرو قد يسمع حديثنا مصادفة ولأنى ما أردت أن أفسد ما كان لمِ شمل عائلى يندر حدوثه، تركتُ النقاش ينتهى عند هذا الحد وخرجتُ من المطبخ. أذكر أنى جالست تارو وإشيرو هنيهة

فى غرفة المعيشة، نخوض فى الأحاديث الممتعة ونحن ننتظر العشاء.

جلسنا أخيرًا لتناول الطعام بعد نحو ساعة. وفيما كنا نأكل، مد إشيرو يده إلى قارورة الساكى ونقر عليها بأصابعه وهو يرمينى بنظرة تشى بسرنا. تبسمتُ له دون أن أفتح فمى بكلمة.

جهزتْ النساء وجبة عامرة وسرعان ما تدفق الحديث بيننا بعفوية. أضحكنا تارو كلنا عندما حكى قصة أحد زملائه بالعمل اشتهر بعدم التزامه الكامل بمواعيد إنجاز شغله بسبب مزيج من سوء حظه وغبائه الهزلى. وبينما كان يروى القصة، قال تارو:

"تفاقمتْ الأمور حقًا حتى إنه يبدو أن رؤساءنا اعتادوا تسميته بـــ 'السلحفاة.' وأثناء اجتماع مؤخرًا، نسى السيد هياساكا نفسه وأعلن بالفعل: 'سنستمع لتقرير السلحفاة ثم نأخذ استراحة الغذاء.'"

"حقًا؟" هتفتُ به دهشًا. "هذا فى منتهى الغرابة، أنا نفسى كان لدى زميل ذات يوم يُلقب بهذه الكنية ولنفس الأسباب على ما يظهر."

غير أن تارو لم يبد بالغ الاندهاش لهذه المصادفة، إذ أومأ بأدب قائلاً: "أذكر أن كان هناك أيضًا تلميذ بالمدرسة سميناه كلنا بـــ 'السلحفاة.' وفى الحقيقة مثلما يوجد بكل مجموعة قائدها الطبيعى، أخالها تشتمل كذلك على 'سلحفاة.'"

بعد تلك الملحوظة رجع تارو إلى قص نادرته. والآن طبعًا عندما أفكر فى المسألة، ألفى صهرى على حق تمامًا؛ فأغلب

المجموعات التى تضم أندادًا لا تخلو من 'سلحفاة' وإن لم يُستخدم الاسم' نفسه دائمًا. فمن بين تلاميذى مثلاً كان شينتارو مَن لعب هذا الدور. وليس هذا إنكارًا لجدارة شينتارو على أنه حينما نضعه جنبًا إلى جنب مع أمثال كورودا، يبدو للمرء وكأن موهبته تفتقد بعدًا كاملاً.

أعتقد أنى لست معجبًا بالإجمال بسلاحف هذا العالم. ففى حين يُقدر المرء ثباتهم الكادح وقدرتهم على البقاء، يرتاب فى أنهم تعوزهم الصراحة ويقوون على الخيانة. وفى ظنى أن الإنسان يحتقر فى النهاية عزوفهم عن مواجهة المخاطر باسم الطموح أو من أجل مبدأ يدّعون الإيمان به. ومَن على شاكلتهم لن يسقطوا البتة ضحايا لنوعية المصائب العظمى التى ابتُلى بها مثلاً أكيرا سوجيمورا من جراء متنزه كاواب لكنهم بالمثل، وبرغم ما قد يكتسبونه أحيانًا من احترام ضئيل لكونهم معلمين بإحدى المدارس أو غير ذلك، لن يحققوا إطلاقًا أى إنجاز فوق العادى.

صحيح أنى صرت مولعًا للغاية بالسلحفاة أثناء تلك الأعوام التى أمضيناها معًا بفيلا السيد مورى إلا أنى ما اعتبرته أبدًا ندًا لى وذلك لطبيعة صداقتنا ذاتها التى تشكلت أثناء اضطهاد السلحفاة بشركة الأستاذ تاكيدا وما واجهه من عقبات خلال شهورنا الأولى بالفيلا؛ إذ توثقت عرى صداقتنا بعد فترة لتصبح بطريقة ما علاقة كان هو فيها على الدوام مدينًا لى بـــ "دعم" ما غير محدَد قدمتُه له. بل إنه بعد انقضاء فترة طويلة حتى أدرك كيف يرسم دون إثارة

عداء الآخرين، حتى غدا محبوبًا بوجه عام لطبعه اللطيف الكريم، كان لا يزال يقول لى جملاً مثل:

"لقد طوقتَ عنقى بجميلك يا سيد أونو، فالفضل يرجع لك أنهم يحسنون معاملتى هنا."

كان السلحفاة بمعنى ما مدينًا لى بالقطع، فمن الواضح أنه بدون مبادرتى ما كان ليفكر مطلقًا فى ترك الأستاذ تاكيدا ليصير تلميذ السيد مورى. كان كارهًا إلى أبعد حد أن يتخذ مثل تلك الخطوة المغامرة بيد أنه حالما أُكره على القيام بها، ما خالجه أبدًا شك فى صواب القرار. الحق أن السلحفاة خلع على السيد مورى مهابة عظيمة حتى إنه لم يستطع لمدة طويلة – لِما لا يقل عن أول سنتين – أن يُجرى محادثة مع معلمنا سوى أن يغمغم قائلاً: "نعم أيها المعلم" أو "لا أيها المعلم".

راح السلحفاة طوال تلك الأعوام يرسم بمثل البطء الذى دأب عليه لكن لم يخطر ببال أحد أن يأخذ هذا ضده. كان هناك فى الواقع عديدون آخرون ممن اشتغلوا بمثل بطئه تمامًا. وقد مال هذا الحزب فى الواقع إلى السخرية منا نحن العاملين بسرعة أكبر. أذكر أنهم وصفونا بـــ "المهندسين" مقارنين الطريقة الحادة المهتاجة التى عملنا بها – ما إن تبرق فى بالنا خاطرة – بسائق قاطرة يجرف الفحم خوفًا من نفاذ الطاقة فى أية لحظة. ونحن فى المقابل سمينا الحزب البطيء بـــ "المتراجعين". و"المتراجع" مصطلح يُستعمل فى الأصل

بالفيلا ليشير إلى شخص يصر فى حجرة مزدحمة بالمشتغلين على الحوامل أن يخطو إلى الوراء كل بضع دقائق ليتفحص لوحته مما يسفر عن اصطدامه المستمر بزملائه العاملين خلفه. كان بالطبع إجحافًا ما بعده إجحاف أن نوحى بأن الفنان الذى يود أن يأخذ وقتًا كافيًا مع لوحته مذنب بتلك العادة المضادة لروح الجماعة، ألا وهى التراجع للخلف إذا أمكن القول مجازًا، غير أننا استمتعنا بما لازم اللقب من إثارة. وأذكر بحق الكثير من المزاح رائع الظرف حول "المهندسين" و "المتراجعين".

الحقيقة مع ذلك هى أن معظمنا تقريبًا نزع إلى "التراجع"، لذا تفادينا قدر الإمكان الاحتشاد معًا أثناء العمل. فكان العديد من زملائى يقيمون حواملهم صيفًا على مسافات منتظمة بطول الشرفات أو بالخارج فى الفناء نفسه فى حين أصر آخرون على تخصيص عدة غرف للرسم، إذ طاب لهم التنقل من حجرة إلى أخرى حسب الضوء. أما أنا والسلحفاة فقد واظبنا على العمل فى المطبخ المهجور – وهو ملحق واسع كالمخزن يقع خلف أحد الأجنحة.

كانت الأرضية تربة مستوية عند المدخل ترتفع فى المؤخرة لتكسوها ألواح خشبية تسع حاملينا نحن الاثنين. أما العوارض المتقاطعة المنخفضة ذات الكلاليب – التى تدلت عليها ذات يوم القدور وأدوات المطبخ الأخرى – وأرفف الخيزران المعلقة على الحوائط فقد نفعتنا فى وضع الفرش والخرق والألوان وغيرها. كنت أنا والسلحفاة نحضر قدرًا ضخمًا قديمًا أسود اللون ونملأه على آخره

بالمياه ثم نحمله إلى المستوى المرتفع ونعلقه على البكرات القديمة ليتدلى بيننا فى مستوى الكتف أثناء الرسم.

وفى ظهيرة أحد الأيام كنا نرسم فى المطبخ القديم كما هى العادة عندما فاتحنى السلحفاة:

"يتملكنى أشد الفضول بشأن لوحتك الحالية يا سيد أونو، لا بد أنها لوحة شديدة التميز."

انفرج فمى عن ابتسامة دون أن أصرف نظرى عن اللوحة وسألتُه: "لِم تقول هذا؟ إنها مجرد تجربة بسيطة تخصنى، هذا كل ما فى الأمر."

"لكن مر وقت طويل يا سيد أونو منذ رأيتك تعمل بمثل هذه الكثافة. وقد التمستَ الخصوصية وأنت لم تلتمس الخصوصية منذ سنتين على الأقل منذ كنتَ تجهز 'رقصة الأسد' لمعرضك الأول."

ربما ينبغى هنا أن أفسر أنه بين الفينة والأخرى متى شعر الفنان أن عملاً معينًا ستتم عرقلته قبل اكتماله بفعل تعليقات من أى نوع، 'يلتمس الخصوصية' لذلك العمل ليصبح مفهومًا وقتها ألا يحاول أى شخص النظر إليه ريثما يحين الوقت الذى يسحب فيه الفنان طلبه. كان ترتيبًا حكيمًا نظرًا لمعيشتنا وعملنا بهذا القرب، إذ أتاح مساحة للمرء كى يجازف دون مخافة سخرية الآخرين.

"هل المسألة ملاحظة حقًا؟ ظننت أنى أجيد إخفاء إحساسى بالإثارة؟"

"يظهر أنك تنسى يا سيد أونو، نحن نرسم جنبًا إلى جنب منذ قرابة ثمانية أعوام الآن. أجل، بإمكانى حقًا أن أؤكد أن هذا العمل بالغ التميز بالنسبة لك."

علّقتُ: "ثمانية أعوام، أظنك على حق."

"فعلاً يا سيد أونو. إنه شرف لى أن أعمل عن كثب ممن هو فى مثل موهبتك. كثيرًا ما يتضاءل قدرى إلى جانبك لكنه شرف عظيم مع ذلك."

"أنت تبالغ،" ابتسمتُ متابعًا الرسم.

"على الإطلاق يا سيد أونو. أشعر بالفعل أنى لم أكن لأتقدم البتة طيلة هذه السنوات بدون الإلهام النابع من رؤية أعمالك وهى تتضح أمام عينى. لقد انتبهتِ بالقطع إلى ما تدين به لوحتى المتواضعة 'فتاة الخريف' للوحتك الرفيعة 'فتاة فى المغيب.' إنها واحدة من محاولات عديدة كى أبارى ألمعيتك يا سيد أونو. أنا فاطن إلى أنها محاولة واهنة بيد أن السيد مورى كان على جانب من الكرم أن أثنى عليها باعتبارها خطوة ذات شأن بالنسبة لمستقبلى."

"تُرى الآن،" كفت يدى لحظة عن ضربات الفرشاة وتطلعتُ إلى عملى. "تُرى هل ستلهمك هذه اللوحة أيضًا."

أخذتُ أرنو برهة إلى لوحتى نصف المكتملة ثم رميت صديقى بنظرة عبر القدر العتيق المعلق بيننا. كان السلحفاة يرسم بسعادة غافلاً عن تحديقى فيه. زاد وزنه قليلاً منذ أول معرفتى به فى شركة

الأستاذ تاكيدا، والنظرة المنهَكة المتوجسة التى علت وجهه أيامها تبدلت كلية بسيماء من القناعة الطفولية. أذكر حقيقة أن شخصًا فى ذلك الوقت تقريبًا شبه السلحفاة بجرو دُلل للتو، وقد تلائم هذا الوصف من دون شك مع الانطباع الذى بلغنى وأنا أرصده يرسم فى تلك الظهيرة بالمطبخ القديم.

"أخبرنى يا سلحفاة، أنت قانع كل القناعة بعملك الآن، أليس كذلك؟"

"كل القناعة، شكرًا يا سيد أونو،" أجاب من فوره.

ثم رفع نظره مردفًا بسرعة وقد سادت وجهه ابتسامة عريضة: "ما يزال أمام عملى درب طويل قبل أن يحتل مقامًا إلى جانب عملك يا سيد أونو."

استعادت اللوحة عينيه، راقبتُه يعمل لبضع دقائق ثم سألتُه:

"ألا تفكر أحيانًا فى تجربة بعض... بعض المناهج الجديدة؟"

"مناهج جديدة؟" نبس دون أن يرتقى بناظريه.

"قل لى يا سلحفاة، أليست لديك طموحات أن تنتج فى يوم ما لوحات ذات أهمية حقة؟ أنا لا أقصد عملاً قد نعجب به ونطرى عليه فيما بيننا هنا بالفيلا فحسب إنما عمل له أهمية فعلية، عمل يعد إسهامًا مهمًا لشعب أمتنا. من أجل هذه الغاية أتحدث يا سلحفاة عن الحاجة إلى منهج جديد."

كنتُ أرقبه بدقة وأنا أنقل إليه كل هذا الكلام بيد أنه لم يقبض يده عن الرسم.

"لا أكتمك يا سيد أونو، أى شخص يشغل مكانتى المتواضعة لا ينقطع عن تجربة مناهج حديثة لكنى أعتقد أنى شرعت أخيرًا فى العام الماضى فى العثور على الطريق السليم. تعرف يا سيد أونو؟ لاحظتُ أن السيد مورى ينظر إلى لوحاتى عن كثب أكثر فأكثر هذا العام الماضى. أعلم أنه مسرور منى. ومَن يدري؟ ربما حتى تتهيأ لى الفرصة فى وقت ما من المستقبل أن أقيم المعارض جنبًا إلى جنب معك ومع السيد مورى." ثم اتجه ببصره نحوى وضحك متحرجًا: "معذرة يا سيد أونو، إنه مجرد خيال جامح ليشحذ همتى."

قررت ألا أستزيد الحديث فى الموضوع وصدق عزمى أن أحاول مجددًا فى وقت لاحق كسب ثقة صديقى غير أن الأحداث سبقتنى فى النهاية بما وقع منها.

كان صباحًا مشرقًا بعد أيام قليلة من المحادثة التى حكيتها للتو. مرقتُ من المطبخ القديم لأجد السلحفاة يقف على المستوى المرتفع فى مؤخرة ذلك المبنى الشبيه بالمخزن ويحملق إلى وجهى. احتاجت عيناى إلى ثوان معدودة حتى تتكيف مع العتمة بعد نور الصباح الساطع بالخارج لكنى سرعان ما لاحظت ما غام على وجهه من سحابة حذرة بل وتقريبًا مذعورة؛ كان هناك شيء ما بحق فى الطريقة المرتبكة التى رفع بها ذراعه نحو صدره قبل أن يدعها

تسقط مجددًا أوحى إلى أنه توقع أنى سأهاجمه. لم يقم حامله أو غيره من إعداد عمل اليوم. بادرتُه بالتحية لكنه لم يزد على الإطراق، فدنوتُ منه وألقيت عليه بالسؤال:

"ما الخطب؟"

"يا سيد أونو..." تمتم ولم يضف. اعتليت المستوى المرتفع فنظر إلى يساره والعصبية تركبه. تتبعتُ تحديقته وصولاً إلى لوحتى غير المكتملة، مغطاة ووجهها إلى الحائط. أومأ السلحفاة تجاهها فى عصبية:

"يا سيد أونو، أهذه مزحة؟"

"لا يا سلحفاة،" قلت وأنا أصعد المستوى المرتفع، "إنها ليست مزحة على الإطلاق."

تقدمتُ إلى اللوحة وسحبتُ الأغطية ثم أدرتها فى مواجهتنا، فما كان من السلحفاة إلا أن انتزع بصره على الفور.

"يا صديقى كنتَ فى يوم من الأيام شجاعًا بما يكفى فأنصتَ إلى وأقدمنا معًا على خطوة لا غنى عنها فى سبيل مسيرتنا المهنية. وأنا أسألك الآن أن تدرس اتخاذ خطوة أخرى معى إلى الأمام."

سأل السلحفاة وهو لا يزال يشيح بوجهه:

"يا سيد أونو، هل مدرسنا على علم بهذه اللوحة؟"

"لا، ليس بعد. لكنى أعتقد أنى قد أريه إياها هو الآخر. لقد استقر عزمى أن أرسم من الآن فصاعدًا تماشيًا مع هذه الأفكار. انظر إلى لوحتى يا سلحفاة. دعنى أشرح لك ما أحاول صنعه وبعدها ربما نستطيع أن ننجز معًا من جديد خطوة ذات شأن."

استدار أخيرًا لينظر إلى.

"يا سيد أونو،" قال بصوت يقترب من الهمس، "أنت خائن. والآن أرجوك ائذن لى."

وحالما نبس بهذه الجملة، هرول إلى خارج المبنى.

واللوحة التى أزعجتْ السلحفاة إلى هذه الدرجة عنوانها 'الرضا عن الذات'، ومع أنها لم تبق فى حوزتى طويلاً، استثمرتُ فيها آنذاك الكثير من الجهد حتى إن تفاصيلها ظلت مطبوعة بذاكرتي؛ أشعر بحق أنى أستطيع اليوم إعادة إبداعها بكل دقة إن رغبتُ. وقد استلهمتُ اللوحة من منظر صغير شهدتُه قبل رسمها ببضعة أسابيع، شيء اصطدمتْ به عيناى أثناء مشيى مع ماتسودا.

أذكر أننا كنا فى طريقنا إلى مقابلة زملاء لماتسودا من جمعية أوكادا-شينجين أراد أن يقدمنى إليهم. كان هذا فى نهاية الصيف لمّا انصرمتْ أحر أيامه وإن كنتُ أذكر أنى تتبعت خطوات ماتسودا الواسعة المطردة بحذاء الجسر الصُلب فى نيشيزورو وأنا أمسح العرق عن وجهى متمنيًا أن يتمهل رفيقى. ارتدى ماتسودا يومذاك سترة صيفية أنيقة لونها أبيض، وكالعادة أمال قبعته فى أناقة. وعلى

سرعته، كانت خطواته الواسعة عفوية بلا أى استعجال. وحينما توقف عند منتصف الجسر، لم تبد عليه حتى المعاناة من القيظ.

"يشرف الجسر على منظر مثير من هنا،" ابتدرنى قائلاً. "أليس كذلك يا أونو؟"

كان المشهد فى أسفلنا محاطاً بإطار من مبانى مصنعين يلوح أحدهما يمنة والآخر يسرة وقد أُقحمت بينهما فوضى من الأسطح المكتظة، بعضها مغطى بألواح خشبية رخيصة والبعض الآخر مصنوع ارتجالاً من المعادن المموجة. لا تزال نيشيزورو تُعرف حتى الآن بأنها منطقة محرومة بيد أن الأوضاع أيامها كانت أسوأ مئات المرات. وعند تصفح هذا المجتمع من فوق الجسر، ربما يفترضه حقًا الغريب موقعًا مهجورًا فى سبيله إلى الفناء لولا العديد من الشخوص الدقيقة التى تتراءى للمرء مع المعاينة الأدق، شخوص تتحرك بنشاط حول المنازل كما يحتشد النحل حول الأحجار.

نبهنى ماتسودا: "انظر إلى هناك يا أونو، ثمة المزيد والمزيد من مثل هذه الأماكن فى مدينتنا. منذ سنتين أو ثلاث فحسب، لم يكن هذا مكانًا رثًا لكنه تحول الآن إلى منطقة أكواخ. إن الناس تزداد فقرًا يا أونو ويجبرون على هجرة منازلهم بالريف لينضموا إلى رفقائهم الذين يقاسون فى مثل هذه المناطق."

"يا للبشاعة، هذا الحال يجعل الواحد راغبًا فى صنع شيء من أجلهم."

واجهنى ماتسودا بواحدة من ابتساماته المترفعة التى لم تخفق مرة فى إشعارى بعدم الراحة والحماقة ثم استدار ليستقر بصره على المنظر: "إنها مشاعر حسنة النية. كلنا نتفوه بها. فى كل دروب الحياة. وفى غضون ذلك تظهر إلى حيز الوجود مثل هذه الأماكن لتستشرى فى كل الأنحاء شأنها شأن الفطريات المؤذية. اسحب نفسًا عميقًا يا أونو، بإمكانك حتى من هنا أن تشم رائحة قذارة البالوعات."

"لقد شممتُ رائحة كريهة، أهى بالفعل قادمة من هناك؟"

لم يجبنى ماتسودا وأخذ يرصد ذلك المجتمع المكون من أكواخ وابتسامة غريبة تنطبع على وجهه ثم أنبأنى:

"قلما يرى السياسيون ورجال الأعمال مثل هذه الأماكن، وإن رأوها على أية حال، فهم يقفون بمنأى آمن عنها، كما نقف نحن الآن. أشك لو أن الكثير من السياسيين ورجال الأعمال ساروا من هناك، كما أشك إن كان قد فعلها فنانون كثيرون."

لاحظتُ التحدى البادى فى نبرات صوته فقلت:

"لن أعترض لو لن يؤخرنا عن موعدنا."

"بالعكس، سنوفر كيلو متر أو اثنين باختصار المسافة عبر المنطقة."

كان ماتسودا على صواب فى تصوره أن الرائحة منشؤها بلاعات ذاك المجتمع. فبينما كنا ننزل إلى سفح الجسر الصُلب لنشرع فى شق طريقنا عبر سلسلة من الحارات الضيقة، اشتدت الرائحة إلى

أن أصبحت بحق مثيرة للغثيان. ما عاد هناك أى أثر للرياح حتى تقاوم الحر، والحركة الوحيدة فى الهواء كانت طنين الذباب اللانهائى حولنا. ألفيت روحى أجاهد ثانية لمجاراة خطوات ماتسودا الواسعة وإن لم أشعر هذه المرة برغبة فى أن يبطئ سرعته.

قامت على الجانبين ما بدت وكأنها أكشاك مغلقة يومها فى ساحة أحد الأسواق غير أنها كانت فى الواقع منازل قائمة بذاتها لا يفصلها أحيانًا عن الزقاق إلا ستارة من القماش. جلستْ فى بعض المداخل عجائز شيعننا بنظرات شاخصة لا تخلو من فضول وإن لم تكن عدوانية البتة؛ ظهر الأطفال الصغار وهم يجيئون ويذهبون فى كل الاتجاهات بينما راحت القطط تعدو حول أقدامنا. أوغلنا فى الزقاق، نتفادى الملاءات والغسيل المعلق على حبال رديئة؛ عبَرنا رضعًا يبكون وكلابًا تنبح وجيرانًا يتسامرون فى ود عبر الزقاق من وراء الستائر المغلقة على ما يظهر. وبعد برهة ازداد وعيى بمصارف البلاعات المفتوحة على جانبى الطريق الضيق وقد حام حولها الذباب. وفيما واصلتُ ملاحقة ماتسودا، انتابنى شعور واضح بأن المساحة بين المصارف تزداد ضيقًا باطراد حتى لاح وكأننا نحفظ توازنا فوق جذع شجرة ساقط على الأرض.

بلغنا فى آخر الأمر ما يشبه الساحة. سدت الطريق أمامنا مجموعة كبيرة من الأكواخ المزرية. أشار ماتسودا إلى فتحة بين اثنين منها تراءت من خلالها قطعة مفتوحة من الأرض الخراب.

أخبرني: "لو قطعنا الطريق من هناك سننتهي خلف شارع كوجان."

لاحظتُ بالقرب من مدخل الطريق الذي أشار إليه ماتسودا ثلاثة صبية صغار ينحنون فوق شيء واقع على الأرض وينخسونه بالعصي. عندما دنونا منهم، استداروا بعجلة والعبوس ينال من وجوههم. ومع أني لم أتبين شيئًا، أنبأني أمر في سلوكهم أنهم كانوا يعذبون حيوانا. لا بد وأن عين الاستنتاج قد وصل ماتسودا لأنه قال ونحن نسير بحذائهم: "حسنًا، معهم شيء صغير يسلوا به أنفسهم."

لم أفكر كثيرًا في هؤلاء الصبية الصغار وقتها. مرت بضعة أيام ثم استعادت ذاكرتي بجلاء تام صورة الثلاثة وهم يستديرون نحونا بوجوه مقطبة ملوحين بعصيهم وهم واقفون هناك وسط كل تلك القذارة، فاستخدمتُها كفكرة رئيسية للوحة 'الرضا عن الذات.' لكني سألفت انتباهك إلى أن السلحفاة عندما اختلس النظر إلى لوحتي الناقصة في ذاك الصباح، كان الصبية الثلاثة الذين شاهدهم مختلفين عن نماذجهم الأصلية في ناحية أو ناحيتين هامتين. فبرغم أنهم كانوا لا يزالون واقفين أمام كوخ حقير قذر وملابسهم هي عين الأسمال البالية التي ارتداها الصبية الأصليون، لم يكن العبوس المرتسم على وجوههم عبوس المذنب في موقف الدفاع لمجرمين صغار انضبطوا متلبسين؛ على العكس، تبدى على وجوههم العبوس الرجولي لمحاربي الساموراي وقد شمروا عن سواعدهم للقتال. وهي ليست صدفة كذلك أن صبية لوحتي أمسكوا بعصيهم في أوضاع كلاسيكية على غرار فن الشيش الياباني، الكندو.

وفوق رؤوس هؤلاء الصبية الثلاثة أبصر السلحفاة اللوحة تخبو لتتضح صورة ثانية – ثلاثة رجال سمان فى منتهى الأناقة يجلسون بحانة مريحة ويطلقون قهقهاتهم. تراءت على وجوههم نظرات منحطة؛ علهم ينكتون حول عشيقاتهم أو موضوع من تلك المواضيع. صيغت هاتان الصورتان المتناقضتان معًا ضمن حدود ساحل الجزر اليابانية. وفى أسفل الهامش الأيمن كتبتُ بحروف جلية 'الرضا عن الذات'؛ كما أضفت بحروف أصغر فى أسفل الجانب الأيسر التصريح التالى: 'إلا أن الشباب على أهبة الاستعداد للقتال فى سبيل كرامتهم.'

حينما أصف هذا العمل المبكر والبسيط بلا مراء، ربما تستوقفك بعض ملامحه بألفتها. إذ يجوز أنك ملم بلوحتى 'عيون على الأفق' التى حققتْ فى الثلاثينيات – كصورة مطبوعة عن كليشيه – بعض الشهرة والأثر في كل أرجاء المدينة. كانت 'عيون على الأفق' فى الواقع تنقيحًا للوحة 'الرضا عن الذات' رغم الاختلافات التى قد تكون متوقعة لاعتبارات المسافة الزمنية بينهما. واللوحة الثانية، كما قد تتذكر، وظفتْ أيضًا فكرتين متناقضتين تندمجان مع بعضهما ويحف بهما ساحل اليابان؛ كانت الصورة العلوية عبارة مرة أخرى عن ثلاثة رجال مهندمين يتباحثون غير أن سيماءهم هذه المرة اختلجت فيها العصبية ولاحت وكأنها تتطلع إلى مبادرة من أحدهم. ولا حاجة بى أن أذكرك أن هذه الوجوه تشبه وجوه السياسيين البارزين الثلاثة. أما الصورة السفلية فكانت لها الغلبة، صار الصبية

الثلاثة الذين ضربهم الفقر جنودًا تنبعث الصرامة من جباههم؛ كان اثنان منهم يقبضان على بنادق مزودة بحراب ويحيطان بضابط يشهر سيفه ويشير إلى الأمام، جهة الغرب نحو آسيا. ومن ورائهم لم تعد هناك خلفية توحى بالفقر؛ فقط العلم العسكرى للشمس المشرقة. استبدلتُ 'الرضا عن الذات' فى أسفل الهامش الأيمن بـ 'عيون على الأفق!' وعلى الجانب الأيسر كتبتُ رسالة: 'لا وقت لأحاديث الجبناء. لا بد لليابان أن تسير قدمًا.'

وبالطبع لو كنتَ وافدًا جديدًا على المدينة، يحتمل ألا تكون قد صادفت هذا العمل لكنى لا أعتقد أنى أبالغ لو قلتُ إن عددًا كبيرًا ممن عاشوا هنا قبل الحرب كانوا على علم به. فقد نال بحق استحسانًا عظيمًا وقتها وذلك لأسلوب الفرشاة المفعم بالحيوية وخصوصًا الاستخدام القوى للألوان. لكنى بطبيعة الحال واع تمامًا لأن 'عيون على الأفق' – مهما كانت ميزاتها الفنية – لوحة تعبر عن مشاعر عفاها الزمن الآن. الحق أنى أول المعترفين بأن نفس تلك المشاعر قد تستوجب الإدانة، فلستُ ممن يهابون الإقرار بما شاب إنجازات الماضى من عيوب.

لكنى لم أرد أن أناقش 'عيون على الأفق.' فما ذكرتُها هنا سوى لعلاقتها الواضحة باللوحة الأولى ولأعترف، فيما أظن، بما خلفه لقائى بماتسودا من أثر على مسارى المهنى اللاحق. طفقتُ أقابل ماتسودا بانتظام لبضعة أسابيع قبل ذلك الصباح الذى اكتشف فيه السلحفاة لوحتى. وأخال أن استمرارى فى لقائه دال على إعجابى

بأفكاره، فأنا أذكر أنى لم أمل إليه فى مبدأ الأمر. الواقع أننا ختمنا أغلب اجتماعاتنا الأولى بعداء شديد. أذكر على سبيل المثال أنى توجهتُ معه فى إحدى الأمسيات إلى حانة فى مكان ما بوسط المدينة وذلك بعد أمد قصير من اليوم الذى تتبعتُه فيه عبر منطقة نيشيزورو الفقيرة. غاب عن بالى اسم الحانة ومكانها لكنى أستحضر بوضوح أنها كانت غارقة فى الظلمة والقذارة، يرتادها حثالة المدينة. لسعنى الخوف بمجرد أن دلفتُ إليها إلا أن ماتسودا بدا معتادًا على المكان، إذ حيا بعض الرجال الذين كانوا يلعبون الكوتشينة على المائدة قبل أن يقودنى إلى ركن به مائدة صغيرة شاغرة.

لم يتبدد خوفى بعد برهة من جلوسنا. إذ اقترب سكيران غليظا المظهر وهما يترنحان نحو الركن. أرادا أن يشاركانا الحديث بيد أن ماتسودا أمرهما بكل صراحة أن يبتعدا. توقعتُ بالفعل حدوث مشكلة لكن الظاهر أن ثمة شيئًا ما فى شخصية رفيقى أفقدهما شجاعتهما، فمضيا عنا دون تعليق.

جلسنا فترة وجيزة بعدها نحتسى الخمر، وجرى بيننا حوار سرعان ما اكتسب طابعًا فظًا. أذكر أنى قلت له مرة:

"لا ريب أننا نحن أهل الفن قد نستأهل أحيانًا سخرية أمثالك لكنك مخطئ للأسف فى افتراضك أننا جميعنا نرنو إلى العالم بعيون ساذجة."

ندت عن ماتسودا ضحكة:

"ينبغى أن تتذكر يا أونو أنى قابلت الكثير من الفنانين، وأنتم على الجملة زمرة منحلة انحلالاً مذهلاً. إن درايتكم عن أحوال هذا العالم لا تزيد فى الغالب على دراية الطفل عنه."

كنتُ على وشك الاحتجاج قبل أن يردف ماتسودا: "عندك مثلاً يا أونو خطتك هذه التى اقترحتَها للتو بجدية متناهية. هى مؤثرة أيما تأثير، على أنها - إذا سمحتَ لى أن أقول - تكشف النقاب عن كل السذاجة المميزة لكم أنتم الفنانين."

"أعجز عن فهم السبب الذى يجعل فكرتى تستحق استهزاءك. لكن الواضح أنى أخطأت حين افترضتُ أنك تحفل بفقراء هذه المدينة."

"لا داعى لهذه السخرية الطفولية، أنت تعلم جيدًا مبلغ همى. لكن دعنا نتأمل قليلاً خطتك الصغيرة تلك. دعنا نفترض أن الشيء بعيد الاحتمال سوف يحدث، وهو أن معلمك سيتعاطف معك، وعليه ستقضون كلكم فى الفيلا أسبوعًا، ربما أسبوعين، فى إنتاج - ماذا؟ عشرون لوحة؟ ثلاثون على الأكثر. إذ لا هدف من إنتاج أكثر من ذلك، فلن تبيعوا مهما كان أكثر من عشر لوحات أو إحدى عشرة لوحة. ماذا ستصنع بعدها يا أونو؟ ستجوب المناطق الفقيرة بهذه المدينة حاملاً كيسًا صغيرًا من العملات التى جمعتَها من جراء كل هذا العمل الشاق؟ وستهب سنًا لكل فقير تقابله؟" -

"معذرة يا ماتسودا، لكن يتحتم على أن أكرر على مسامعك – لقد جانبك الصواب حين افترضتَ فى شخصى السذاجة المفرطة. أنا لم أقترح لحظة واحدة أن يقتصر المعرض على مجموعة السيد مورى. فأنا واع كل الوعى لحجم الفقر الذى نسعى إلى تخفيفه، ولهذا أتيتك بهذا الاقتراح. فجمعية أوكادا-شينجين التى تشترك فيها تشغل مكانة لها القدرة على تنمية مثل هذه الخطة. إن المعارض الضخمة التى تقام بانتظام فى كل أرجاء المدينة جاذبة المزيد من الفنانين سوف تمثل إعانة عظيمة لهؤلاء الناس."

"أنا آسف يا أونو" فاه ماتسودا وهو يبتسم ويهز رأسه. "لكنى كنت للأسف محقًا فى افتراضى برغم كل شيء. فأنتم الفنانون كما الوليد على قدر مفرط من السذاجة." استند إلى ظهر مقعده وبعث تنهيدة من صدره. كان سطح المائدة مغطى برماد سجائر، فأخذ ماتسودا فى انشغال فكره يرسم أشكالاً عليه بحرف علبة كبريت فارغة تركها الجالسون قبلنا. واستطرد: "يوجد نوع معين من الفنانين هذه الأيام، وهم الذين تكمن موهبتهم العظمى فى القدرة على الاختباء بعيدًا عن العالم الواقعى. ويبدو للأسف أن مثل هؤلاء الفنانين يهيمنون الآن على الساحة، وقد خضعتَ يا أونو تحت سيطرة أحدهم. لا تغضب لهذه الدرجة يا أونو، فهذا صحيح. إن معرفتك عن العالم كمعرفة طفل عنه بل إنى أشك مثلاً أنك تستطيع أن تقول لى من هو كارل ماركس."

نظرتُ إليه نظرة لا بد وأنها لاحت عابسة ولم أنبس ببنت شفة. فانطلقتْ منه ضحكة: "أرأيتَ؟ لكن لا تنزعج زيادة عن اللزوم، معظم زملائك لا يعرفون أزيد منك."

"لا تكن سخيفًا، بالطبع أعرف كارل ماركس."

"ياه، أنا آسف يا أونو، لعلى لم أوفك حقك، أرجوك، أخبرنى عن ماركس."

هززت كتفى مستهجنًا: "أعتقد أنه قاد الثورة الروسية."

"إذن ماذا عن لينين يا أونو؟ أكان ربما نائبًا لماركس؟"

"زميلاً من نوع ما." شاهدتُ ماتسودا يبتسم ابتسامة أخرى واسعة، فقلت سريعًا قبل أن يتمكن من فتح فمه: "على كل حال كلامك هذا مناف للعقل، تلك شئون بلد بعيد، أنا أتحدث عن فقراء مدينتنا."

"بالفعل يا أونو بالفعل، لكن أتعلم؟ أنت تعرف عن هذا الشأن أيضًا أقل القليل. كنتَ على صواب حقًا إذ افترضتَ أن جمعية أوكادا-شينجين تعنى بتنشيط الفنانين وتقديمهم إلى العالم الحقيقى على أنى قد خدعتك لو أوحيت أبدًا أن جمعيتنا تريد أن تتحول إلى وعاء كبير للتسول. فنحن لا نكترث للإحسان."

"ليس بمقدورى أن أستوعب ما هو وجه الاعتراض على القليل من الإحسان. وإن فى الوقت نفسه تفتحتْ أعيننا نحن الفنانين المنحلين، إذًا فهى نتيجة أحسن بكثير على ما أظن."

"إن عينيك لهى يقينًا بعيدة كل البعد عن البصيرة يا أونو لو اعتقدتَ أن: الضئيل من الإحسان الطيب بإمكانه معاونة فقراء بلدنا. جلية الأمر هى أن اليابان تنطلق نحو أزمة. فمقادير الشعب تحت أيدى رجال أعمال جشعين وسياسيين ضعاف، ومثل هؤلاء الأشخاص سوف يعملون على تنامى الفقر كل يوم ما لم نُقدِم نحن الجيل الصاعد على فعل شيء. بيد أنى لست يا أونو داعيًا يستهدف إثارة قضية سياسية، فاهتمامى ينصب على الفن والفنانين أمثالك، الفنانين الشبان أصحاب الموهبة الذين لم يعمهم بعد إلى الأبد ذلك العالم الحبيس التافه الذى تسكنونه كلكم. إن جمعية أوكادا–شينجين قائمة لمساعدة أمثالك كى يفتحوا أعينهم وينتجوا أعمالاً ذات قيمة أصيلة فى هذه الأوقات العسيرة."

"لا تؤاخذنى يا ماتسودا، لكن يصدمنى أن تكون أنت الساذج فى الحقيقة. إنّ هَم الفنان أن يأسر الجمال أينما يجده لكن مهما بلغت مهارته فى إنجاز هذه المهمة، سيكون قليل التأثير على نوعية القضايا التى تتحدث أنت عنها. وإذا كانت جمعية أوكادا–شينجين بحق كما تدعى، فهى إذن سيئة التخطيط. إذ تبدو لى مؤسسة على خطأ ساذج حول ما يمكن للفن أن يحققه وما لا يمكن له تحقيقه."

"أنت تعرف حق المعرفة أننا لا نزن الأمور بتلك البساطة المخلة. الواقع أن جمعية أوكادا–شينجين ليست بمعزل عن المجتمع. إذ يوجد شباب مثلنا فى حقول الحياة كافة – فى السياسة والجيش – يفكرون بنفس الطريقة. فنحن الجيل الصاعد، ومعًا يمكننا أن نبلغ

هدفًا ذا قيمة حقة. وقد اتفق أن بعضنا يضمر للفن اهتمامًا لا مزيد عليه ويتمنى أن يراه متفاعلاً مع عالم اليوم. الحقيقة يا أونو أنه فى مثل هذه الأوقات – حين يزداد الناس فقرًا والأطفال جوعًا ومرضًا بكل ركن حولك – لا يكفى أن يتوارى الفنان فى مكان ما بعيد لينمق لوحات المومسات. يسعنى أن أرى غضبك، بل إنك تبحث الآن عن طريقة لترد بها على حجتى لكنى لا أقصد سوءًا يا أونو. أرجوك، أمعن التفكير فى هذه النقاط لاحقًا، فأنت رغم كل شيء شخص يتمتع بموهبة هائلة."

"طيب، أخبرنى إذن يا ماتسودا، كيف نستطيع نحن الفنانون المنحطون الحمقى أن نساعد على إحداث ثورتك السياسية؟"

عاود ماتسودا الابتسام في استخفاف عبر الطاولة فأحسست منه بضيق شديد. قال: "ثورة؟ فعلاً يا أونو! يريد الشيوعيون ثورة إلا أننا لا نريد أى شيء من هذا القبيل. على العكس تمامًا فى الحقيقة. نحن نبغى إحداث عملية استعادة، ندعو ببساطة صاحب الجلالة الإمبراطور إلى العودة إلى منصبه الشرعى كرئيس لدولتنا."

"لكن الإمبراطور يشغل بالفعل هذا المنصب على وجه التحديد."

"ويحك يا أونو، إن عقلك غاية فى السذاجة والتشوش." ظل صوته هادئًا تمامًا كالعادة إلا أنه راح فى تلك اللحظة يشتد صرامة. "إن الإمبراطور هو زعيمنا الشرعى لكن إلام صارت الأحوال على

أرض الواقع؟ تم انتزاع السلطة على أيدى رجال الأعمال هؤلاء والسياسيين الموالين لهم. أنصت إلى يا أونو، لم تعد اليابان دولة متخلفة يسكنها الفلاحون والقرويون. نحن الآن أمة جبارة قديرة على مجاراة أية أمة غربية. إن اليابان تقف فى نصف الكرة الآسيوى كالعملاق وسط المقعدين والأقزام. ومع ذلك ندع شعبنا يزداد يأسًا على يأس وأطفالنا الصغار يموتون من سوء التغذية. وفى هذه الأثناء يتعاظم ثراء رجال الأعمال ولا ينفك السياسيون يختلقون الأعذار الوهمية ويثرثرون فى اللغو. أتستطيع أن تتخيل أية قوة من القوى الغربية تسمح بهذا الوضع؟ كانوا بلا شك سيبادرون إلى اتخاذ خطوة فعالة منذ أمد طويلة."

"خطوة؟ ما نوع الخطوة التى تشير إليها يا ماتسودا؟"

"لقد آن لنا أن نشكل إمبراطورية فى مثل قوة إمبراطوريتى بريطانيا وفرنسا وثرائهما. ينبغى أن نستغل بأسنا حتى نتوسع فى الخارج. حان الآن الوقت أن تحتل اليابان مكانتها الشرعية وسط قوى العالم. صدقنى يا أونو، لدينا الموارد لتحقيق هذا لكن لا يزال علينا أن نكشف عن إرادتنا. يجب أن نتخلص من هؤلاء السياسيين ورجال الأعمال، بعدها سيكون الجيش مسؤولاً أمام صاحب الجلالة الإمبراطور وحده." ثم أرسل ضحكة خفيضة وأطرق محملقًا إلى الأشكال التى نسجها من رماد السجائر: "لكن هذه مهمة على الآخرين بالأساس أن يقلقوا بشأنها، أما أمثالنا يا أونو فعليهم توجيه رعايتهم نحو الفن."

على الرغم من هذا، أعتقد أن سبب انزعاج السلحفاة فى المطبخ المهجور بعدها بأسبوعين أو ثلاثة ليس وثيق الصلة بتلك القضايا التى ناقشتُها مع ماتسودا ليلتها؛ فالسلحفاة ليس نافذ البصيرة حتي يتعمق فى فهم لوحتى غير المكتملة. فكل ما وقف عليه هو أنها تمثل تجاهلاً صارخًا لأولويات السيد موري؛ إذ تخلتْ عن مسعى المَدرسة الجماعى لأسر ضوء المشكاة الرقيق فى عالم المتعة؛ وقدمتْ فن الخطوط اليدوية بصورة بينة ليكمل الأثر البصري؛ وفوق كل شيء كان السلحفاة سيصعق بلا مرية لو انتبه إلى أن أسلوبى توسع فى استخدام الخطوط من غير تظليل – وهو منهج على جانب من التقليدية كما ربما تعلم إلا أن نبذه كان واحدًا من تعاليم السيد مورى الأساسية.

أيًا كانت أسباب حنقه، أدركتُ عقب ذاك الصباح أنى ما عدت أستطيع أن أخفى عن المحيطين بى حقيقة أفكارى التى تسرع فى التطور وأن المسألة مسألة وقت فقط حتى يسمع معلمنا نفسه بها. وهكذا بحلول الوقت الذى دار فيه ذلك الحوار بينى وبين السيد مورى داخل مقصورة حدائق تاكامى، كنتُ قد قلّبت فى رأسى ما قد أقوله وعقدتُ العزم على ألا أتخاذل.

تم هذا اللقاء بعد ذلك الصباح فى المطبخ بأسبوع أو نحوه. قطعتُ أنا والسيد مورى فترة ما بعد الظهر فى المدينة بغرض قضاء إحدى المهام – ربما لننتقى بعض الأدوات ونطلبها، لا أذكر بالضبط. ما أذكره بالفعل هو أن السيد مورى لم يتعامل معى بأية طريقة

غريبة أثناء إتمام المهمة. وبعدها ومع اقتراب المساء توفر لدينا وقت قصير قبل تحرك القطار فارتقينا الدرجات المنحدرة خلف محطة يوتسوجاوا وصعدنا إلى حدائق تاكامى.

قامتْ على حدائق تاكامى فى تلك الأيام مقصورة تسر الناظرين، تقع بالضبط على حافة التل المشرف على المنطقة ولا تبعد فى الحقيقة عن الموقع الحالى لنصب السلام التذكارى. كانت أوضح معالم المقصورة جاذبية مشكاوات تزين أفاريز السطح الأنيق على امتداده. على أنى أذكر عند اقترابنا من المقصورة أن ليلتها بالذات كانت كل المشكاوات مطفأة. كنتَ تلفى المقصورة حين تخطو تحت سقفها فى رحابة حجرة ضخمة، ولأنها لم تكن مسيجة من أى جانب، لم يحجب منظر المنطقة بالأسفل غير الأعمدة المقنطرة الداعمة للسطح.

احتمال كبير أن لقائى بالسيد مورى ليلتها كان المناسبة التى اكتشفتُ فيها تلك المقصورة لأول مرة. وقد ظلت مكانًا مفضلاً لدى قلبى على مدار السنين حتى انتهى بها الأمر إلى أن دمرتْها الحرب، وطالما اصطحبتُ تلاميذى إليها كلما وضعتْنا المصادفات فى ذلك الطريق. أعتقد بحق أنى أجريت فى تلك المقصورة ذاتها آخر أحاديثى مع كورودا – أعظم تلاميذى موهبة – قبل الحرب مباشرة.

على أية حال عندما تتبعتُ السيد مورى إلى المقصورة فى تلك الأمسية الأولى، كانت السماء تتشح بلون قرمزى باهت والأضواء تنبثق من فوضى الأسطح التى كانت لا تزال مرئية فى الظلمة

بالأسفل. تقدم السيد مورى نحو المنظر واتكأ بكتفه على أحد الأعمدة رافعًا بصره نحو السماء فيما شاع الارتياح فى وجهه. نبس دون أن يستدير ناحيتى:

"ثمة بعض أعواد الثقاب والشموع فى منديلنا، من فضلك أضئ هذه المشكاوات، أتخيل أن يكون الأثر غاية فى الإمتاع."

وفيما كنتُ أدور فى المقصورة مشعلاً المشكاة بعد الأخرى، خبت الحدائق حولنا فى العتمة بشكل مطرد، كان الهدوء يخيم عليها والسكون يغرقها. وفى هذه الأثناء رحت أحدق فى شبح السيد مورى المرتسم قبالة السماء وهو يتطلع بنظرات متأملة إلى المشهد. ربما كنتُ قد أضأت نصف المشكاوات لمّا سمعتُه يقول:

"ما الذى يقلقك أذن كل هذا القلق يا أونو؟"

"معذرة يا معلم؟"

"ذكرتَ اليوم أن ثمة شيئًا ما يقلقك."

فرت منى ضحكة خافتة وأنا أمد يدى نحو إحدى المشكاوات.

"إنه أمر بسيط يا معلم. لن أزعجك به غير أنى لست موقنًا من مغزاه. الحقيقة هى أنى اكتشفت منذ يومين أن أحدهم نقل بعض لوحاتى من المكان الذى أحفظها به دائمًا فى المطبخ القديم."

ظل السيد مورى على إطراقه لحظات ثم قال:

"وبم أنبأك به الآخرون؟"

"سألتُهم ولم يظهر أن أحدًا يدرى شيئًا أو على الأقل لم يبد أن أحدًا يرغب فى إخبارى."

"ما الذى استنتجتَه إذًا يا أونو؟ أهناك مؤامرة تحاك ضدك؟"

"فى الحقيقة يا معلم، يلوح لى فعلاً أن الآخرين شديدو الحرص على تحاشى صحبتى. والحق أنى لم أستطع أن أقيم محادثة واحدة مع أى منهم طوال هذه الأيام القليلة الفائتة. فعندما أدخل أية حجرة، يلوذ مَن فيها بالصمت أو يغادرونها كلية."

لم يبدر منه أى تعليق على كلامى. أرسلتُ بصرى ناحيته فلاح لى ما زال مستغرقًا فى سماء غلفتْ خلفية المكان. كنتُ أضيء مشكاة أخرى حين التقطتُ صوته:

"لوحاتك موجودة عندى الآن. آسف لو كنتُ قد سببت لك ذعرًا بأخذى إياها. غاية الأمر أن قليلاً من الفراغ أتيح لى صدفة منذ بضعة أيام ففكرتُ أن أنتهز الفرصة للاطلاع على عملك الجديد. ويبدو أنك كنت وقتئذ بالخارج فى مكان ما. أعتقد أنه كان لزامًا على أن أخبرك عندما عدتَ يا أونو. آسف."

"ياه، العفو يا معلم. شكرًا جزيلاً أنك أوليت عملى هذه العناية."

"لكن هذا طبيعى أن أوليك عنايتى، فأنت أبرع تلاميذى وقد استثمرتُ أعوامًا فى احتضان موهبتك."

"بالقطع يا معلم، إن أفضالك تغرقنى."

سكتْ كلانا لحظات معدودة بينما تابعتُ إشعال المشكاوات ثم توقفتُ قائلاً:

"أشعر بارتياح شديد لأن لوحاتى لم يصبها ضرر. كان يجب أن أفطن إلى وجود تفسير بسيط من هذا القبيل. أستطيع الآن أن أريح بالى."

لم يعقب السيد مورى، ووسعنى أن أدرك من خلال شبحه أنه لم يشح بعينيه عن المنظر. خطر ببالى أنه لم يسمعنى فعلت نبرتى قليلاً:

"أنا سعيد أنى أستطيع أن أريح بالى لسلامة اللوحات."

"أجل يا أونو،" رد السيد مورى كمن يجفل مستيقظًا من أفكار نائية. "كان عندى القليل من وقت الفراغ فأرسلتُ أحدهم ليأتينى بعملك الجديد."

"كنتُ من الحماقة أن قلقت عليها، يسعدنى أنها سالمة."

أمسكتُ عن القول هنيهة لذا خلته لم يسمعنى مجددًا إلا أنه قال:

"لقد أخذنى العجب قليلاً لما شاهدتُ. يبدو أنك تستكشف سبلاً غريبة."

لعله بالطبع لم يستخدم تلك العبارة تحديدًا، 'تستكشف سبلاً غريبة' لأنه جال بذهنى أنى أنا نفسى نزعت كثيرًا إلى استعمال ذلك

التعبير خلال الأعوام التالية، على كنت أتذكر كلماتى لكورودا فى المناسبة التالية بنفس تلك المقصورة. لكنى من ناحية أخرى أعتقد أن السيد مورى أشار أحيانًا بحق إلى 'استكشاف السبل؛' ويجوز أن يكون هذا فى الحقيقة مثالاً آخر لما ورثتُه من خصال عن معلمى السابق. على كل أذكر أنه لم يند عنى سوى ضحكة مرتبكة ثم امتدت يداى إلى مشكاة أخرى. تناهى إلى مسامعى صوته يقول:

"ليس سيئًا أن يجرب الفنان الشاب قليلاً، فهو بهذه الطريقة يثير من داخل منظومته أكثر اهتماماته سطحية – وذلك من بين فوائد أخرى – ثم يمكنه الرجوع بعدها إلى عمل أكثر جدية مصحوبًا بالتزام لم يعهده من قبل." ثم تمتم بعد فترة توقف وكأنه يكلم روحه: "لا، التجربة ليست سيئة، إنها جزء من كون المرء شابًا. ليست سيئة على الإطلاق."

"يخالجنى شعور طاغ يا معلم أن عملى الجديد هو أجمل أعمالى حتى الآن."

"إنه ليس سيئًا، ليس سيئًا على الإطلاق. لكن على الجانب الآخر لا يتعين على المرء أن يهدر وقتًا طويلاً فى مثل تلك التجارب وإلا سيغدو حاله كمن يكثر من السفر، يحسن به أن يسرع بالرجوع إلى العمل الجاد."

تريثتُ قليلاً لأرى إذا كان سيضيف شيئًا ثم أنهيت إليه بعد لحظات: "كنتُ بلا شك أحمق لمغالاتى فى القلق على سلامة

اللوحات. لكن أتعلم يا معلم؟ أنا أشد افتخارًا بها من أى شيء آخر قمتُ به. ومع ذلك كان يجدر بى أن أخمن مثل هذا التفسير البسيط."

مكث السيد موري مطرقًا. وعندما رميته بنظرة سريعة عبر مشكاة كنتُ أضيئها، لم أستطع أن أميز إذا ما كان يتدبر كلماتى أم يفكر فى شيء آخر كلية. وفى حين والت السماء غروبها وأضأتُ المزيد والمزيد من المشكاوات، غلف المقصورة مزيج عجيب من الضوء. غير أن هيئة السيد مورى لم تفتأ مجرد شبح مائل على عامود يولينى ظهره.

قال أخيرًا: "قيل لى بالمصادفة يا أونو إن هناك لوحة أو اثنتين أكملتَهما مؤخرًا وليستا معى الآن."

"احتمال كبير أنى لم أحفظ لوحة أو اثنتين مع اللوحات الأخرى."

"آه، وهى بلا مراء أحب لوحتين إلى نفسك."

لم أرد على هذه الملحوظة فأردف السيد مورى:

"ربما تأتينى بتلك اللوحتين عند عودتنا يا أونو، فأنا أرغب بشدة فى رؤيتهما."

تفكرتُ لحظة ثم قلت: "سأكون بالقطع ممنونًا للغاية لمعرفة رأى المعلم لكنى لست موقنًا تمامًا من مكانهما."

"لكنك ستحاول أن تجدهما على ما أثق."

"سيحدث يا معلم. وفى غضون ذلك لعلى سأريح المعلم من اللوحات الأخرى التى تكرم وحفل بها، فهى بلا شك تزحم منزلك، لذا سأنقلها بمجرد عودتنا."

"لا داعى لأن تتعب نفسك بها يا أونو، حسبى أن تعثر على اللوحتين الباقيتين وتحضرهما."

"آسف يا معلم، لن أستطيع أن أجد اللوحتين."

"مفهوم يا أونو" أطلق تنهيدة متبرمة، وكان بمقدورى أن أرى أنه استأنف التحديق فى السماء. "أنت إذًا لا تعتقد أنه يمكنك أن تأتينى بهاتين اللوحتين."

"لا يا معلم، للأسف."

"مفهوم. لا ريب أنك فكرت مليًا فى مستقبلك فى حالة تخليك عن رعايتى."

"كان أملى أن يتفهم معلمى موقفى ويتابع دعمه لمسيرتى المهنية."

ما انفك صامتًا فرحت أقول:

"سوف يلم بى عظيم الألم عندما أغادر الفيلا. فهذه الأعوام الماضية كانت أسعد أعوام حياتى وأغلاها. فزملائى هم أخوة لى، أما أنت يا معلم، ياه، لقد طوقتَ عنقى بأفضالك. أتوسل إليك يا معلم أن تلقى نظرة أخرى على لوحاتى الجديدة وتعيد التفكير فيها، وربما تسمح لى لمّا نعود أن أشرح نواياى فى كل لوحة."

لم يبد حتى الآن أية إشارة على سماعى فاستطرتُ:

"لقد تعلمتُ الكثير طيلة هذه السنوات الماضية، تعلمتُ الكثير عن تأمل عالم المتعة وتمييز جماله الرقيق. لكنى أشعر الآن أنه قد آن الأوان أن أرتقى نحو قضايا أخرى. إنى أؤمن يا معلم أنه فى مثل هذه الأوقات الحرجة يتعين على الفنانين أن يتعلموا تقدير شيء أكثر واقعية من تلك المتع التى تتوارى مع أول إشراقة للصباح. فليس من الضرورى أن يشغل الفنانون على الدوام عالمًا متفسخًا حبيسًا. إن ضميرى يا معلم يملى على ألا ألبث فنانًا للعالم الطليق إلى الأبد."

عند تلك الكلمات صرفتُ انتباهى مرة أخرى إلى المشكاوات، وبعد لحظات قليلة خاطبنى السيد مورى:

"كنتَ لفترة من الوقت أبرع تلاميذى وسوف يسوءنى أن أراك ترحل. دعنا نفترض مثلاً أن أمامك ثلاثة أيام حتى تأتينى باللوحتين الباقيتين. ستحضرهما ثم تعيد عقلك إلى اهتمامات أكثر ملائمة."

"مثلما ذكرتُ قبلاً يا معلم، أنا كلى أسف، لن أستطيع أن آتيك بهاتين اللوحتين."

أطلق السيد مورى صوتًا كما لو كان يضحك لنفسه ثم قال: "كما أوضحتَ بنفسك يا أونو، إنها أوقات حرجة، وهى أحرج بالنسبة لفنان شاب، تقريبًا مجهول وبلا دخل. لئن كنتَ أقل موهبة، كنتُ سأخاف على ضياع مستقبلك بعد أن تتركنى لكنك رفيق حاذق ولا ريب أنك توليت الترتيبات المناسبة."

"فى الحقيقة أنا لم أقم بأى ترتيبات من أى نوع. كانت الفيلا بيتًا لى منذ وقت طويل ولم أتوقع جديًا أن يتبدل الحال أبدًا."

"أحقًا؟ طيب، كما سبق وقلتُ يا أونو، إذا كنتَ أقل موهبة، كان سيصبح هناك مدعاة للقلق لكنك شاب حاذق." رأيت شبح السيد مورى يستدير فى مواجهتى ليقول: "لا ريب أنك ستفلح فى أن تجد عملاً فى رسم الصور التوضيحية للمجلات وكتب الأطفال المصورة بل ربما تتمكن من الالتحاق بشركة مثل التى كنتَ تشتغل بها عندما أتيت إلى فى بادئ الأمر. سوف يعنى هذا بالطبع نهاية تطورك كفنان جاد لكن لا شك أنك وضعتَ كل هذا فى حساباتك."

قد تتراءى تلك الكلمات انتقامية لا ضرورة لأن يستخدمها معلم ضد تلميذ يعرف أنه ما زال يكن له إعجابًا. لكن من ناحية أخرى عندما يهب الأستاذ الرسام متسعًا من الوقت والموارد لتلميذ بعينه وعندما يسمح أيضًا لاسم ذلك التلميذ أن يقترن باسمه علانية، ربما يغدو مفهومًا أن يفقد المعلم اتزانه برهة وتصدر عنه ردود أفعال قد يندم عليها لاحقًا وإن كان هذا عذرًا لا يقف على قدمين. ورغم أن المناورات حول ملكية اللوحات ستبدو بلا مراء حقيرة، فمن المفهوم بالقطع لو أن المعلم الذى أمد فى الواقع أغلب الألوان والمواد سينسى فى تلك اللحظة أن تلميذه له أى حق مهما كان فى تملك عمله الخاص.

وعلى الرغم من كل هذا، واضح أن مثل تلك العجرفة وحب التملك من جانب المعلم أمر يؤسف له مهما بلغتْ شهرته. ما زلت بين الحين والآخر أقلب فى عقلى ذلك الصباح الشتوى البارد ورائحة

الحريق التي كانت تغزو منخري. كان الشتاء السابق على نشوب الحرب وكنتُ أقف قلقًا على باب منزل كورودا – مكان رث ضيق اعتاد أن يستأجره بمنطقة ياكاماشي. وسعني أن أدرك أن رائحة الحريق تسرى من ركن ما بالمنزل يعلو منه صوت امرأة تنشج. جذبتُ الجرس مرات وارتفع صوتي صائحًا بأن يأتي أحد لملاقاتي غير أني لم أحظ برد. قررت في النهاية أن أدخل بنفسي لكني عندما فتحت الباب الخارجي، ظهر بالمدخل شرطي في زيه الرسمي.

"ماذا تريد؟" سأل.

"جئتُ باحثًا عن السيد كورودا، أهو بالمنزل؟"

"تم أخذ الساكن إلى قسم الشرطة للاستجواب."

"استجواب؟"

"أنصحك بالعودة إلى بيتك وإلا سنبدأ في التحرى عنك أنت أيضًا. نحن معنيون الآن بكل زملاء الساكن المقربين."

"لكن لم؟ هل ارتكب السيد كورودا جرمًا؟"

"لا أحد يريد أمثاله في الجوار. إنْ لم تذهب إلى حال سبيلك، سنحتجزك لاستجوابك أنت أيضًا."

ومن داخل المنزل لم ينقطع نشيج السيدة، كانت والدة كورودا كما افترضتُ. ونفذ إلى مسامعي صياح أحدهم فيها.

"أين الضابط المسؤول؟" سألتُ.

"فى طريقك إليه، أتريده أن يقبض عليك؟"

"قبل أن نتمادى فى هذا، دعنى أوضح لك أن اسمى أونو" لم يظهر على الشرطى، أنه تعرف الاسم فواصلتُ وقد وقع فى نفسى القليل من عدم الثقة: "أنا الرجل صاحب المعلومات التى أحضرتكم إلى هنا. أنا ماسوجى أونو، الفنان وعضو اللجنة الثقافية بوزارة الداخلية. أنا فى الواقع مستشار رسمى للجنة النشاطات غير الوطنية. أعتقد أن هناك خطأ ما هنا وأود التحدث مع المسؤول أيًا كان."

رشقنى الضابط بنظرة مرتابة ثم استدار واختفى داخل المنزل. ما لبث أن عاد وأومأ إلى بالدخول.

وفيما كنتُ أتتبعه عبر منزل كورودا، وقع بصرى على محتويات الدواليب والأدراج وقد فرغتْ على الأرضية كلها. لاحظتُ أن بعض الكتب تكدست على بعضها ورُبطت فى رزم، كانت حصيرة غرفة المعيشة مرفوعة وضباط يتفحص ألواح الأرضية ببطارية. ومن وراء حاجز مغلق أقبل على نحو أوضح صوت والدة كورودا وهى تنشج وأحد الضباط يصرخ فى وجهها بالأسئلة.

قادنى الشرطى إلى الخارج باتجاه الشرفة الواقعة فى خلفية المنزل. وفى وسط الفناء الصغير وقف ضابط آخر بزيه الرسمى وآخر يرتدى ملابس مدنية حول نار تضطرم فى الهواء الطلق. استدار مرتدى الملابس المدنية وتقدم نحوى خطوات معدودة.

"السيد أونو؟" سأل بكل احترام.

بدا الشرطى الذى قادنى إلى الداخل وقد استشعر أن سابق وقاحته لم تكن فى محلها فاستدار إلى الداخل وهو يحث خطاه.

"ماذا حل بالسيد كورودا؟"

"أخذناه للاستجواب يا سيد أونو. سنعتنى به، لا تقلق عليه."

حملقتُ ورائه إلى النار التى كانت قد خمدت تقريبًا الآن. كان الضابط ذو الحلة الرسمية ينكز الركام بعصى.

"هل حصلتم على تصريح بحرق تلك اللوحات؟"

"إن سياستنا أن ندمر أية مواد عدائية لن نحتاج إليها كدليل. وقد اخترنا عينة تكفى وتزيد، ونحن نحرق فحسب بقية هذه النفاية."

قلت: "ما كان لدى أدنى فكرة أن شيئًا من هذا سيحدث. كل ما حصل هو أنى اقترحت على اللجنة أن يأتى أحدهم ليوبخ السيد كورودا حرصًا على مصلحته." تفرستُ مرة أخرى فى الكومة التى تحترق بلا لهب وسط الفناء. "لم يكن حرقها لازمًا بالمرة، فمن بينها العديد من الأعمال القيمة."

"يا سيد أونو نحن شاكرون لمعاونتك إلا أن التحقيقات قد بدأت الآن ولا بد أن تتركها فى أيدى السلطات المناسبة. سوف نحرص على أن ينال السيد كورودا معاملة منصفة."

ابتسم وانصرف إلى النار موجهًا بعض الكلمات إلى الضابط ذى الحلة الرسمية. عاد الأخير إلى دفع النار وقال شيئًا بصوت غير مسموع فبدا وكأنه: "نفاية غير وطنية."

مكثتُ فى الشرفة، أرقب ما يجرى بعيون غير مصدقة. وفى آخر الأمر استدار ذو الملابس المدنية نحوى قائلاً: "أقترح يا سيد أونو أن تعود إلى بيتك الآن."

"لقد تفاقمتْ الأمور زيادة عن اللزوم، ولِم تستجوبون السيدة كوروودا؟ ما صلتها هى بأى شيء؟"

"هذه مسألة تخص الشرطة الآن يا سيد أونو، ما عادت تعنيك فى شيء."

"تفاقمتْ الأمور زيادة عن اللزوم. سوف أناقش الأمر مع السيد يوبوكاتا، وقد أرفع حقًا الموضوع رأسًا إلى السيد سابورى نفسه."

نادى الرجل ذو الملابس المدنية على أحد الأشخاص بالمنزل فبرز إلى جانبى الشرطى الذى فتح الباب.

"اشكر السيد أونو على مساعدته واصطحبه إلى الخارج،" قال ذو الملابس المدنية ثم ندت عنه كحة مباغتة وهو يستدير إلى النار. "اللوحات الرديئة تصدر دخانًا رديئًا" قال وهو مقطب الجبين ضاربًا الهواء أمام وجهه.

غير أن هذا كله محدود الصلة بما أتناوله هنا. أعتقد أنى كنت أستحضر أحداث ذلك اليوم من الشهر المنصرم عندما كانت سيتسوكو فى زيارة قصيرة لنا؛ كنتُ فى الواقع أحكى كيف أضحكنا تارو جميعًا حول مائدة العشاء بنوادره عن زملائه فى العمل.

كان العشاء يمضى بصورة مرضية تمامًا. لم أستطع مع ذلك تجنب ضيق أصابنى لملاحظتى إشيرو كلما صبت نوريكو الساكى. فى المرات القليلة الأولى كان يلقى إلى عبر المائدة بابتسامة تآمرية جاهدتُ لردها بأخرى محايدة قدر المستطاع. لكن عندما تقدمتْ الوجبة وتوالى صب الساكى، امتنع عن النظر إلى وحدج خالته بنظرة غاضبة وهى تعيد صب الأقداح.

كان تارو قد قص علينا عدة حكايات مسلية عن زملائه حين قالت سيتسوكو:

"أنت تسخر منهم يا سيد تارو لكنى أعلم من نوريكو أن المعنويات الآن بشركتكم فى عنان السماء. لا بد من غير ريب أن مثل هذا الجو يشكل حافزًا قويًا للعمل."

عند هذا التعليق تلون سلوك تارو فجأة بجدية متناهية، إذ قال وهو يومئ لها: "هو جد كذلك يا سيدة سيتسوكو، إن ما تكفلنا به من تغييرات عقب الحرب جعل يؤتى ثماره الآن على مستويات الشركة كافة. ونحن نستشعر تفاؤلاً عظيمًا بالمستقبل. ففى الأعوام العشرة المقبلة سوف تصبح 'كى إن سي' اسمًا معترفًا به ليس فى كل اليابان فحسب بل فى كل أرجاء العالم شريطة أن نبذل جميعًا قصارى جهدنا."

"رائع. أخبرتنى نوريكو كذلك أن مدير فرعكم رجل دمث الخلق، لا بد وأن هذا أيضًا أحدث فرقًا فى المعنويات."

"أنتِ بالقطع على صواب. على أن السيد هياساكا ليس فقط رجلاً دمث الخلق، إنه شخص يتمتع بمقدرة هائلة ورؤية نافذة. وأستطيع أن أؤكد لك يا سيدة سيتسوكو أن العمل لدى رؤساء غير أكفاء مهما كانوا طيبين يمكن أن يضعف معنويات الموظفين. إن من حسن حظنا أن شخصًا كالسيد هياساكا يقودنا."

"الحق أن سويشى قد حالفه الكثير من الحظ هو الآخر، فلديه رئيس ذو كفاءة عالية."

"أحقًا يا سيدة سيتسوكو؟ إنما هذا هو المتوقع من شركة فى حجم نيبون للأدوات الكهربائية. فخيرة الأشخاص دون سواهم هم مَن يضطلعون بالمسؤولية فى مثل تلك الشركة."

"كان الحظ حليفنا لكنى واثقة يا سيد تارو أن هذا ينطبق بالمثل على 'كى إن سى،' فسويشى لا يكف عن مدحها."

"معذرة يا تارو،" قاطعتُهما عند تلك النقطة. "أنا واثق بالطبع أن لديك جميع الأسباب للتفاؤل فى 'كى إن سي' لكنى كنت أنوى أن أسألك، أتراه للصالح العام أن أجرتِ شركتكم الكثير من التغييرات الكاسحة فى إثر الحرب؟ لقد سمعتُ أنه لم يبق إلا أقل القليل من الإدارة القديمة."

ابتسم صهرى ولاحت على سحنته أمارات التدبر: "أنا مقدر بشدة قلق أبى. فالشباب والقوة وحدهما لا يفضيان دومًا إلى خير النتائج. لكن بصراحة يا أبى، كان الوضع يستلزم الإتيان بفحص كامل دقيق، فقد كنا فى حاجة إلى مدراء جدد ينتهجون منهجًا حديثًا يتناسب مع عالم اليوم."

"بالتأكيد، بالتأكيد. وأنا لا يخالجنى أى شك فى أن رؤساءك الجدد من أقدر الرؤساء. لكن أخبرنى يا تارو، ألا يساورك القلق أحيانًا من أن نكون قد تسرعنا أكثر من اللازم قليلاً فى المشى فى ركاب الأمريكيين؟ فأنا أول الموافقين على ضرورة محو العديد من الأساليب القديمة بلا رجعة لكن ألا تعتقد أحيانًا أن بعض الجيد ينطرح مع الرديء؟ الحق أن اليابان تتبدى فى بعض الأوقات أشبه بطفل صغير يأخذ دروسًا من بالغ غريب."

"أنت محق تمامًا يا أبى. أنا متأكد أننا تسرعنا قليلاً فى بعض الأحيان بيد أن الأمريكيين لديهم عامة الكثير والكثير ليعلمونا إياه. ففى السنوات القليلة الماضية مثلاً قطعنا بالفعل نحن اليابانيون شوطًا طويلاً فى فهم قضايا مثل الديمقراطية وحقوق الأفراد. فى الواقع يا أبى يداخلنى إحساس بأن اليابان أرست أخيرًا أساسًا لتبنى عليه مستقبلاً مشرقًا، وهكذا يسع شركات مثل شركتنا أن تتشوف إلى المستقبل بثقة لا حد لها."

قالت سيتسوكو: "فعلاً يا سيد تارو، لدى سويشى نفس الإحساس بالضبط. فقد صرح مؤخرًا فى عدد من المناسبات أن بلدنا – عقب أربعة أعوام من الاضطراب – نصبت أعينها أخيرًا على المستقبل."

رغم أن ابنتى كانت تخاطب تارو بهذا التعليق، داخلنى انطباع واضح بأنه موجه إلى. البادى أن تارو أخذ كلامها على هذا المحمل أيضًا لأنه بدلاً من الرد عليها واصل:

"لقد حضرتُ يا أبى منذ بضعة أسابيع فقط حفلة عشاء للم شمل طلاب دفعتى بالكلية، وللمرة الأولى منذ الاستسلام أعرب جميع الحاضرين الوافدين من كل دروب الحياة عن تفاؤلهم بالمستقبل. إذن فشركة 'كى إن سي' ليست هى الوحيدة التى يغلب عليها إحساس بصلاح الأوضاع. وبينما أتفهم كلية قلقك يا أبى، أنا على ثقة أن الدروس التى تلقيناها خلال الأعوام السابقة كانت بوجه عام دروسًا مفيدة سوف تهدينا كلنا إلى مستقبل باهر. لكن لعل كلامى فى حاجة إلى تصحيح يا أبى."

"أبدًا، أبدًا،" قلت وعلى ثغرى ابتسامة. "كما تقول لا شك لدى أن جيلكم ينتظره مستقبل باهر وأنتم جميعًا لا تنقصكم الثقة، ولا يسعنى سوى أن أتمنى لكم الخير."

هَم صهرى بالرد لكن فى تلك اللحظة بالضبط مد إشيرو يده عبر المائدة ونقر بإصبعه على قارورة الساكى كما فعل مرة من قبل. حانت من تارو التفاتة نحوه: "آه، السيد إشيرو. هو بالضبط مَن نحتاج إليه لنقاشنا. قل لنا، ماذا ستصبح عندما تكبر؟"

أخذ حفيدى يحدق فى قارورة الساكى برهة ثم سدد إلى عينين متجهمتين. لمستْ أمه ذراعه هامسة: "يا إشيرو، عمك تارو يسألك. قل له ماذا تريد أن تصبح."

"رئيس نيبون للأدوات الكهربائية،" أعلن إشيرو عاليًا.

فانفجرنا فى الضحك.

سأله تارو: "هل أنت متأكد من ذلك يا سيد إشيرو؟ ألا تشاء بدلاً من هذا أن تقودنا فى ‘كى إن سي’؟"

"تيبون للأدوات الكهربائية هى أحسن شركة!"

عاودنا الضحك.

علق تارو: "يا له من عار علينا، فالسيد إشيرو هو تحديدًا مَن سنحتاجه فى ‘كى إن سي’ بعد سنين معدودة."

أذهب هذا الحديث الساكى عن تفكير إشيرو الذى بدا منذ تلك اللحظة يستمتع بوقته، إذ اشترك فى الضحك ملء شدقيه كلما ضحك الكبار. فقط قرب نهاية الوجبة سأل بصوت لا مبال بالمرة:

"هل فرغ الساكى كله؟"

أجابته نوريكو: "حتى آخر قطرة، أيريد السيد إشيرو مزيدًا من عصير البرتقال؟"

رد إشيرو العرض بأسلوب مهذب ثم تحول إلى تارو الذى كان يشرح له أمرًا ما. وسعنى رغم ذلك أن أتخيل خيبة أمله فغمرتنى موجة من السخط على سيتسوكو لعدم تفهمها مشاعر ولدها الصغير.

سنحتْ لى فرصة الانفراد بالحديث مع إشيرو بعد نحو الساعة لمّا دخلتُ الحجرة الإضافية الصغيرة فى الشقة لألقى عليه تحية المساء. كان النور ما يزال مضاء وإن ألفيت إشيرو نائمًا على صدره تحت اللحاف وهو يضغط الوسادة بخده. أطفأتُ النور فاكتشفتُ أن

الستائر لم تحل دون أن يلقى ضوء العمارة المقابلة قضباناً معتمة على الجدران والسقف. ومن الحجرة المجاورة تعالت أصوات ابنتى وهما تتضاحكان. جثوت إلى جانب لحاف إشيرو الذى قال همسًا:

"يا أوجى، خالتى نوريكو سكرانة؟"

"لا أعتقد يا إشيرو. إنها تضحك على حاجة، هذا كل ما هنالك."

"ممكن تكون سكرانة قليلاً، ألا تظن يا أوجي؟"

"حسنًا، ربما، قليلاً فقط. فلا ضرر من ذلك."

"لا تستطيع النساء تحمل الساكى، أليس كذلك يا أوجي؟" قال مقهقهًا فى وسادته.

ضحكتُ قائلاً: "تعرف يا إشيرو؟ لا داعى للضيق بسبب موضوع الساكى الليلة، فالمسألة ليست مهمة حقًا. سرعان ما ستكبر وعندئذ ستتمكن من شرب الساكى كيفما يحلو لك."

نهضتُ قاصدًا النافذة لأرى إن كنتُ أستطيع ضبط الستارة لجعلها أكثر إحكامًا. فتحتُها وأغلقتُها عدة مرات إلا أن طرفى الستارة ظلا متباعدين بما سمح لى أن أبصر دومًا نوافذ المبنى المقابل المضاءة.

"لا يا إشيرو، الأمر فعلاً لا يستأهل الضيق."

سكتْ حفيدى لحظات ثم أقبل صوته من خلفى:

"لا يجب أن يقلق أوجى."

"نعم؟ ماذا تقصد يا إشيرو؟"

"لا يجب أن يقلق أوجى لأنه لو قلق، لن ينام. وإذا لم ينم كبار السن، سيمرضون."

"فهمتُ. طيب يا إشيرو. يعدك أوجى ألا يقلق إنما يجب ألا تتضايق أنت أيضًا لأن المسألة فعلاً لا تستأهل الضيق."

لزم إشيرو الصمت. فتحتُ الستارة وأغلقتُها من جديد.

"لكن طبعًا لو كان إشيرو أصر حقًا على الساكى الليلة، كان أوجى مستعدًا أن يتدخل ويعمل على أن يشرب بعضًا منه لكن تقديرًا للظروف أعتقد أننا كنا على صواب لمّا تركنا النساء يفعلن ما يردن هذه المرة. فمثل هذه الأشياء البسيطة لا تستحق أن نغضبهما من أجلها."

"أحيانًا فى البيت يريد أبى أن يفعل شيئًا وتقول له أمى إنه غير مسموح، حتى أبى لا يقدر أحيانًا على أمى."

"حقًا،" قلت ضاحكًا.

"لذا لا يجب أن يقلق أوجى."

"لا داعى لقلق أى منا يا إشيرو،" ابتعدتُ عن النافذة وجثوت ثانية بجانب لحافه: "الآن حاول أن تنام."

"هل سيبيت أوجى هنا؟"

"لا، سيرجع أوجى بعد قليل إلى منزله."

"لِم لا يبيت أوجى أيضًا هنا؟"

"لا يوجد مكان كاف هنا يا إشيرو، تذكر أن أوجى لديه بيت واسع له هو وحده."

"هل سيجيء أوجى ليودعنى بكرة فى المحطة؟"

"طبعًا يا إشيرو، سأجيء، وأنت أكيد ستأتى للزيارة قريبًا."

"على أوجى ألا يقلق لأنه لم يقدر أن يجعل أمى تعطينى الساكى."

"الظاهر أنك تكبر بسرعة يا إشيرو،" قلت ضاحكًا. "ستكون رجلاً ممتازًا عندما تكبر، وربما ستصبح بحق رئيسًا لنيبون للأدوات الكهربائية أو شيئًا فى مثل ضخامة هذا المنصب. الآن دعنا نسكت قليلاً لنرى إذا كنتَ ستنام."

قعدتُ إلى جانبه هنيهة مجيبًا عليه بهدوء متى تحدث. وبينما كنت أنتظر فى تلك الحجرة المظلمة أن ينام حفيدى مستمعًا بين الحين والآخر لانفجارات الضحك الآتية من الحجرة المجاورة، جعلتُ أعمل فكرى فى المحادثة التى جرت ذلك الصباح مع سيتسوكو بمتنزه كاواب. علها كانت أول فرصة تتهيأ لى للتفكير فيها، وحتى تلك اللحظة لم يدر لِى ببال فعلاً أن يموج داخلى مثل هذا الغضب. بيد أنى حين تركتُ حفيدى النائم لأنضم ثانية إلى الآخرين بحجرة

المعيشة، كان الضيق من ابنتى الكبرى قد بلغ منى مبلغه. لا مراء أن هذا وراء قولى لتارو بعد وهلة من جلوسى:

"أتعلم؟ حين يفكر المرء فى الأمر يجده غريبًا. أنا وأبوك نعرف بعضنا منذ أكثر من ست عشرة سنة ومع ذلك لم نغدو صديقين حميمين إلا خلال العام السابق."

رد صهرى: "فعلاً، لكنى أحسب أنِ الأمور كثيرًا ما تسير على هذا المنوال. فالمرء يجاور دائمًا جيرانًا عديدين لا يبادلهم سوى تحية الصباح، وهو شيء يدعو إلى الأسف عند التفكير فيه."

"لكن أنا والدكتور سايتو لم نكن طبعًا مجرد جيران. فبحكم ارتباطنا بعالم الفن، عرف كل واحد منا سمعة الآخر، وهو إذن أمر يدعو إلى المزيد من الأسف أن أباك وأنا لم نبذل جهدًا أكبر لتجمعنا الصداقة من البداية. ألا تظن هذا يا تارو؟"

فيما كنتُ أتفوه بتلك الجملة، اختلستُ نظرة سريعة إلى سيتسوكو لأتحقق من أنها تسمع.

"هذا أمر يؤسف له بحق لكن على الأقل أتيحت لكم الفرصة أخيرًا كى تصيروا صديقين."

"ما أعنيه يا تارو هو أن الأمر جدير بعميق الأسف بما أن كلينا عرف طيلة الوقت بسمعة الآخر فى عالم الفن."

قال تارو: "أجل، هو أمر جد يؤسف له. فالمرء يعتقد أنه حين يعلم أن جاره هو الآخر زميل بارز، سيفضى ذلك إلى علاقة أكثر

حميمية لكنى أتصور أن هذا لا يحدث فى الغالب بسبب جداول الأعمال المشحونة وخطط المستقبل."

لمحتُ سيتسوكو بنظرة يتخللها بعض الارتياح إلا أن ابنتى لم تبد مطلقًا أية إشارة تعبر عن دلالة كلمات تارو. يحتمل طبعًا أنها لم تكن ملقية انتباهها حقًا؛ تخمينى مع ذلك أن سيتسوكو فطنت بالفعل إلى المغزى لكنها تكبرت على مقابلة نظرتى بمثلها بعد أن واجهتُها بالدليل على خطأها الفادح حين ألقت بتلك التلميحات صباحها.

كنا نسير الهوينا فى الطريق الرئيسى الواسع بالمتنزه معجبين بأشجار الخريف المصطفة على الجانبين. أخذنا نتبادل الانطباعات حول حياة نوريكو الجديدة متفقين على أنها من الواضح فى منتهى السعادة بحق.

كنت أقول: "إنى أنعم بكل الرضا، كان مستقبلها يجثم على صدرى لكن يظهر أن أحوالها تسير الآن على ما يرام. فتارو رجل رائع وليس لنا أن نأمل فى زوج خير منه."

قالت سيتسوكو والابتسام لا يفارق شفتيها: "غريب أننا كنا جميعًا بالغى الانشغال عليها منذ سنة فقط."

"إنى أنعم بكل الرضا. وتعلمين يا سيتسوكو؟ أنا ممتن لدورك فى الموضوع ككل، لقد كنتِ خير عون لأختك لمّا ساءت الأحوال."

"على العكس، ما فعلتُ سوى أقل القليل لسكنى بعيدًا عنكما."

"وبالطبع،" قلت ضاحكًا، "أنت مَن حذرتنى العام الماضى. ‘خطوات وقائية’ – أتذكرين يا سيتسوكو؟ كما ترين، أنا لم أتجاهل نصيحتك."

"عفوًا يا أبى، أية نصيحة؟"

"حسبك يا سيتسوكو، لا داعى لهذه اللباقة. أنا مستعد الآن للإقرار بوجود جوانب من سيرتى لا تحمل على الفخر، وقد اعترفتُ فعلاً بهذا خلال المفاوضات، تمامًا كما اقترحتِ."

"آسفة، غاب عن فهمى تمامًا مرماك يا أبى."

"ألم تخبرك نوريكو عن اللقاء المشترك؟ حسنًا، لقد تأكدتُ مساءها من إزالة أية عوائق تعترض طريق سعادتها من جراء سيرتى، وأخالنى كنت سأقوم بهذا على أية حال لكنى شاكر برغم ذلك على نصيحة السنة الماضية."

"لا تؤاخذنى يا أبى لكنى لا أذكر أنى قدمت أية نصائح فى العام الماضى. ومع ذلك بالنسبة للقاء، ذكرتْه نوريكو في الواقع عدة مرات. إذ كتبتْ لى خطابًا فور انتهاء اللقاء معبرة عن دهشتها لأن أبى... لكلمات أبى عن نفسه."

"أحسب أن ذهولاً حط عليها، فدائمًا ما بخستْ نوريكو قدر أبيها العجوز. لكنى لست ممن يتركون بناتهم تقاسين لمجرد أنهم يتكبرون على مواجهة الحقيقة."

"أخبرتنى نوريكو أنها واقعة فى الحيرة لتصرف أبى ليلتها، والبادى أن آل سايتو تولتهم نفس الحيرة. فلم يكن أحد متأكدًا بالمرة مما رمى إليه أبى بما قال. الحق أن سويشى أيضًا لم يكتم حيرته عندما قرأتُ له خطاب نوريكو."

"لكن هذا عجيب،" قلت ضاحكًا. "ياه يا سيتسوكو، أنت نفسك مَن دفعتنى إلى هذا السنة الماضية. فأنت مَن اقترحت أن أتخذ 'إجراءات وقائية' لئلا نخفق مع آل سايتو كما حدث مع آل مياك، ألا تذكرين؟"

"من المؤكد أنى كثيرة النسيان إلا أن ذاكرتى لا تعى للأسف ما يشير إليه أبى."

"ويحك يا سيتسوكو، إن كلامك لغريب."

توقفتْ سيتسوكو بغتة هاتفة: "يا لروعة أشجار القيقب فى ذلك الوقت من السنة!"

"فعلاً، بل إنها ستبدى بالتأكيد فى صورة أجمل مع تقدم الخريف."

"غاية فى الروعة،" نطقتْ ابنتى باسمة الثغر ثم طفقنا نسير من جديد. أسرت بعدها إلى: "اتفق فى الحقيقة يا أبى أننا كنا نناقش موضوعًا أو اثنين فى الليلة الفائتة، وتصادف أن ذكر السيد تارو محادثة أجراها معك الأسبوع الماضى بالتحديد، محادثة تخص الملحن الذى انتحر مؤخرًا."

"يوكيو ناجوشي؟ آه نعم، أذكر تلك المحادثة. دعيني أتذكر، أعتقد أن تارو كان يوحي بأن انتحار الرجل لا مغزى له."

"كان السيد تارو مكترثًا باهتمام أبي الكبير بموت السيد ناجوشي. إذ لاح في الواقع أن أبي يعقد مقارنة بين سيرة السيد ناجوشي وسيرته، وقد راودنا كلنا شعور بالقلق من هذه المقارنة. الحقيقة أن انشغالاً يساورنا مؤخرًا لانخفاض معنويات أبي قليلاً في أعقاب تقاعده."

ارتفعتْ ضحكتي: "يمكنك أن تريحي بالك يا سيتسوكو، أنا لا أفكر لحظة واحدة في الإقدام على ما آتاه السيد ناجوشي."

أردفتُ: "ما فهمتُه أن أغاني السيد ناجوشي انتشرت انتشارًا واسعًا على جميع مستويات المجهود الحربي، ويظهر أن هذا كان وراء رغبته في مشاركة السياسيين واللواءات المسؤولية. إنما أبي غلطان لو شرع حتى في التفكير بهذه الطريقة عن روحه، فقد كان أبي في النهاية رسامًا."

"دعيني أؤكد لك يا سيتسوكو أني لن أفكر لحظة واحدة في القيام بما أتاه ناجوشي لكني لا أغتر بنفسي حين أعتقد أني أنا أيضًا تمتعت ببعض النفوذ، نفوذ مهد السبيل لنهاية مفجعة."

بان على ابنتي التفكير في كلماتي وهلة ثم قالت:

"معذرة يا أبي، على أنه قد يكون من المهم رؤية الأشياء من منظور سليم. رسم أبي بعض اللوحات البديعة، وكان بلا مراء أكثر

الرسامين نفوذًا إلا أن عمل أبى لم يتصل بهذه الشئون الأضخم التى نتكلم عنها إلا بالكاد. إذ كان أبى مجرد رسام وعليه أن يكف عن الاعتقاد أنه اقترف خطأ فادحًا."

"حسنًا يا سيتسوكو، إن هذه النصيحة تختلف تمامًا عن نصيحة العام الماضى. فقد لاحت سيرتى وقتها عائقًا ضخمًا."

"معذرة يا أبى، ليس بمقدورى سوى أن أكرر أنى لا أفهم تلك الإشارات إلى مفاوضات الزواج. فالأمر بحق لغز لى، فلم يجب أن تكون سيرة أبى وثيقة الصلة بالمفاوضات، فالبادى أن آل سايتو كانوا يقينًا غير عابئين، وكما قلنا اعترتهم أشد الحيرة من سلوك أبى خلال اللقاء."

"إن كلامك مذهل بحق يا سيتسوكو. المسألة هى أنى والدكتور سايتو نعرف بعضنا البعض منذ عمر طويل. وبصفته واحدًا من أبرز نقاد الفن بالمدينة، كان متتبعًا لمسيرتى على مدار الأعوام ومدركًا تمام الإدراك لجوانبها المؤسفة. وكان من الصواب واللياقة بناء على هذا أن أوضح موقفى فى تلك المرحلة من الأحداث، وأنا كلى ثقة فى الواقع أن الدكتور سايتو قدر بشدة ما صنعتُه."

"لا تؤاخذنى يا أبى، لكن يبدو مما ذكره السيد تارو أن الدكتور سايتو لم يكن محيطًا قط بسيرة أبى. كان بالقطع يعرف أبى كجار لكن يبدو أنه لم يفطن البتة إلى أن شغل أبى متصل بعالم الفن حتى السنة الماضية حين بدأتْ المفاوضات."

"أنت مخطئة تمامًا يا سيتسوكو،" قلت ضاحكًا. "الدكتور سايتو يعرفنى منذ سنوات عديدة وكثيرًا ما اعتدنا التوقف فى الشارع وتبادل أخبار الفن."

"لا ريب إذًا أنى مخطئة. معذرة. لكن من المهم مع ذلك أن أشدد أنه ما من شخص ينظر قط إلى ماضى أبى باعتباره اتهامًا، ونرجو إذن أن يكف أبى عن التفكير فى روحه فى إطار رجال مثل ذلك الملحن التعس."

ما تابعتُ الجدل مع سيتسوكو وسرعان ما انتقلنا إلى مناقشة مواضيع عابرة. لا مرية مع ذلك أن ابنتى قد جانبها الصواب فى أغلب ما أكدته صباحها، فمن المستحيل مثلاً أن يكون الدكتور سايتو جهل شهرتى كرسام طوال كل تلك السنوات. وفى ذلك المساء بعد العشاء عندما احتلت كى أجعل تارو يؤكد المعلومة، ما فعلتُ ذلك إلا لأبين الأمر لسيتسوكو، فما داخلنى أى شك مطلقًا. إن ذكرى ذلك اليوم المشمس منذ حوالى ست عشرة سنة ما زالت ساطعة كل السطوع فى مخيلتى. خاطبنى عند ذاك الدكتور سايتو لأول مرة عندما كنت واقفًا لأضبط السور خارج منزلى الجديد. "إنه لشرف عظيم أن يقيم بحينا فنان له مثل مكانتك" قال بعد أن تعرف اسمى المكتوب على عمود البوابة. إن ذاكرتى عن هذا اللقاء واضحة لا لبس فيها، ومما لا جدال فيه أن سيتسوكو قد حادت عن الصواب.

يونيه ١٩٥٠

بعد أن تلقيت خبر وفاة ماتسودا فى ساعة متأخرة من صباح الأمس، أعددت لنفسى غذاء خفيفًا وخرجت بعدها لأمارس القليل من الرياضة.

كان نهار دافئًا لطيفًا عندما قطعتُ الطريق نازلاً التل. انتهيت إلى النهر وصعدتُ جسر التردد مرددًا بصرى حولى. كانت السماء تتلون بزرقة صافية وبالقرب من الضفة فى الأسفل – بموازاة الموقع الذى بدأ فيه تشييد العمارات الجديدة – رأيت ولدين صغيرين يلعبان بصنانير الصيد عند حافة الماء. راقبتهما هنيهة وأنا أتأمل فى خاطرى أخبار ماتسودا.

كنت قد عزمت دومًا على زيارة ماتسودا ثانية منذ عاودتُ توطيد صِلتي به أثناء مفاوضات زواج نوريكو على أنى فى الحقيقة ما تمكنتُ من الذهاب إلى أراكاوا إلا منذ حوالى شهر فقط. كان الباعث على ذهابى مجرد دافع مفاجئ، إذ لم تكن لدى أية فكرة وقتئذ أنه يقف على عتبة الموت. لعل ماتسودا قضى نحبه أكثر سعادة قليلاً لأنه شاركنى أفكاره فى تلك الظهيرة.

عند وصولى إلى منزله، تعرفتْ الآنسة سوزوكى على توًا وأدخلتنى وهى من اللهفة فى حال. وقد أوحى سلوكما إلى بأن ماتسودا لم يستقبل زوارًا عديدين منذ زيارتى الأخيرة من ثمانية عشر شهرًا.

"إنه أقوى بكثير من آخر مرة كنتَ فيها هنا،" أفضت إلي بكلمات ملؤها السعادة.

رافقتْني حتى غرفة الاستقبال وبعد لحظات معدودة أقبل ماتسودا يمشي دون أن تسنده يد وهو يرتدي كيمونو فضفاضًا. انتابته سعادة واضحة لرؤيتي، وتحدثنا وهلة عن شئون عادية ومعارفنا المشتركين. أخالني ما تذكرتُ أن أشكره علي خطاب تشجيع بعثه إلي أثناء مرضي الأخير سوى عندما أحضرتْ الآنسة سوزوكي الشاي وخرجتْ مجددًا.

قال: "يظهر أنك تعافيت جيدًا يا أونو، عندما أنظر إليك لا أخالك قط كنت مريضًا مؤخرًا."

"أنا أحسن بكثير الآن. يجب ألا أرهق نفسي ولازم أن اتكئ على هذه العصا. غير هذا وذاك أشعر أني بصحة موفورة كما كنت على الدوام."

"خيبتَ أملي يا أونو، ظننتنا سنجتمع كرجلين عجوزين يناقشان معًا صحتهما المعتلة. لكن ها أنت ذا، تمامًا كما أتيت في المرة السابقة، وعلى أنا أن أجلس هنا وأحسدك على صحتك."

"كلام فارغ، أنتَ تبدو بصحة وعافية."

"لن تقنعني بهذا يا أونو،" قال ضاحكًا. "برغم أنه صحيح أني استعدت قليلاً من وزني خلال العام الماضي. لكن أخبرني، هل السيدة نوريكو سعيدة؟ سمعتُ أن زواجها تكلل بالنجاح. لمّا جئتَ آخر مرة، كان القلق يتملكك على مستقبلها."

"انتهت الأمور على خير، فهى ستنجب طفلاً فى الخريف. وبعد كل هذا القلق، أمست حياتها على ما يرام، أحسن مما كنتُ أتمنى لها."

"حفيد فى الخريف، لا بد أنك تتطلع إليه."

"فى الواقع ستلد ابنتى الكبرى طفلها الثانى الشهر المقبل. كانت تصبو إلى طفل آخر، لذا فهى أخبار عظيمة."

"فعلاً، فعلاً، تتطلع الآن إلى وصول حفيدين." جلس برهة هناك يبتسم ويومئ برأسه لنفسه ثم قال: "لا شك أنك تتذكر يا أونو أنى كنت دائم الانهماك فى تحسين العالم ولم أفكر فى الزواج. أتذكر تلك المجادلات التى وقعت بيننا قبيل زواجك من السيدة ميشيكو؟"

انطلقتْ ضحكاتنا.

"حفيدان،" كرر ماتسودا. "ثمة شيء لتتطلع إليه الآن."

"بالفعل، حالفنى حظ وفير مع بناتى."

"قل لى يا أونو، هل ترسم هذه الأيام؟"

"قلة من اللوحات المائية لصرف الوقت، نباتات وزهور فى الغالب حتى أسلى روحى فحسب."

"يسعدنى أنك ترسم مجددًا على أية حال. عندما حضرتَ آخر مرة لرؤيتى، بدا وكأنك هجرت الرسم إلى الأبد. كنتَ تشعر حينذاك بخيبة أمل شديدة."

"كنتُ هكذا دون شك، لم أكن قد لمست الألوان منذ زمن."

"أجل يا أونو، بدت عليك خيبة أمل شديدة،" ثم رفع بصره إلى بابتسامة: "لكن لا ريب أن رغبة عارمة استولت عليك لتحقيق إسهام ضخم."

رددت على ابتسامته بأختها: "لكنك أردت الشيء نفسه يا ماتسودا، فأهدافك لم تكن أقل عظمة. فأنتَ فبرغم كل شيء مَن أعد البيان الخاص بحملتنا عن الأزمة الصينية. كانت تلك المطامح بعيدة كل البعد عن التواضع."

ضحك كلانا مرة أخرى ثم أنهى إلى:

"لا شك أنك ستتذكر يا أونو كيف اعتدتَ أن أرميك بالسذاجة، كيف اعتدت أن أسخر من منظورك الضيق عن الفنان. كنتَ تستشيط غضبًا. طيب، الظاهر أن كلينا فى النهاية لم يكن يتمتع برؤية رحبة بما يكفي."

"أظنك على حق. على أننا لو كنا فطنا إلى الأمور بصورة أوضح قليلاً، لكان أمثالى وأمثالك يا ماتسودا – مَن العالِم؟ ربما كنا حققنا بعض الخير الحق. فقد تحلينا ذات يوم بطاقة هائلة وشجاعة أى شجاعة. لا بد وأننا كنا مفعمين حقًا بكليهما حتى نستطيع أن نقود شيئًا مثل حملة اليابان الجديدة تلك، أتذكر؟"

"فعلاً. وقفتْ بعض القوى الجبارة وقتئذ فى وجوهنا وكان من الممكن أن نفقد جسارتنا بسهولة. أحسبنا كنا من أولى العزم يا أونو."

"لكن أنا عن نفسى لم تتجل الأوضاع قط أمام عينى تمام التجلى. إنه منظور الفنان الضيق كما تقول. ياه، بل إنى الآن يشق على التفكير فى العالم المترامى وراء هذه المدينة."

قال ماتسودا: "فى هذه الأيام يشق على التفكير فى العالم المترامى وراء حديقتى، لذا لعلك الآن يا أونو صاحب المنظور الأوسع."

استأنفنا الضحك معًا ثم حسا ماتسودا رشفة شاى من قدحه.

قال: "إنما لا داعى للمغالاة فى لوم أنفسنا. نحن على الأقل أقدمنا على ما آمنا به وبذلنا ما فى وسعنا. كل ما هنالك أنه اتضح فى النهاية أننا رجال عاديون، رجال عاديون بلا أية مواهب متفردة فيما يخص نفاذ البصيرة. فمن سوء حظنا فحسب أن كنا رجالاً عاديين فى مثل تلك الآونة."

حازت إشارة ماتسودا الآنفة إلى حديقته انتباهى. كانت ظهيرة ربيعية معتدلة، تركتْ الآنسة سوزوكى جزءًا من الستارة مفتوحًا فأبصرتُ من مجلسى الشمس وهى تنعكس بضيائها الساطع على ألواح الشرفة اللامعة. خفت نسمة رقيقة إلى داخل الحجرة ومعها رائحة دخان خفيفة. نهضتُ واتجهتُ إلى الستائر.

أسررتُ إليه: "ما زالت رائحة الحريق توقع فى روعى اضطرابًا. كانت منذ عهد وشيك تعنى القصف بالقنابل والنيران،" رحت أحدق برهة فى الحديقة: "سوف تمر الشهر القادم خمسة أعوام على وفاة ميشيكو."

ظلّ ماتسودا مطرقًا وهلة ثم نمى إلى صوته خلفى:

"رائحة الحريق فى هذه الأيام تعنى فى المعتاد أن جارًا ينظف حديقته."

ومن مكان ما بالمنزل طفقتْ الساعة تدق.

أنبأنى ماتسودا: "حان وقت إطعام سمك الشبوط. أتعلم أنى اضطررت أن أتشاجر مع الآنسة سوزوكى كثيرًا قبل أن تسمح لى بالبدء فى إطعام الشبوط مرة أخرى. كنتُ معتادًا على إطعامها بانتظام لكنى تعثرت منذ أشهر قلائل فى واحد من تلك الأحجار التى أخطو عليها، وكان على أن أتنازع معها بعدها لفترة طويلة."

وقف ماتسودا على قدميه ولبس صندلاً من القش كان متروكًا فى الشرفة ثم نزلنا إلى الحديقة. وقعتْ البركة فى الطرف البعيد من الحديقة وسط أشعة الشمس، تقدمنا بخطوات حذرة على الأحجار الموضوعة بين ربى الطحالب الملساء.

وأثناء وقوفنا على حافة البركة نرسل بصرينا إلى الماء الأخضر السميك، علا صوت جعلنا نرفع رأسينا، فألفينا ولدًا فى حوالى الرابعة أو الخامسة يتشبث بذراعيه الاثنين بفرع شجرة عند موضع ليس ببعيد عنا ويحدق فينا من فوق سور الحديقة. أشرق وجه ماتسودا بابتسامة وصاح:

"آه، مساء الخير يا بونشان!"

ظل الولد يحملق إلينا برهة ثم توارى عن الأنظار. ابتسم ماتسودا وجعل يلقى بالطعام فى الماء وهو يقول: "ابن أحد الجيران. كل يوم فى ذلك الوقت يتسلق جذع تلك الشجرة ليراقبنى وأنا خارج لإطعام الأسماك لكنه خجول ولو حاولتُ أن أتكلم معه يولى هاربًا." صدرتْ عنه ضحكة خفيضة لنفسه. "كثيرًا ما أتساءل عن سبب بذله مجهودًا كهذا كل يوم. فلا يوجد الكثير ليراه، مجرد رجل عجوز يتعكز على عصا ويقف بجوار بركته ليطعم الشبوط. تُرى ماذا يجده ساحرًا فى مثل هذا المشهد."

عاودتُ النظر تجاه السور حيث أطل الوجه الصغير منذ لحظة وقلت: "طيب، اليوم لقى مفاجئة، شاهد رجلين عجوزين بعكازين يقفان بجوار البركة."

ضحك ماتسودا ضحكة لا تخلو من سعادة وأخذ يقذف الطعام فى الماء، فصعدتْ إلى السطح سمكتان من أسماك الشبوط الرائعة أو ثلاث وقد تلألأتْ حراشفها تحت ضوء الشمس.

قال ماتسودا: "ضباط جيش، سياسيون، رجال أعمال، كلهم ليموا على ما جرى لهذا البلد. لكن بالنسبة لمن هم على شاكلتنا يا أونو، كان إسهامنا هامشيًا على الدوام. لا أحد يكترث الآن لما جاء به أمثالك وأمثالى فى يوم من الأيام، فهم ينظرون إلينا ولا يرون سوى عجوزين بعكازين." ابتسم فى وجهى ثم واصل إطعام السمك. "نحن مَن نأبه الآن ولا أحد غيرنا. ولمّا يتطلع أمثالنا إلى حياتهم من خلفهم ويفطنون إلى أنها قد شابتها النقائص، سيجدون أنهم وحدهم العابئون."

لكن حتى عندما تفوه ماتسودا بتلك الكلمات، لبث أمر ما بسلوكه في تلك الظهيرة يوحي بأنه لم يكن خائب الأمل على الإطلاق، ولم يكن هناك قطعًا أي سبب يدعوه إلى أن يموت خائب الأمل. لعله رنا بحق إلى حياته وألفى بعض الغلطات إلا أنه كان بلا مراء سيتعرف على نواح له أن يفخر بها، ذلك أن أمثالنا يتولاهم الارتياح لمعرفة أن أيًا كان ما فعلوه قد فعلوه وقتها بحسن نية كما بيّن هو نفسه. أقدمنا بطبيعة الحال على خطوات جريئة وكم من المرات قمنا بأعمال تزخر بكل تصميم وعزم؛ لكنه من الأفضل بلا ريب ألا يضع الإنسان بتاتًا اعتقاداته على المحك لِما قد يعوزه من إرادة أو شجاعة. وعندما يكون إيمان الإنسان باعتقاداته على جانب من العمق، تأتي بالتأكيد مرحلة يصبح فيها من الحقارة أن يراوغ أكثر من ذلك. وأنا على يقين أن ماتسودا تدبر الأمر بصورة متسقة مع هذه الأفكار عندما اجتلى ماضيه.

ثمة لحظة محددة طالما وثبتْ إلى ذهني – كانت في مايو ١٩٣٨ عقب تسلمي جائزة مؤسسة شيجيتا مباشرة. كنت قد تقلدت في تلك المرحلة من مسيرتي شتى الجوائز والأوسمة غير أن جائزة مؤسسة شيجيتا كانت في نظر أكثرية الناس نقطة تحول بارزة. أذكر بالإضافة إلى هذا أننا كنا قد فرغنا في نفس ذلك الأسبوع من حملة اليابان الجديدة التي لاقت نجاحًا منقطع النظير. وهكذا أمضينا ليلة تقديم الجائزة في احتفال كبير. كنت أجلس في الميجي–هيداري محاطًا بتلاميذي ومختلف الزملاء. توالى تقديم الخمور إلي، واستمعت إلى الخطاب بعد الآخر تكريمًا لشخصي. ليلتها وفد جميع

المعارف إلى الميجي-هيدارى ليقدموا التهنئات بل إنى أذكر أن ضابطًا ما قابلته فى حياتى من قبل أتى ليهنئنى. لكن على قدر سعادتى ليلتها، كان من الغريب أني افتقدت الإحساس العميق بالانتصار والتحقق الذى كان حريًا بالجائزة أن تبثه فى قلبى. الحقيقة أن هذا الإحساس لم يراودنى سوى بعد أيام قليلة عندما خرجتُ إلى ريف إقليم واكابا المليء بالتلال.

لم أكن قد زرت واكابا منذ قرابة ست عشرة سنة - منذ ذاك اليوم الذى غادرتُ فيه فيلا السيد مورى مصممًا على المضى لكن دون أن أنجو من الخوف ألا يدخر لى المستقبل نجاحًا. ورغم أنى قطعت كل الاتصالات الرسمية بالسيد مورى، بقيت فى غضون تلك الأعوام محبًا للاطلاع على أية أخبار تتعلق بمعلمى السابق، ومن ثم كنت على وعى تام بما آلت إليه سمعته بالمدينة من تدهور مستمر. فمساعيه لدمج التأثير الأوروبى بتعاليم يوتامارا باتت تُعتبر محاولات غير وطنية فى جوهرها، ويسمع الناس من وقت لآخر أنه ينظم المعارض بصعوبة بالغة في أماكن أقل مقامًا من ذى قبل. الحق أنه ورد إلى مسامعى من أكثر من مصدر أنه طفق يرسم الرسوم التوضيحية للمجلات الشعبية ليحافظ على دخله. وبإمكانى فى الوقت عينه أن أثق تمام الثقة أن السيد مورى تابع تقدم مسيرتى وسمع بالتأكيد بتسلمى لجائزة مؤسسة شيجيتا. وفى ذلك اليوم ترجلتُ من القطار بمحطة القرية حاملاً بين جنبى إدراكًا عميقًا لما جلبه الزمن علينا من تغييرات.

كانت ظهيرة ربيعية مشمسة عندما شرعتُ فى التوجه إلى فيلا السيد مورى الواقعة بحذاء تلك الطرق المنحدرة التى تقطع الغابة. تمهلتُ فى المشى مستمتعًا بمسيرة عرفتُها ذات يوم حق المعرفة. وأثناء سيرى حامت أفكارى حول ما قد يحدث عندما أرى السيد مورى وجهًا لوجه مرة ثانية. لعله سيستقبلنى كضيف محترم؛ ربما سيعتليه نفس البرود والتحفظ اللذين كان عليهما أثناء أيامى الأخيرة بالفيلا؛ لكن من ناحية أخرى قد يعاملنى كما عاملنى دومًا حين كنت تلميذه الأثير – أى وكأن هذه التغييرات الهائلة لم تمتد يدها إلى مكانة كلينا. استوقفنى آخر هذه الاحتمالات كأكثرها ترجيحًا. أتذكر أنى فكرت مليًا فى رد فعلى فقررتُ أنى لن أرجع إلى العادات القديمة وأخاطبه بـ "أيها المعلم"؛ وعوضًا عن هذا سأخاطبه ببساطة كما لو كان زميلاً. ولئن أصر على عدم الاعتراف بما أحتله الآن من منزلة، سأطلق ضحكة ودودة قائلاً شيئًا له الوقع التالى: "كما ترى يا سيد مورى، لم أضطر إلى تمضية وقتى فى رسم الرسوم التوضيحية لمجلات الأطفال المصورة مثلما خشيتَ فى يوم من الأيام."

ألفيت نفسى فى النهاية عند ذلك الموضع فوق الطريق الجبلى المرتفع الذى يشرف على منظر جميل للفيلا بين أشجار الوادى. توقفت برهة لأطالع المشهد فى إكبار كما كنت أفعل كثيرًا منذ سنوات خلت. هفت على رياح منعشة، وبالأسفل عند الوادى مددت عينى إلى الأشجار وهى تترنح فى نعومة. تساءلتُ فى قرارة نفسى إذا كان قد تم تجديد الفيلا على أنه استحال التحقق من هذا عن هذا البعد.

جلستُ بعد فترة قصيرة وسط العشب البرى النامى بطول سلسلة التلال وأخذتُ أرنو إلى فيلا السيد مورى. كنت قد ابتعت بعض البرتقال من كشك بجوار محطة القرية فتناولتُها من منديلى ورحت آكلها الواحدة تلو الأخرى. وفيما كنت أقعد هناك وعيناى على الفيلا مستمتعًا بطعم تلك البرتقالات الطازجة، إذا بى يخامرنى ذلك الإحساس العميق بالانتصار والقناعة. يصعب على وصف الشعور، فقد اختلف تمامًا عما يحس به الإنسان من ابتهاج من جراء الانتصارات الأقل قيمة – وكما سبق القول اختلف كلية عن أى شيء قام فى نفسى أثناء احتفالات الميجي–هيدارى. كان شعورًا عميقًا بالسعادة مستمدًا من قناعتى بأن جهود المرء انكتبتْ لها البراءة؛ وأن ما اضطلعتُ به من عمل جاد وما تغلبتُ عليه من شكوك كلها تستحق العناء؛ قناعتي بأن المرء أنجز شيئًا ذا قيمة فعلية وامتياز حقيقي. لم أدن يومها أكثر من هذا صوب الفيلا – فقد بدا اقترابى لا مغزى له على الإطلاق. فما كان منى سوى أن جلستُ هناك لمدة ساعة تقريبًا آكلاً برتقالاتى وأنا فى حالة من الرضا البالغ.

أتخيل أن هذا الإحساس لن يختلج فى صدر العديد من الأشخاص. لعل أمثال السلحفاة وشينتارو يتهادون فى الحياة راضين مسالمين غير أن أمثالهم لن يخبروا البتة ما داخلنى من سعادة يومذاك، فأمثالهم لا يفقهون معنى أن يخامر المرء بكل شيء فى مسعاه للعلو فوق المستوى العادى.

مع ذلك كان ماتسودا حالة مختلفة. فبرغم أننا ام نسلم كثيرًا من العراك معًا، فقد تماثلتْ مناهجنا فى الحياة، وأنا واثق أنه استطاع

أن يجتر من ماضيه واحدة أو اثنتين من تلك اللحظات. أنا متأكد بالفعل أن تفكيره كان متسقًا مع هذا المجرى عندما قال لي بابتسامة وديعة على وجهه في المرة الأخيرة التي تحادثنا فيها: "نحن على الأقل أقدمنا على ما آمنا به وبذلنا ما في وسعنا." لأنه مهما أعاد الإنسان تقييم إنجازاته بعد مرور السنين، يستشعر دائمًا العزاء حين يعلم أن بحياته لحظة أو اثنتين من القناعة الحقة كالتي شعرتُ بها يومها أعلى ذلك الطريق الجبلي المرتفع.

بعد أن وقفتُ صبيحة الأمس على جسر التردد أتأمل حال ماتسودا بضع لحظات، قادتني قدماي إلى حيث وقع حي المتعة. بُنيت المنطقة من جديد وأصبح من العسير التعرف عليها. فالشارع الضيق الصغير الذي اخترق الحي في يوم ما وهو يغص بالناس واللافتات القماش المعلنة عن مختلف المنشئات شُيد الآن محله طريق عريض من الإسفلت تروح عليه الشاحنات الثقيلة وتجيء طوال اليوم. وفي الموضع الذي قامت فيه حانة السيدة كاواكامي يعلو الآن مبنى للمكاتب ذو واجهة زجاجية ارتفاعه أربعة طوابق تجاوره المزيد من تلك المباني الشاهقة. وخلال النهار يستطيع المرء أن يبصر الموظفين وعمال التوصيل والسعاة يتحركون كلهم بهمة داخل المباني وخارجها. لم تعد هناك الآن أية حانات حتى منطقة فوروكاوا إلا أن المرء قد يتعرف هنا وهناك على جزء من سور أو شجرة تبقت من الأيام الخالية، تلوح متنافرة شاذة في موقعها الجديد.

توجد الآن فى البقعة التى استقرتْ فيها الميجي-هيدارى ذات يوم ساحة أمامية بمبعد عن الطريق تقوم أمامها مجموعة من المكاتب. يوقف بعض كبار الموظفين سياراتهم في هذه الساحة لكنها على العموم مساحة خالية مرصوفة بالأسمنت زُرعت فى مواضع مختلفة منها قلة من الأشجار الصغيرة. وأمام هذه الساحة ثمة مقعد يواجه الطريق من النوع الذى قد تجده فى المتنزهات. لمنفعة مَن وُضع هناك؟ لا أعلم، فأنا لم أر قط أيًا من هؤلاء المشغولين يتوقف ليسترخى عليه. لكن خيل إلى أن ذلك المقعد شغل مكانًا قريبًا للغاية من مكان مائدتنا القديمة بالميجى - هيدارى. لذا درجتُ على الجلوس عليه في بعض الأوقات. قد لا يكون مقعدًا عامًا لكنه على بُعد يسير من الرصيف، ولم يعترض أحد مطلقًا على جلوسى عليه. وفى صباح الأمس مع إشراقة الشمس الصافية قعدتُ عليه ومكثتُ هناك برهة أرقب ما يموج حولى من نشاط.

لابد أن الوقت أشرف آنذاك على موعد الغذاء لأنى رأيت على الجانب الآخر من الطريق مجموعات من الموظفين بقمصانهم ناصعة البياض وهم يخرجون من المبنى ذى الواجهة الزجاجية حيث كانت فيما خلا حانة السيدة كاواكامى. وبينما كنت أشاهدهم، استوقفني كيف كانَ هؤلاء الشبان مفعمين بالتفاؤل والحماسة. توقف فى إحدى اللحظات شابان خارجان من المبنى ليتجاذبا أطراف الحديث مع ثالث في طريقه إلى الدخول. وقف ثلاثتهم على درجات المبني يتضاحكون معًا وأشعة الشمس تكللهم. أمكننى أن أتبين وجه أحد الشبان بوضوح

تام، كان يضحك بابتهاج شديد وبراءة الأطفال المنفتحة تنطبع على محياه. تفرق الزملاء الثلاثة بعدها بإيماءة سريعة وذهبوا في سبيلهم.

رفت على شفتي ابتسامة ونظري لا يزال يتعلق بهؤلاء الموظفين الشبان. لا ريب أني عندما أسترجع أحيانًا تلك الحانات ساطعة الإضاءة وكل هؤلاء المحتشدين تحت المصابيح – يتضاحكون ربما بصخب أعلى قليلاً من شبان الأمس إنما بنفس الروح الطيبة – ينازعني حنين إلى الماضي وإلى الحي كما كان. بيد أني حين أبصر كيف شُيدتْ المدينة من جديد وكيف تعافت الدنيا بسرعة فائقة خلال هذه الأعوام، يشمل قلبي سرور أصيل. إذ يبدو أن أمتنا لديها الآن فرصة لتحسين أوضاعها مهما كانت الأخطاء التي وقعتْ فيها في الماضي، ولا يسع المرء سوى أن يتمنى الخير لهؤلاء الشبان.

المؤلف فى سطور:

كازو إيشيجورو

يحمل كازو إيشيجورو تأثير ثقافتين، اليابانية والإنجليزية. ولد في ناجازاكي باليابان عام ١٩٥٤ وانتقل وهو في الخامسة من عمره إلى إنجلترا. حصل على شهادة الآداب مع مرتبة الشرف من جامعة كينت بكانتربيري عام ١٩٧٨ حيث اطلع على الأدب الإنجليزي والفلسفة. درس الكتابة الإبداعية بجامعة إيست أنجليا حيث حصل على الماجستير عام ١٩٨٠. وهو الآن زميل بالجمعية الملكية للأدب ويعيش في لندن.

حازت أعمال إيشيجورو على استحسان نقدي عالمي وحصل على العديد من الجوائز الدولية. كانت أولى أعماله الأدبية ثلاث قصص قصيرة نشرت عام ١٩٨١ في كتاب بعنوان *مقدمات سبع قصص لكتاب جدد*. فازت باكورة رواياته "*منظر شاحب للتلال*" بجائزة وينفريد هولتباي ميموريال المقدَمة من الجمعِية الملكية للأدب ومنحها اتحاد المكتبات الأمريكي لقب أفضل كتاب لعام ١٩٨٢.

نشرت دار فيبر آند فيبر بلندن روايته الثانية "*فنان من العالم الطليق*" عام ١٩٨٦. رشحت الرواية لجائزة بوكر عام ١٩٨٦ وحصلت على جائزة ويتبريد عام ١٩٨٦ وجائزة سكانو الإيطالية عام ١٩٩٥.

حصلت روايته "*بقايا اليوم*(*) على جائزة بوكر عام ١٩٨٩ وتحولت إلى فلم يحمل نفس الاسم من إخراج جيمز أيفوري. ١

رشحت روايته *مَن لا عزاء له* (1995) لجائزة ويتبريد وحصلت على جائزة شيلتنهام. وكذلك رشحت روايته *عندما كنا يتامى*(**) (2000) لجائزتيّ ويتبريد وبوكر. رشحت آخر رواياته *لا تتركني أبداً* لجائزة بوكر عام ٢٠٠٥. الرواية متاحة على قرص مضغوط بصوت روزالين لاندور.

كتب إيشيجورو سيناريو فلم *أكثر الموسيقى حزناً في العالم* عام ٢٠٠٣. الفلم من إخراج جاي مادين. كما كتب سيناريو فلم *الكونتيسة البيضاء* عام ٢٠٠٥ من إخراج جيمز أيفوري.

نال إيشيجورو عام ١٩٩٥ وسام الإمبراطورية البريطانية لإسهاماته الأدبية وحصل على جائزة مانتوفا الإيطالية عام ١٩٩٨. منحته الحكومة الفرنسية لقب فارس الفنون والآداب عام ١٩٩٨. وترجمت أعماله إلى أكثر من ثلاثين لغة.

(*) صدرت في المشروع القومي للترجمة عام ٢٠٠٠.

(**) صدرت عن المركز القومي للترجمة عام ٢٠٠٨.

المترجم فى سطور:

هالة صلاح الدين حسين

مترجمة مصرية تخرجت من كلية الآداب، جامعة طنطا. نشرت ترجمة كتاب *تناسخ الأرواح فى بارك أفينو* تحرير إي. إل. دوكتورو في سلسلة شرق وغرب، أخبار اليوم، عام ٢٠٠٦ وكتاب *أملى فى السلام* لجيهان السادات في دار الشروق عام ٢٠٠٨. تعمل مترجمة فى مجلة *وجهات نظر* منذ عام ٢٠٠٥ وتشرف على تحرير مجلة *البوتقة* – فصلية إلكترونية مستقلة تعنى بترجمة الأدب الإنجليزى – منذ إبريل ٢٠٠٦، وقد أصدرت حتى تاريخه واحدًا وعشرين عددًا من المجلة.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الـفنى: حســـن كامــل

يقدم إيشيجورو في هذه الرواية عملية إعادة تقييم لمبادئ الحرب والسلام. وهو لا يقول أي شيء بصورة مباشرة على لسان الراوي؛ إذ تغلب الرمزية على النص حتى يُخيل للقارئ أن الرواية لا تطرح أي شيء على الإطلاق! بيد أن المعنى الحقيقي يطفو فوق الأحداث ولا يتضح سوى لقارئ ما بين السطور؛ لذا يصعب وضع تصور أوحد للكتاب، أهو هجوم على الرضا الزائف عن الذات، على مَن تكاتفوا لهلاك أمة ليخرجوا في النهاية سالمين بلا عقاب أم مناشدة لطلب الغفران؟ هل فنان العالم الطليق عجوز أحمق مغرور، ساذج بدرجة لا يتصورها عقل، أم مفكر أساءت اليابان معاملته وشوهت صورته بعد الحرب العالمية الثانية؟ أكان فنه ذا أهمية ت… لنظام الحكم أم تراه يعيش خدعة كبرى… وطنيًا ضحى بكل غال من أجل شعبه أ… سعى وراء الشهرة مقابل دعاية سياسية رخ… إن علامات الموت والخراب تلوح في …

تصميم الغلاف: حسن كامل